

تاريخ الأندلس

يوسف أشباح

تاريخ الأندلس

في عهد المرابطين والموحدين

الجزء الأول

ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان

تقديم وتنويه: سليمان العطار

كيف حكم البربر الأندلس؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبراطوريتين قامتتا في المغرب هدمت ثانيتهما الأولى. سمت أولى الدولتين نفسها دولة المرابطين، أما الثانية فسمت نفسها دولة الموحيدين. هذه القصة الطويلة هي موضوع هذا الكتاب الممتاز الذي ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربي العلامة محمد عبدالله عنان.

والأهمية البالغة لهذا الكتاب ترجع لكون مؤلفه مطلعاً على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر الأوروبية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاثة، وارتباطها الوثيق وتداخلها. والمؤلف أيضاً ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية بجانب المصادر الإسبانية والأوروبية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (1837) لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية الأخرى وغيرها من مغان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك الحقبة.

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

(الجزء الأول)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1879
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: الجزء الأول
- يوسف أشباح
- محمد عبد الله عنان
- سليمان العطار
- 2014

هذه ترجمة كتاب:

Geschichte Spaniens und Portugals zur Zeit der Herrschaft
der Almorawiden und Almohaden
Von: Joseph Aschbach

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ الأندلس

فى عهد المرابطين والموحدين

(الجزء الأول)

تأليف : يوسف أشـباخ
ترجمة وتعليق : محمد عبد الله عنان
تقديم وتنويه : سليمان العطار



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أشباح: يوسف.
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين: الجزء الأول/
تأليف: يوسف أشباح، ترجمة وتعليق: محمد عبد الله عنان
تقديم وتوثيق: سليمان العطار.
القاهرة: (المركز القومى للترجمة)، ٢٠١٤
٢٩٢ ص، ٢٤ سم
١ - الأندلس - تاريخ - الموحدين.
٢ - الأندلس - تاريخ - الخلفاء المرابطون.
(أ) عنان، محمد عبد الله (مترجم).
(ب) العطار، سليمان (تقديم).
(ج) العنوان
٩٥٣، ٠٧١٣

رقم الإيداع ٢٠١١/٥٠٤٨
الترقيم الدولى 6 - 493 - 704 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقديم وتنويه

بقلم : سليمان العطار

الأندلس تعريب لكلمة جرمانية هي اسم علم يشير إلى مجموعة قبائل من أصل جرمانى كانت تعيش فى جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، والعرب تسمى فى معظم الأحوال مكان مضرب القبيلة لخيامها وبيوتها باسم القبيلة، وهكذا ظنوا أن ذلك هو اسم البلاد التى كانوا يفتحونها فى اللحظات الأولى للفتح . وجاءت الكلمة الجديدة مليئة بإيقاعات تجذب شاعرية من رنينها الصوتى، ومن أحداث عجيبة وعالم غرائبى بالنسبة للفاثحين من عرب وبربر . كانت حياة العربى على أرض الأندلس سلسلة من المغامرات العسكرية والحضارية، خاصة فى مجالات الملابس والمودة والموسيقى والتذوق الفنى (لكل شىء حتى الطعام) والمعمار والشعر والخلق التزيينى من لعب بالمياه والبستة فى باحات القصور بل والبيوت المتواضعة وفى الشوارع والبيادين حيث لبتدعوا المنازه العامة . وعند سقوط آخر المعقل العربية فى غرناطة اكتسبت شاعرية لفظة الأندلس عمقا رومانسيا غامضا يسحر حتى من لايعرفون شيئا عن تاريخ الكلمة وما تشير إليه، فهامى تغطى كثيرا من واجهات المحال والشركات والقرى الشاطئية، كنوافذ نحو فردوس مفقود.

وتاريخ الأندلس العربى شارك فى صنعه بجانب اللاعب العربى الرئيسى كثير من اللاعبين الثانويين من أعراق وأديان متعددة فى الداخل الأندلسى بجانب اللاعبين العالميين من عرب المشرق ومن بيزنطيين ومن ملوك الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومن قبائل همجية من أقصى شمال أوربا أطلق عليهم العرب اسم المجوس (النورمانديين) . وقد ظلت الأندلس بورصة عالمية للحروب والصراعات العنيفة المعلنة والسرية أكثر من ثمانية قرون، دون أن يحول ذلك بين سكانها من العرب وبين بناء حضارة مذهلة، كانت الموتور المحرك للنهضة الأوروبية، وعلى غير المتوقع لم يكن لها كبير صدى فى المشرق العربى، لأنه كان يتجه نحو سبات عميق تاركا أمر الدفاع عن الدولة للفرس تارة وللأتراك أو للأكراد تارة أخرى، أما العنصر العربى الذى قام بالفتوحات الهائلة، وانفتح على حضارات العام أجمع، فقد اختفى أثره الإبداعى والمستلهم تدريجيا .

وأحد اللاعبين المهمين فى صنع بعض أهم أحداث تاريخ الأندلس دون أن يلعب دورا حضاريا واضحا هو العنصر البربرى المغربى، وهو عنصر محارب بدوى النزعة، استعان بالأندلسيين فى إقامة عمارته وموسيقاه وأدبه والأهم من ذلك فى زراعته حيث امتلك الأندلسيون أعلى تقنية فى هندسة الري واستخراج المياه واستخدام مياه المطر . وفى رأى أن أكثر ما يملك الشمال الأفريقى حتى اليوم من موسيقى وعمارة وصناعات يدوية وأنظمة زراعة هى كل ما تبقى حيا وفاعلا من الأندلس .

وسوف يحكم العنصر البربرى الأندلس أكثر من قرن ونصف من الزمان، منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى حتى منتصف القرن الثالث عشر، ومع ذلك، منذ الفتح وحتى السقوط كان لهم دور ملحوظ لم ينقطع

سواء بالسلب أو الإيجاب، لكن أهم دور لهم هو معاونة العنصر العربى على امتلاك النفس الطويل فى حرب القرون الثمانية، وهى أطول حرب فى التاريخ، وذلك بإمداد العرب بالعنصر البشرى المقاتل لتعويض من يستشهد فى تلك الحرب اللانهائية الأجل، فى مواجهة للنفس الطويل المسيحى الذى تحقق عبر متطوعين من الإفرنجة فى سيل لايتوقف .

لكن كيف حكم البربر الأندلس ؟ تلك قصة طويلة لدولتين إمبراطوريتين قامتتا فى المغرب هدمتا ثانيتهما الأولى. سمّت أول الدولتين نفسها بدولة المرابطين، أما الثانية فسمت نفسها بدولة الموحدين . هذه القصة الطويلة هى موضوع هذا الكتاب الممتاز الذى ترجمه مؤرخ الأندلس الأكبر دون نظير له على المستوى العربى العلامة محمد عبدالله عنان، الفلاح المصرى الذى ولد فى قرية بشتا من أحواز ميت غمر دقهلية عام ١٨٩٦ . إنه ليس مجرد مترجم بين المترجمين لكنه صاحب مشروع كبير فرّع له نفسه ربع قرن من الزمان ١٩٥٢ - ١٩٧٧، هو مشروع كتابة تاريخ الأندلس من ناحية، ثم التفرغ لبعض الأعمال فى خدمة هذا التاريخ فيما تبقى من عمره بعد انقضاء الربع قرن المذكور الذى توجّه بثمانية مجلدات تضمنت كل التاريخ الأندلسى ليصبح بين القلائل على مستوى العالم الذى يؤرخ لحضارة من أطول الحضارات الإنسانية من بدايتها حتى نهايتها دون أن يفوته فى المجلد الأخير أن يصحب القارئ فى رحلة يزور به ما تبقى من آثار وبصمات الأندلس فى إسبانيا المعاصرة . ونظن أن هذا المشروع قد بدأ فى ذهنه فى الأربعينيات ولكن المناصب التى تقلدها كانت تتيح له وقتا محدودا لايتسع لتحقيق هذا الإنجاز الكبير . ويرجع ظننا لاختياره لكتاب مكتوب بالألمانية هو "تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين" للمستشرق البارز والمؤرخ الألمانى

"يوسف أشباخ"، وذلك لتقديمه للقارئ العربى، هو - كما سيأتى بعد- اطلاع مؤلفه على المصادر الإسبانية التى لا يتاح لعربى سهولة الاطلاع عليها، كتاب بالغ الأهمية لمن يتطلع لمعرفة تاريخ الأندلس حتى بدايات ظهور مملكة غرناطة، وهى الفترة التى حملت فيها شبه الجزيرة الإيبيرية اسم الأندلس، والذى انقسم إلى ثلاثة أقسام : الأندلس الأعلى وهو الذى يضم الممالك المسيحية فى شمال شبه الجزيرة، والأندلس الأدنى وهو الجنوب الذى يضم معظم الوجود العربى فى الأندلس، وبين الأندلسين الأعلى والأدنى يوجد الثغور وهى مناطق القتال على الحدود بين الشمال والجنوب، وأطلق عليها الأندلس الأوسط وكان معظمها عربياً، بل كلها عربى الهوية حتى سقوط طليطلة واسطة عقد أندلس الثغور حيث مدن وقرى الرباط والجهاد . وقد تقلصت الأندلس - بعد رحيل الموحدين ثانى الإمبراطوريتين - إلى مملكة صغيرة، لكن نكية ومبتكرة وماكرة تمكنت من العيش قرنين ونصف كوجود رمزى وكأنندلس مصغر، ويكفى لنعرف شيئاً عن حضارة هذه المملكة، ذلك المشهد الذى أذهل الإسبان عند دخولهم المدينة بعد أن سلم أبو عبدالله الصغير مفتاحها لملكى إسبانيا الكاثوليكيين : ظل المعلمون يلقون دروسهم فى مساجدهم، والمزارعون يفلحون أرضهم، وكل ذى شأن فى شأنه مشغول، دون أن يلتفتوا للغازين أو يعيروهم اللقائات، هكذا كانت غرناطة، وأظن أنها تكبير لقيمة أندلسية مدهشة وهى قيمة العمل وعدم السماح بانقطاعه، ولعل ذلك يشرح قيام كل هذه الحضارة وسط كل هذه الحروب والصراعات .

وأما الأهمية البالغة لهذا الكتاب - بين يدى القارئ- كما سبق ذكره فترجع لكون مؤلفه مطلعاً على المصادر الإسبانية وغيرها من المصادر

الأوربية لأحداث الأندلس بأقسامه الثلاث، وارتباطها الوثيق وتداخلها .
والمؤلف أيضا ينتمى لجيل من المستشرقين بدأ يستعين بالمصادر العربية
بجانب المصادر الإسبانية والأوربية، لكن حتى وقت صدور الكتاب (١٨٣٧)
لم تكن معظم تلك المصادر قد خرجت للنور، رغم ما بذله المؤلف من جهد
للاطلاع على مخطوطات كلفته أن يجوب مصر وبعض البلاد العربية
الأخرى وغيرها من مظان وجود مخطوطات عربية تكشف عن تاريخ تلك
الحقبة، وهذا النقص حاول المترجم تداركه عند الترجمة التي تمت بعد قرن
من الزمان على صدور الكتاب بالألمانية . ولكن يبقى الكتاب مستوفيا
مصادره الأوربية دون العربية، الأمر الذي دفع محمد عبد الله عنان إلى أن
يصدر في تاريخه الكامل عن الأندلس مجلدين عن عصرى المرابطين
والموحدين يتضمن كل ما ورد في المصادر العربية عن الموضوع ليصبح
المجلدان مكملين للعمل الكبير لأشباح وللمترجم معا، وكأن تاريخ عنان
يكتمل آخره التأليفى بأوله الترجمانى، وأقول الترجمانى لا المترجم، لأن
الترجمة صاحبها هوامش وإيضاحات وتصويبات ومعجم لألفاظ البلاد
بالعربية مما جعل "عنان" ترجمانا أكثر منه مترجما . ومع هذه الترجمانية بدأ
المشروع فى مصر بين ١٩٥٠ و ١٩٧٤ وانتهى فى المغرب فى الفترة
بين ١٩٧٤ و ١٩٨١ حيث استدعاه الملك الحسن الثانى للاشتراك فى فهرسة
خزانة الكتب الملكية بعد انتهائه من إصدار "تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس".
وخلال قيامه بذلك نهض عنان بتحقيق الموسوعة الثالثة لتاريخ الأندلس
الأدبى والسياسى والحضارى (بعد موسوعتى النفخ والذخيرة) : "الإحاطة فى
أخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب بجانب كتابه "ريحانة الكتاب ونجمة
المنتاب" .

وكما بدأت بواندر مشروع عنان قبل صدور تاريخه الأندلسي بثلاثة عقود، حدث شيء شبيه ليوسف أشباخ إذ بدأ علاقته بالأندلس بدراسة تاريخ القوط الغربيين الذين كانوا يحكمون إسبانيا عند الفتح العربي، وهزم طارق ابن زياد آخر ملوكهم الذي أطلق عليه العرب اسم "ريق لذ" تعريبا لـ "رودريجو". وكان من المنطقي أن يدرس أهم فترات تاريخ الأندلس وأطولها، فبدأ بتاريخ الدولة الأموية في قرطبة، ثم بهذا الكتاب الذي يبدأ ببسط تاريخ ملوك الطوائف، وكان مشروعه يقترب من مشروع "عنان"، إذ لا ينفصه إلا تاريخ غرناطة وسقوطها، ثم الوجود المادي والمعنوي للأندلس في إسبانيا المعاصرة، والذي شغل المجلد الثامن من موسوعة عنان عن تاريخ الأندلس، مقابل نقص تاريخ عنان فترة ما قبل الغزو من تاريخ للقوط الغربيين الذي كان قد مهد دون جدال لاستقبال سكان البلاد للعرب بالترحاب لتخليصهم من ظلم آخر ملوك القوط الغربيين وأنصاره من طغاة الإقطاعيين. ويبقى الطريف في أمر الرجلين عنان وأشباخ، فالأول من أصول مغربية وأندلسية، والقوط الغربيون من أصول ألمانية جديرون باهتمام عالم الإسبانيات والمستعرب في أن الألمانى أشباخ ثانى الاثنين اللذين كانت لهما الريادة في بلديهما للتأريخ للأندلس.

أخيرا نقف معجبين بهذا الجهد الإستراتيجي للمركز القومي للترجمة وعلى رأسه الصديق الطموح والمفكر جابر عصفور لاستكمال الغياب في المكتبة العربية لبعض الأعمال المركزية للمستعربين والمستشرقين من إسبانيا وكل أوروبا بتقديم الكتب المترجمة الكلاسيكية (أى التى لا تنفقد قيمتها رغم قدمها بل تزداد قيمة وتزداد الحاجة إليها) والتى نفذت بل واختفت من المكتبات العامة والخاصة، وهنا يأتي دور دؤوب للصديق الموسوعي

مصطفى لبيب صاحب التصانيف فى تصنيف العلوم، وصاحب الذاكرة بعيدة المدى فى التنظيم والدقة والتصنيف لكل كتاب صدر بالعربية مترجما أو مؤلفا أو محققا، ليقترح اسم الكتب المشار إليها على المركز فى حدود خطته واستراتيجياته، ويقوم بعناء إيجاد نسخة منها وما يتطلبه فعل النشر من إجراءات وجهد، فللصديقين العزيزين الشكر باسم القراء وباسمى، ولاسيما أن إحياء الأندلسيات فعل مزدوج : زخم للنهضة وشعاع يصب فى التنوير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لبث تاريخ الأندلس أو تاريخ اسبانيا المسلمة ، كما تعرضه الروايات والمصادر الإسلامية مجهولاً من الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ؛ وكان المؤرخون الأسبان قلما يتناولون هذا القسم الهام من تاريخ اسبانيا القوي بشيء من الإفاضة ، فإذا تناولوه كان جيل اعتمادهم على المصادر النصرانية ، وهي جميعاً شديدة التأثير بالعوامل والاعتبارات القومية والدينية .

وفي أواخر القرن الثامن عشر ، وضع العلامة الفريزي اللبثاني الذي يرفقه البحث الغربي باسم Casiri - بتكليف الحكومة الاسبانية - فهرساً جامعاً باللاتينية لمجموعة المخطوطات العربية بقصر الاسكوريال ، ظهر في مجلدين كبيرين بين سنتي ١٧٦٠ و ١٧٧٠^(١) وكشف مؤلفه بما نقل فيه من نبد تاريخية وجغرافية وأدبية ، سواء بأصلها العربي أو مترجمة إلى اللاتينية ، عن أهمية هذه المجموعة وقيمتها بالنسبة لتاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ اسبانيا في عهد الدول الإسلامية

(١) Casiri : Bibliotheca Arabico - Hispana Escorialensis (المكتبة العربية

الاسبانية بالاسكوريال)

يوجه عام . وعندئذ اتجهت عناية البحث الغربي لأول مرة إلى مراجعة هذه المصادر العربية ، والتتقيب فيها عن كل ما يتعلق بتاريخ اسبانيا المسلمة وتاريخ الحضارة الاسلامية ، وخواص المجتمع الاسلامي ؛ وظهر أثر هذه العناية بالأخص في بعض الآثار النصرانية الجامعة التي ظهرت في ذلك الحين مثل كتاب أندريس Andrés في « أصول الأدب »^(١) ، وكتاب ماسدي Masdeu المسمى « بالتاريخ النقدي لاسبانيا والحضارة الاسبانية »^(٢) ، وهو يعني فيه عناية خاصة بالتحدث عن الحضارة الأندلسية والتفكير الاسلامي في اسبانيا المسلمة . ثم جاء المستشرق الاسباني يوسف كوندي Condé ، فوضع مؤلفه الشهير « تاريخ دولة العرب في اسبانيا » Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana مشتقاً من المصادر العربية ، في ثلاثة مجلدات كبيرة ظهرت بين سنتي ١٨١٠ و ١٨١١ ؛ ومع أن كوندي ينقل كثيراً من الروايات العربية بلا دقة وتمحيص ، ويقع في كثير من الأخطاء التاريخية ، فإن مؤلفه اعتبر وقت صدوره فتحاً جديداً في التاريخ الاسباني ، وكان في الواقع أول مؤلف أوروبي يعرض على الغرب تاريخ الأندلس وفقاً لوجهة النظر الاسلامية .

ومن ذلك الحين بدأت المصادر العربية تتخذ مكانتها إلى جانب المصادر النصرانية في كل بحث يتعلق باسبانيا المسلمة ؛ وظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، عن تاريخ الأندلس عدة مؤلفات أوروبية جديدة ، عنت بمراجعة المصادر الاسلامية عناية حسنة ، وعنى المستشرقون في نفس الوقت بنشر الآثار العربية المتعلقة بتاريخ الأندلس . فنشر العلامة السويدي تورنبرج Tornberg كتاب « روض القرطاس » لأبي الحسن علي بن أبي زرع ، مقروناً بترجمة لاتينية (أوبسالة سنة ١٨٤٣) ، ونشر العلامة الهولندي رينهاردت دوذي

(١) Andrés, Juan: Dell'origine progressi, estado attuale d'ogni Littrature (في أحوال الآداب وتقدمها وأحوالها الخاصة) (7 vols, Parma 1783 - 799)

(٢) Masdeu : Historia crítica de Espana y de la cultura espanola (178 - (٢)

R. Dozy الجزأين الأول والثاني من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي (لیدن سنة ١٨٤٨ - ١٨٥١)، ووضع المستشرق الاسباني جاينجوس Gayangos ، ترجمة انكليزية لكتاب نفح الطيب للمقرئ نشرت بمنابة الجمعية الآسيوية الملكية البريطانية بين سنتي ١٨٤٠ و ١٨٤٣^(١) ، ثم نشر الجزآن الأول والثاني من نفح الطيب بالعربية في ليدن ، ونشرت لها ترجمة فرنسية (سنة ١٨٥٥ ١٨٦٢) ، ونشر المستشرق الانكليزي جونز Jones ترجمة انكليزية للقسم الخاص بفتح الأندلس من تاريخ ابن عبد الحكم « أخبار مصر وفتوحها » (جنتجن سنة ١٨٥٨) ، ونشر المستشرق الألماني ميلر Mueller كتاب « أخبار مصر في انقضاء دولة بني نصر » مع ترجمة ألمانية (ميونيخ سنة ١٨٦٣) ، ونشرت بعد ذلك في أواخر القرن التاسع عشر بمنابة المستشرقين طائفة كبيرة من الآثار العربية الأندلسية ، كان في مقدمتها المكتبة الأندلسية التي ظهرت في عشرة مجلدات كبيرة من سنتي ١٨٨٣ و ١٨٩٥

ومؤلف كتابنا هذا المؤرخ الألماني يوسف اشباخ Joseph Aschbach ينتمي إلى هذه المدرسة التي عثيت منذ أوائل القرن التاسع عشر بدراسة التاريخ الأندلسي على ضوء المصادر العربية . وقد ولد في هكست من أعمال ناساو بألمانيا في سنة ١٨٠١ ، وتولى تدريس التاريخ في جامعة فرنكفورت ، ثم في جامعة بون ، ودرس العربية ، وعنى بدراسة تاريخ امبانيا المسلمة عناية خاصة ، ووضع في ذلك مؤلفين أولهما : « تاريخ الأمويين في اسبانيا » Geschichte der Omajaden in Spanien في مجلدين ، وهو يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى سقوط الدولة الأموية وقيام دول الطوائف ؛ والثاني : « تاريخ اسبانيا والبرتغال في عهد سيادة المرابطين والموحدين » Gechichte Spaniens und Porbugals, zur

(١) وقد نشرت هذه الترجمة بعنوان History of the Mohammedan Dynastries in Spain (تاريخ الدول الاسلامية في إسبانيا) ، وهي تتضمن الجزئين الأول والثاني من نفح الطيب .

في مجلدين Zeit der Herrschaft der Almorariden und Almohaden أيضاً ؛ وهو يتضمن تاريخ الأندلس ، وتاريخ اسبانيا بوجه عام ، منذ قيام دول الطوائف حتى انحلال دولة الموحدين ، وتاريخ المغرب أيضاً في ظل دولتي المرابطين والموحدين ؛ وهو الذي تقدم اليوم إلى القارئ القسم الأول منه متضمناً لتاريخ الأندلس والمغرب في عهد المرابطين ، وقيام دولة الموحدين ، وتاريخ قشتالة وباقي الممالك الإسبانية النصرانية في تلك الفترة . وأما القسم الثاني فيتضمن تاريخ الموحدين حتى سقوط دولتهم ، وعرضاً لسياسة المرابطين والموحدين ونظمهم في الحكم والإدارة وتاريخ الممالك النصرانية المعاصرة . والكتاب بقسميه كما يقول لنا المؤلف في مقدمته ، تنمة لكتابه الأول « تاريخ الأمويين في اسبانيا » .

وقد ظهر هذا الكتاب بمدينة فرنكفورت بين سنتي ١٨٣٣ و ١٨٣٧ ؛ ومع أنه قد مضى على ظهوره أكثر من مائة عام ، فإنه لا يزال محتفظاً بكثير من قيمته ، فهو يعتمد على المصادر الإسلامية ، وينتفع بها انتفاعاً كبيراً بالرغم مما يرد فيه أحياناً من خطأ أو تحريف ؛ على أن أهم ما يمتاز به في نظرنا هو دراسته للمصادر النصرانية إلى جانب المصادر الإسلامية ، وتخصيص الروايات من الجانبين وتقدير وجهات النظر المختلفة ، وهي ميزة لها قيمتها في دراسة التاريخ الأندلسي ، لأن التواريخ العربية قلما تعنى بدراسة المصادر النصرانية ، كما أن التواريخ النصرانية الحديثة لبثت من جانبها معرضة عن الانتفاع بالمصادر العربية حتى ظهر معجم الزيرى ، وأنبهت الأنظار إلى الانتفاع بمجموعة الاسكوريال حسباً بيننا ، هذا إلى ما يمتاز به الكتاب من حسن الترتيب والتبويب ، وخصوصاً في أخبار ملوك الطوائف ، وما يتخلله من مواطن التحليل والنقد التزن .

بهذا وقد رأيت استكمالاً للبحث أن أذيل الكتاب بطائفة من الهوامش والتحقيقات والنروح ، استندرا كما لمواطن التحريف ، وإتماماً لتخصيص المصادر ، وتحقيقاً لبعض النصوص والأعلام ، معتمداً في ذلك على مجموعة كبيرة من المصادر الإسلامية التي لم يتح لمؤلف الكتاب أن ينتفع بها ؛ كذلك رأيت نظراً

لتبيان الأعلام الأندلسية العربية والأفريقية الجغرافية والتاريخية ، ونظراً لما يقع فيها من التحريف في معظم التراجم والدراسات المتعلقة بتاريخ الأندلس ، أن أضاع لهذه الأعلام فهرساً يضم الأعلام العربية ومقابلها الأفريقي ، ليكون مرشداً ينتفع به القراء والمشتغلون بدراسة التاريخ الأندلسي .

ولا يسمنى في الختام إلا أن أتقدم بالشكر إلى صديق العلامة الأستاذ أحمد أمين لما تفضل به من قراءة الترجمة وما أبداه من ملاحظات قيمة ، وأن أنوه بما للمهد الخليلي بتطوان وبيت المغرب بالقاهرة من فضل مشكور في نشر هذا الكتاب ضمن مجموعة الآثار الإسلامية والأوربية المتعلقة بتاريخ المغرب والأندلس ، التي يعملان لنشرها ، وتسميم نفهما ما

محمد عبد الله عنانه

القاهرة في ١٨ ذي القعدة سنة ١٣٥٨
الموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩

الكتاب الأول

تاريخ الأندلس

منذ سقوط الدولة الأموية

إلى مقدم المرابطين

الفصل الأول

تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية

منذ اتحاد مملكتي ليون وقشتالة

إلى تقسيم مملكة البشكنس

(سنة ١٠٣٧ - ١٠٧٦ م) - (٤٢٨ - ٤٦٩ م)

مضت ثلاثة قرون استمر فيها تفوق دولة الإسلام في شبه الجزيرة الإسبانية (الأندلس) ، وكادت الممالك النصرانية التي أقامها السكان الجبليون في أشتوريش وبسكونس^(١) ، ووطدوا دعائمها تُسحق غير مرة ؛ بيد أنها كانت إزاء الخطر تكافح بقوى مضاعفة ، وحب متقد للحرية ، والدين والوطن ، وتنتصر دائماً على أعداء لا حصر لهم ، قد فقدوا في النهاية قواهم في قتال بعضهم بعضاً . وفي أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، اضمحل سلطان الأمويين في اسبانيا بعد ازدهاره ، وسما في الوقت نفسه شأن سانشو (شانجة) الملقب بالكبير ، فيما وراء الجبال البرينية (جبال البرت أو البرتات)^(٢) ، ومكنت له قواه المظفرة من بسط

(١) أشتوريش : هي الاسم العربي لولاية « أستورياس » (Asturias) ، وبسكونس أو بسكونية هي الاسم العربي لولاية « بسكاي » (Biscaya) . وقد آثرنا أن نرجع في الترجمة إلى الأعلام الجغرافية العربية وأن نقرنها عند الضرورة بمقابلها الأفرنجي ، وسنضمها في نهاية الكتاب في تبت عام مقرونة بأصولها الأفرنجية .

(٢) تسمى الجبال البرينية أو جبال البرنيه (Pyrenees) في الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات بالاشتقاق فيما يظهر من كلمة (Puertos) أى الأبواب ، ومن ثم فقد سميت أيضاً بجبال الأبواب ، ويشار إليها أحياناً بأنها « الجبل الحاجز بين الأندلس وبين بلاد أفرنجية » =

سيادته على اسبانيا النصرانية من جبال البرنيه إلى ما وراء شنت ياقب ؛ ومن بحر بكونس حتى نهر دويره (نهر دورو) مما يلي هضبة الجزيرة الوسطى عند وادى الرملة الرعر^(١) . وكان يحكم قشتالة ونافارا (بلاد البشكنس)^(٢) سانشو وولده فرديناند . ولم يكن الملك برمود الثالث (برمند) صاحب ليون سوى تابع لسانشو . ولاح أن الفرصة قد سنحت ليسحق النصرارى بأيسر أمر ؛ تلك الدول الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية . بيد أن ملك نافارا ما كاد يوحد بين القوى النصرانية حتى أدركه الموت في سنة ١٠٣٥ م ؛ وقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، وتصدع بذلك سلطان النصرانية وما كان يلتزم ، وأدّى تفرق النصرارى الأسبان على هذا النحو الخطر إلى نجاة الأندلس المسلمة من فناء محقق ، واستمر علم الهلال خفاقاً على شبه الجزيرة زهاء خمسمائة عام أخرى قبل أن يغيض أمام أعدائه .

١ — فرديناند الأول وإخوته

ولما توفى سانشو أصبح ولده الثانى فرديناند (فردلاند) ملك قشتالة^(٣) بعد ذلك بمابين ، ملكا على ليون وجليقية وأشتوريش وما إليها ، على أثر وفاة صهره الملك برمود الثالث فى موقعة « تامارون » (Tamaron) . وغدا بذلك أقوى ملك فى اسبانيا . أما إخوته الثلاثة فكانوا يحكمون ممالك صغيرة لا تكاد تعدل ثلث مملكته ؛ حكم جارسيا (غرسية) أكبر أولاد سانشو الوطن الأصلى نافارا من

= العظمى » ، أو جبل البرت الحاجز بين الأندلس والأرض الكبيرة ، أو يقال لما « الحاجز » (راجع وصف الأندلس للإدريسي طبعه Saavedra) ، ونجح الطبيب (مصر) ج ١ ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ ، وميم ياقوت (مصر) تحت كلمة أندلس) .

(١) وادى الرملة (Gaudarrama) .

(٢) يسمى العرب ولاية نافارا (Navarra) « بلاد البشكنس » (Bascons) ، وأحياناً تسمى « نبرة » ، (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٤) .

(٣) ويسمى صاحب البيان المغرب قشتالة ، وهو أقرب لأصلها الأفرنجى (Castille) (ج ٣ ص ٢٣٢) .

غرب البرنيه إلى مصب الأيرو (أبرة) . وحكم راميرو ولد سانشو غير الشرعى ، ممبا بلى ذلك فى شقة ضيقة من الأرض تمتد من باب شزروا (Roncesvalles) إلى «اينكا وآرا» (Einca & Ara) باسم ملك أراجون (أرغون)^(١) ، وحكم كوزالو منطقة أصغر هى ولاية سوبراب فى أواسط البرنيه . وأما فى شرق البرنيه فكانت تقع إمارة (كوتية) برشلونة أو قطلونية ممتدة على شاطئ البحر حتى مصب الأيرو ويحكمها ريموند برنجار الأول ؛ وبذا بلغت الممالك النصرانية الأسبانية فى ذلك الحين خبا .

ولكن اسبانيا المسلمة منذ انهار صرح الدولة الأموية بسبب الحروب الأهلية وأطاع الولاة ، انقسمت إلى دول مستقلة أكثر عدداً . فكان يحكم فى المدن الكبرى وفى الولايات أمراء (أو ملوك) يتبعهم عدد من الولاة والقضاة . وكان بعض هؤلاء الولاة يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم عن كل سيادة ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا إذا رأى جيرانهم الأقوياء هذا الاستقلال فى صالحهم . وكان أهم هذه الدول ، فى قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وبطليوس وطليطلة وسرقسطة . وكانت تحالف بعضها بعضاً أو تخاصم بعضها بعضاً ، حسبما تليه بواعث الأثرة التى تسير أولئك الأمراء .

ولم يكن الأمراء النصارى يخشون جانب الدولة الإسلامية بعد أن مزقت إرهاب وسادتها الفوضى . وقد أضاع أولئك الأمراء الفرصة السانحة لحشد قوى النصرانية المجتمعة ، وانتزاع شبه الجزيرة كلها من أيدي أعدائهم فى الدين ، وغلب عليهم التباغض والتحاسد فآثروا أن يمتشقوا الحسام بعضهم ضد بعض ، فى حروب مخربة مروعة على أن يشهروا الحرب على الإسلام .

ليس أخطر على الدول من اضطرام الأمراء بشهوة الفتح . ذلك أن كل شمو بالعدالة والإنسانية والإخاء والإيمان ، يفيض عندئذ فى سبيل الطموح إلى حـ دولة أوسع مدى . ولن يحجم الأمير عندئذ عن ارتكاب أى أمر فى سبيل تحقيقه

(١) تعرف أراجون فى الرواية العربية ببلاد أرغون أو أرغن أو أرغونه أو النثر الأعلى

هذه الغاية . وهكذا نجد أنفسنا فيما يتعلق بطموح أبناء سانشو الكبير وأحفاده إلى الفتح ، أمام معترك من الجرائم والشتاعات التي يرتجف المرء لذكرها فرقا ، إذا استطاع أن يتتبعها بجميع تفاصيلها . ولكن التاريخ مع الأسف لا يحتفظ غالباً للخلف إلا بآثام القرون الذاهبة . ومن خير الإنسانيّة أن يطوى ذكر هذه الآثام في ثنايا النسيان إلى الأبد . ذلك أنه يخالفنا عندئذ شيء من الشك المحمود في صحة أشنعها وأروعها ذكراً ؛ ومن ثمّ فإنه ليس لنا أن نشكو من أن الروايات القليلة التي انتهت إلينا عن الحروب الدموية التي وقعت بين أبناء سانشو ، تنبئنا بالقليل عنها ، وإن كانت تسمح لنا بأن نتكهن بالكثير منها .

مضى عام على توحيد « فرديناند » لتاجي « قشتالة وليون » ؛ وفي الوقت نفسه اتحدت مملكتا « أراجون » و « سوبراب » الصغيرتان . وكان « كوزالو » يحكم فقط منطقة هي أجدر بأن تسمى بالولاية من أن تسمى بالملكة . وقد كان حكمه لها فيما يظهر سبب موته المبكر . ذلك أنه عاد ذات يوم من الصيد فقتل في كمين غادر دبره أحد أتباعه . وتولى « راميرو » (رذمير) أخو القتل غير الشرعي وملك أراجون حكم « سوبراب » بموافقة شعبها ، ولم يحصل فرديناند وجارسيا أخوا كوزالو الشرعيان على شيء منها ، وهو ما يحاول الكتاب المتأخرون تفسيره بأن سوبراب تقع بجوار أراجون وأصلح لها أن تضم إليها ، وهو تفسير غير مقنع . وقد قيلت أقوال كثيرة عن السبب الذي حمل فرديناند وجارسيا وهما أقوى من راميرو على المدول عن المطالبة بحقوقهما في سوبراب . والظاهر أن الأمور سارت بسرعة مكنت راميرو من احتلال الولاية قبل أن يصل نبأ وفاة كوزالو إلى أخويه الكبيرين . كذلك كان فرديناند مشغولاً قبل كل شيء بتوطيد ملكه في مملكته الجديدة ، فلم يستطع يومئذ مغادرتها . أما جارسيا فقد كان يومئذ يهجم إلى رومة طبقاً لتقاليد عصره ، وكان من الضروري أن يكون ملك ناغاراً حاضراً بشخصه إذا أراد أن يختاره أهل سوبراب .

زفويت نفيس راميرو بنجاح خطوته الجريئة ، فنسى روابط الدم والدين ليقوم

بفتوحات أخرى ، وتحالف مع أعداء دينه ولاية تطيلة ووشقة ومرتطة المسلمين ، وأخذ يدبر الخطة لإسقاط ملك نافارا والاستيلاء على مملكته . ولكن التوفيق حالف هذه المرة ملك نافارا . ومع أن راميرو استطاع في البداية أن يقتحم حدود نافارا دون معارضة نظراً لفاجأتها بالحرب ، فإن قلعة « تافالا » استطاعت أن تمترض سيره المظفر ، وتمكن جارسيا خلال الوقت الذي استغرقه حصار القلعة أن يحشد جنده . وأن ينقض على خصمه تحت جناح الظلام وعلى غرة من الحراس . وهكذا هوجم الأرجونيون وهم نيام ، وهزموا هزيمة شنيعة قبل أن يتمكنوا من تقلد سلاحهم . ولم يتمكن راميرو من النجاة إلا بشق النفس ، فالتى بنفسه فوق صهوة جواد عار ولاذ بالفرار ناجياً بحياته ، ومُزق معظم جيشه قتلاً وأسراً . وعند الفجر خرج سكان القلعة فأجهزوا على الجيش المهزوم ، ولم يفر بما فاز به راميرو من الفرار سوى القليل . وكان بين الفارين قادة الجند المسلمين وقليل من أتباعهم ؛ ولا ريب أن هذه الواقعة حدثت بعد احتلال سورباب (بعد سنة ١٠٣٨ م على الأقل) ، وذلك بالرغم مما يرويه البعض من أنها حدثت قبل ذلك . والظاهر أنها حدثت في سنة ١٠٤٢ م .

ومع أن راميرو فقد من جراء هذه الهزيمة معظم مملكته ، واضطر أن يلجأ إلى شعب الجبال الوعرة ، في ريبا جرسا وسورباب ، ليتقى هناك مطاردة أعدائه بكل مشقة ، فإنما نراه بعد ذلك بأعوام قلائل يعود فيسترد كل أراضيه ومدنه ؛ ولا نعرف — مما انتهى إلينا من التفاصيل القليلة عن تطور الحوادث — كيف حدث ذلك . بيد أنه من المحقق فيما يظهر ، أنه لم يكن ذلك بفضل تسامح من أخيه أو رضى .

وفي تلك الأثناء استطاع فرديناند خلال معارك ظافرة خاضها مع جيرانه المسلمين ، أن يوسع حدود مملكته توسيماً كبيراً . فبعد أن قام بمكافحة أشرف ليون الثايرين الذين أبوا الاعتراف بحكمه ، وقد كانوا فيما يظهر من أقارب الأسرة اللسكية السابقة ، وإخضاعهم أو إبعادهم ، سار في جيش حسن المدة إلى

سمورة (زامورا) التي تقع اليوم في شمال البرتغال ، والتي افتتحها المسلمون قبل ذلك بنحو خمسين عاماً ، ليحاول استردادها . وبعد أن استولى على بعض قلاع الحدود ، زحف على بازو (فيزى) وانتزعها عنوة وصيرها حطاما ، وإسترق من نجا من سكانها من الموت ، ولم تأخذه في أعداء دبنه رأفة ولا إنسانية ؛ ومتى كان نعمة تار خاص للبغض القوى ، فإن القتل المجرى لا يكتفى ، ومن ثم فإن الراى الذى قُتل بسهامه الملك الفونسو الخامس أثناء حصار بازو قبل ذلك بمشرة أعوام ، عوقب أروع عقاب ، فبعد أن قطعت يده ورجلاه عذب حتى أسلم الروح ؛ وعلى هذا النحو أيضاً افتتح فرديناند لاميجو ، وعدة قلاع أخرى أقل أهمية ، وأسكن النصارى في تلك الأنحاء ليكونوا سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين^(١) .

وشجع ظفر النصارى في عاربة أمير بطليوس وأتباعه ملك قشتالة على القيام بغزوات ممالة ضد أميرى طليطلة وسرقسطة ، ولم يقتصر نجاحه في ذلك على استعادة حدود قشتالة القديمة عند جبال وادى الرملة الوعرة ، وتهديده طليطلة وسرقسطة بالحصار ، بل كان أيضاً أن صاحبي طليطلة وسرقسطة فضلاً أن يدفعوا الجزية إلى فرديناند ، وأن يكفلا بذلك عوناً لها في حروبهما ضد جيرانهما المسلمين ، على أن يخوضا معه وهو ملك النصرانية القوى ، حروبا لاشك في سوء عواقبها . وهكذا فرض فرديناند سلطانه على أعدائه ، ثم عمد في ظل السلام إلى العناية بالإصلاحات الداخلية . ففي سنة ١٠٥٠ م دعا إلى اجتماع كنسى في « جويانسا » اعتبر في نفس الوقت مجلساً نيابياً ، وشهد فضلاً عن الملك والملكة سانشا وعدة من الكبراء تسمة أساقفة بينهم يوحنا أسقف ببلونة ممثلاً لملكة نافارا . وقوانين هذا الاجتماع أو البرلمان « كورتيس » (Cortes) ليست مهمة من الوجهة الكنسية

(١) وقعت هذه الغزوة في سنة ١٠٥٧ م ، وكانت الحصون والمدن التي استولى عليها فرديناند يومئذ من أملاك أمير بطليوس ابن الأفطس . وفي تلك الغزوة استولى فرديناند على جميع الحصون التي كان النصور بن عامر قد افتتحها من أعمال قشتالة القديمة ، ولا تندم المراجع العربية إلينا عنها تفصيلاً شافياً (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ والبيان المنزب ج ٣ ص ٢٣٨ ودوزى (جديد) ج ٣ ص ٧٤) .

فقط ، ولكنها مهمة أيضاً بالنسبة لتاريخ نظم الحكم في قشتالة . ومما قضت به أن يعمل في جميع الأديار بدعوة القديس بندكت ، وأن يحرم على رجال الدين حمل السلاح ، والزواج ، أو شهود مآدب الزواج ، ولكن أتيح لهم أن يحتكموا إلى الأساقفة . وحصلت الكنيسة على امتيازات كثيرة أخرى في مقدمتها أنه لا يمكن الاستيلاء على أملاكها بغضى المدة . ونظراً لأنه يوجد في بعض المدن مزيج من السكان من مختلف العقائد ، فقد رؤى للتمييز بين النصارى واليهود والمسلمين ، أن يشدد في الاحتفال بيوم الأحد . وشدد في تحريم التعامل مع اليهود والأكل معهم . ومما يدل أيضاً على تغفل أثر الشرائع القوطية ، تجديد القانون الذي يقرر بأن المجرم إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة ، أصبح تحت حماية القضاء الكنسى ؛ كذلك أمر القوامس (الكونتات) ونوابهم في القضاء الجنائى وهم المسمون (Mirini) أن يحرسوا على تحرى المدالة والحق وفقاً لكتب الأحكام القوطية ، وأن تطبق في نفس الوقت في مملكة ليون قوانين الفونسو الخامس السبابة : (Bueno fueros) ، وفي مملكة قشتالة تطبق لوائح الكونت سانشو السبابة (Benefactorias) . كذلك أمر سكان ليون وقشتالة أن يلزموا الولاء والطاعة لفرديناه شأنهم من قبل نحو ألفونسو وسانشو ، وقضى بمعاينة المجرمين والمصاة بفقد الشرف والمنصب ، وبإلغى من الكنيسة .

وهكذا نرى أن الكنيسة لم تقتصر على أن تعمل لتوطيد هيبة الملوكية ، بل تراها بالأخص تعمل على توجيه السلطة الدينيوية إلى تطبيق المدالة ، وعلى استئصال شأفة الخرافات والسحر من عقول الكافة . وهذا ما تؤيده لنا القوانين التي صدرت في الاجتماع الذى عقد في شنت ياقب سنة ١٠٥٦ م .

هذا وبينما كان فرديناند ييسط بين أعداء النصرانية روع جيوشه ، ويعالج في نفس الوقت تنظيم مملكته المتحدة ، كان أخواه الملكان راميرو وجارسيا يشتغلان آنأاً ببناء الكنائس والأديار ، وآناً بحاربة المسلمين على ضفاف الأيبرو . وإن الروايات السقيمة الموجزة التي وصلتنا عن تاريخ نافارا وأراجون في تلك

الفترة لتتركنا بالنسبة لمعظم الجوادث في ظلام دامس . بيد أنه يبدو من الحق أن أكبر الأخوين وهو جارسيا كان أضعفهما شأنًا ، فهو إذا استثنينا غزوة قلهرّة لم يقم بفتوح ما ، هذا بينما قام راميرو بفتوح ذات شأن ، وعقد مع الولاة المسلمين محادثات زادت قوة وبأسًا .

وكان جارسيا يضطرم حسداً لرؤية أخيه الأصغر فرديناند يفوز بهذه المملكة الشاسعة ، وتلك الفتوحات الهامة ، ويطمح إلى امتلاك هذه الأراضي . وكان يعمل على الفتك القادر بأخيه ليرقى عرش اسبانيا النصرانية . فأوغر بتبليغ ملك قشتالة بأنه مريض على فراش الموت ، وأنه يرجو رؤية أخيه للمرة الأخيرة . فبادر فرديناند إلى رؤية أخيه دون أن يظن به سوء آ . بيد أنه فطن أثناء السير إلى مشروعه القادر ، أو نعى إليه ، فارتد إلى مملكته مسرعاً قبل أن يتمكن ملك نافارا من تنفيذ مكيدته ، وقد أقسم بأن ينتقم من ذلك الأخ الذى نسى روابط الدم وحقوق الضيافة المقدسة . ولم يفطن جارسيا إلى أن أخاه قد وقف على مشروعه ، ولم يرتب فى الأمر حينما دعاه فرديناند إلى زيارته ، بمد ذلك بأعوام قلائل ، فأكاد يصل إلى أرض قشتالة حتى هوجم وأسر . ولكن سرعان ما استطاع الفرار من أسره والمود إلى مملكته^(١) .

وهكذا نشبت بين الأخوين تلك الحرب التى كانت تنذر منذ بعيد بالوقوع . ولم يكتف جارسيا بالتحالف مع راميرو الذى لبث حتى هذه الآونة الد أعدائه ، على سحق أخيهما ، ولكنه استعان على تقوية جيشه بمجنود مرتزقة من المسلمين استأجرها من ابن هود أمير سرقسطة . وحاول الأجبار عبثاً نصيح الأخوين المتدينين ، وسال الدم ، واجتاح جارسيا أرض قشتالة ، وتابع سيره حتى « أتابورتا » على مقربة من برغش (برجوس) وهناك نشبت الموقعة فى سبتمبر سنة ١٠٥٤ . وكان ثبات فرديناند وعنف الهجوم الذى قام به فرسان ليون ، وهم حرس الملك

(١) بيدى كوندى ريبه فى قصة هذا الكين ؟ بيد أنه لا يقدم إلينا سبباً آخر غن.

ندوب الحرب بين الأخوين (الترجمة الفرنسية ج ٢ ص ١٧١) .

السابق برمود الثالث ، من عوامل النصر الحاسمة . وكان جارسيا يقاتل بشجاعة غير مكترث للخطر ، فأصابته طعنة من فارس يدعى سانشو فورتيز كان من جنده ، وهجره إلى أخيه لأنه أغوى زوجه ؛ واحتاط به جنده المخلصون حتى لا يقع في يد أعدائه ، وأسلم الروح بين ذراعي كاهنه ؛ وركن النافاريون (البشكنس) إلى الفرار . ويقال إن فرديناند أمر بالكف عن مطاردتهم حقناً لدماء النصراري ، وأن تقتصر المطاردة على المرتقة المسلمين الذين مزقوا قتلاً وأسرأ .

وأسفر هذا النصر عن اتساع مملكة قشتالة ، واحتل فرديناند كل أراضي مملكة نافارا الواقعة على ضفة الأيبرو اليمنى . أما بقية نافارا وهي جزؤها الأكبر الواقع فيما وراء الأيبرو حتى غرب البرنيه ، فقد تركه لولد الملك المتوفى سانشو الرابع ، الذي رفعه النافاريون إلى العرش عقب موت أبيه .

وتوجس راميرو ملك أراجون شراً لنمو سلطان فرديناند على هذا النحو ، سيما وقد غدت حدود قشتالة أقرب إليه ؛ وكان يخشى انتقام أخيه لسبيين : أولهما مسألة الجند المرتقة التي أعارها لجارسيا ، والثاني ما كان بينه وبين أخيه من خلاف على تقاضى الجزية من بعض المدن الإسلامية الواقعة في ولاية سرقسطة . وقد كان في وسعه أن يعتمد على مناعة الأماكن الجبلية في أراضيه ، ولكنه كان يشمر أنه لا يستطيع بمفرده أن يرد عادية الفتح من جانب أخيه ؛ ومن ثم فقد حمل الخطر المشترك ملكاً نافارا وأراجون على توثيق تحالفهما في لقاء تم بينهما على الحدود في دير ليرا (سنة ١٠٥٧ م) . واتخذ صورة تحالف ضد المسلمين وهو في الواقع ضد فرديناند .

ولما كان ملك قشتالة وليون قد عاد إلى توجيه عنايته لمحاربة المسلمين ، فقد رأى الحليفان من الصواب أن ينتهزا هذه الفرصة ليعملا على تقوية جيوشهما . وكذلك عني راميرو بتنظيم الشؤون الكنسية في مملكته ، وذلك في اجتماع عقد في « جاقة » سنة ١٠٦٠ فيما يظهر . وتدل القوانين التي وضعت في هذا الاجتماع على مبلغ ما حققه الأخبار في أراجون من نفوذ قوى . وهو اجتماع نستطيع أن

نعتبره برساناً في نفس الوقت ، إذ شهده تسعة من الأساقفة ، والملك وولى
عهده ، وعدة من كبراء أراجون . وفيه اعتبرت جaque مركز أسقفية ، وأخرج
الكنهنة من اختصاص القضاء المدني ، وتقرر أن يرسل إلى رومة عشر إيراد
الدولة سواء من المال أو المحاصيل ، وكذا عشر الجزية التي تحصل من مسلمي
سرقسطة وتطيلة ؛ وهدد المخالفون بمقوية النفي الديني . والظاهر أن الذي حمل
راميرو على التزامه بهذه الجزية لرومة ، هو تخوفه من فرديناند ، إذ تصبح
أراجون بذلك تحت حماية زعيم الكنيسة ، وهي وسيلة لجأت إليها مملكة البرتغال
فيما بعد لتحمي استقلالها من عدوان قشتالة . هذا وقد كانت قوانين هذا الاجتماع
الكنسي هي الأساس الذي استند إليه البابا جريجوري بمد ذلك بقليل في مطالبة
اسبانيا كلها بأداء الجزية .

على أننا نرى راميرو بدلا من أن يبدل اسمه لاجتناب الحرب مع فرديناند ،
يسمى إليها بنفسه . ذلك أنه لما علم أن فرديناند قد سار غازيا إلى إشبيلية ، ولما
كان يخشاه من أن نجاح فرديناند يزيد في قوته ويجعله أكثر خطراً على ممالك
البرنية الصغرى ، سار لهاجمة المسلمين في سرقسطة ووشقة وتطيلة ، وقد كانت
من قبل تدفع الجزية إلى أراجون ، ثم تحولت عنها لتغدو تابعة لملك قشتالة القوى ؛
ولم يلق راميرو كبير معارضة في البداية ، لأن المسلمين لم يتحفظوا لمهاجمته ،
ولكنهم لم يجمعوا عن طلب الممونة من ملك قشتالة صاحب الجزية عليهم ، ولم
يستطع فرديناند أن يلبي نداءهم بنفسه لأنه لم يرد أن يقطع غزوه لإشبيلية ؛
ولكنه أرسل لمعاونة ابن هود صاحب سرقسطة ولى عهده سانشو على رأس
جيش من الليونيين والقشتاليين ومعهم فيما يروى « السد » البطل الشهير^(١) ،
وبادر الجيش المتحد من المسلمين والنصارى بالزحف على قلعة جرادوس التي كان
يحاصرها الأراجونيون . ونشبت بين الفريقين على مقربة من جرادوس معركة

(١) هو الفارس القشتالي رودريجو أوراي دياز دي ييفار المشهور في التواريخ النصرانية
باسم « السد » (Cid il Campeador) ، وتعرفه الرواية العربية باسم « السيد الكنيطور » .

شديدة هزم فيها راميرو وقتل . ويقال إن المسلمين مثلوا بمجتهه دون أن يعترض على ذلك أحد من النصارى مما يدل على شناعة التباغض بين الفريقين النصرانيين . بيد أن المؤرخين الأسبان المتأخرين ينكرون هذه الواقعة ، بل ينكرون قصة الموقعة كلها ، ويقولون إن راميرو مات بعد ذلك بأربعة أعوام موتاً طبيعياً (سنة ١٠٦٧ م) . على أنه لا يوجد ما يحمل على الأخذ بهذا القول ، خصوصاً وأن الرواية العربية تقص علينا أن الأمير أحمد بن هود صاحب سرنسطة قتل « رذمير » في موقعة دموية في سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م)^(١) ويوجد على قبر راميرو في دير القديس يوحنا في « بنيا » كتابة مفادها أنه توفي في ٨ مايو سنة ١٠٦٣ ؛ وهكذا لقي إخوة فرديناند الثلاثة مصارعهم ، فقتل كوزالو في كمين نادر ، وهلك جارسيا وراميرو في معارك نشبت ضد الجيوش الليونية والقشتالية .

ولا تحدثنا الرواية عما إذا كان فرديناند قد أفاد من مصرع راميرو أرضاً جديدة . بيد أننا نعرف أن سانشو (سانجه) ولد الملك القتييل تولى في الحال عرش أراجون واستطاع بمؤازرة شعبه وجهه ، أن يحمي حدود مملكته ضد النصارى والمسلمين على السواء .

وفي تلك الأثناء كان فرديناند قد اختتم حربه ضد إشبيلية ظافراً ، واضطر أميرها لـآنس من روعة الجيوش النصرانية ، أن يتعهد بدفع الجزية السنوية لمملكة قشتالة وليون . وبعد أن عقد فرديناند بموافقة كبار المملكة الصلح مع المسلمين ، عاد إلى مملكته ومعه رفات القديسين يوستا وروفيئا ليدفنهما في كنيسة يوحنا في ليون حيث كان المدفن الملكي .

وحملت هذه الغزوة الموفقة وما نشب بيد الأمراء المسلمين من معارك ، وما كان من تنافسهم على ابتياع العون من ملك النصارى ، فرديناند على التفكير في مشاريع أخرى ، أهم وأبعد مدى ؛ فسار في العام التالي (سنة ١٠٦٤) إلى مدينة

(١) لم نجد في المراجع العربية ذكراً لهذه الواقعة . ويقول لنا المؤلف في تعليقاته إنه نقل هذه الرواية عن كوندى .

قلمرية (قوامبرة) في البرتقال ، واستولى عليها بعد حصار دام ستة أشهر ، وأرغم أمير بطليوس كما أرغم أمير إشبيلية من قبل ، على دفع الجزية^(١) ، وقدم إلى كنيسة ياقب (شنت ياقب) حامى اسبانيا قسطاً كبيراً من الغنائم ؛ ثم سار إلى ولاية بلنسية وافتتحها لحساب تابه وحليفه المأمون بن ذى النون أمير طليطلة ، واختص نفسه بلاريب بقسط من ثمار ظفره ؛ ثم عاد الملك الشيخ إلى ليون عاصمة ملكه مثقلاً بالغنائم وهو شاعر بدو أجله . ولما اشتد عليه المرض طلب أن يحمل إلى كنيسة يوحنا المعمدان الجديدة ، وكانت حافلة بآثار القديسين . وهناك وضع الجواهر الملكية والتاج والصولجان على الهيكل الكبير ، وجثا مصلياً وهو يقول : « رباه لقد منحتني القوة والشرف ، وأنا اليوم أردتها إلى يديك فامنحني غفرانك ورحمتك » ، ثم أمر أن يلبس الملابس الخشنة وأن يحشى المهشم على رأسه . وما كاد يحمل إلى قصره حتى توفي في اليوم التالي في ٢٧ ديسمبر سنة ١٠٦٥ م بعد أن حكم قشتالة سبعة وثلاثين عاماً ، وحكم ليون وتوابهها ثمانية وعشرين عاماً .

وكان فرديناند الأول من أعظم ملوك اسبانيا ؛ وقد ظفر في جميع الحروب التي خاضها ، وأرغم أمراء طليطلة وإشبيلية وبطليوس على الخضوع ودفع الجزية ؛ ولم يكن في حروبه مع ملوك ليون ونافارا وأراجون ظافراً فقط ، ولكن الحظ حالفه حتى قتل الثلاثة في الحروب التي خسروها ، واستأثر هو وحده باجتناء ثمرات النصر . ولم يك ثمة ريب في أن الأمراء المسلمين الذين أرغموا على أداء الجزية ، كانوا يعتبرون من أتباعه ، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لسانشو الرابع ملك نافارا وسانشو الأول ملك أراجون ، فهما وإن لم يحكما على جميع الأراضي التي كانت لأبويهما من قبل ، كانا مستقلين عن سيادة قشتالة . ومع

(١) في المراجع العربية أن فرديناند استولى على مدينة قلمرية من يد ابن الأفطس أبو بكر المظفر سنة ٤٥٦ هـ ، وهي توافق التاريخ الميلادي الذي يورده المؤلف (١٠٦٤ م) ، (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩) .

ذلك فالظاهر أن فرديناند كان يسمى في أواخر حياته لمهلما على أداء الجزية . ومما يدل على ذلك اتخاذ فرديناند لقب « القيصر » وذلك عقب انتصاره على أخيه جارسيا منذ سنة ١٠٥٦ على الأقل . وكان يرى بذلك إلى التدليل على سيادته لجميع اسبانيا ، ويرى بالأخص إلى معارضة دعاوى القيصر هنري الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولم يكتف في ذلك بالاعتراض بقوة على صفة هنري الثالث كزعيم للأُم النصرانية ، وصاحب الجزية على جميع الملوك النصارى ، ولكنه ذهب إلى حد تأييد البابا إسكندر الثاني ، ضد منافسه البابا هونوريوس الثاني في الانتخاب البابوى ، وهونوريوس هو البابا الذى اختاره الإمبراطور هنري الرابع (سنة ١٠٦١) باعتباره حامي الكنيسة وفقاً للحقوق التى آلت إليه من أبيه هنري الثالث^(١) .

وكانت خلال فرديناند تحمل طابع عصره بصورة قوية . ففي ميدان الحرب يبدو فارساً أكثر منه ملكاً ، وفي شؤون الدولة ترى البغض الشخصى أو الحب على أهم القرارات . وكان عقب المارك التى يخوضها مع المسلمين من غير رأفة ولا إنسانية ، يبادر فيبقى أمام هياكل الكنائس والأديار بالمهبات الثمينة . وكانت تحمله من آن لآخر نزعته من التقى والزهد والورع ، فيلجأ إلى دير ساهاجون ؛ وهناك يشاطر الرهبان حياتهم دون فارق ويضع نفسه تحت طاعة كهراء الدير . بل كان أثناء مقامه بقصره في ليون يشهد الصلاة في الكنيسة الكبرى مع الأحرار بانتظام . وكان كثير البر بالفقراء ، ومن ثم نراه يخصص الفناثم التى يحصلها من الحروب بشق النفس ، لتخفيف آلام الفقر والبؤس والغباء بالكنائس والأديار .

(١) كان الإمبراطور هنري الرابع عند اضطرام المعركة الانتخابية البابوية بين إسكندر وهونوريوس سنة ١٠٦١ طفلاً في الحادية عشرة ، وكانت أمه الإمبراطورة أجنيس وصية عليه ، ولما انتخب البابا إسكندر الثاني لكرسى البابوية عارض في ذلك حزب الإمبراطورية ولم يترقب به . واختار للبابوية هونوريوس . ولكن هونوريوس لم يكن « بابا » إلا بالاسم فقط ، وقد حاول غير مرة أن يزحف على رومة ليجلس مكان خصمه إسكندر الثاني فلم يفلح ، وتوفي سنة ١٠٧٥ دون أن يجلس بالفعل على كرسى البابوية .

وبالرغم من المحن التي جازتها اسبانيا من جراء انقسام المملكة النصرانية ، فإن أحدا لم يعتبر بهذه الحقيقة . ووقع فرديناند في نفس الخطأ الذي وقع فيه أبوه . سانشو الكبير ، وترتب على وقوعه نفس النتائج الحزنة . نعم لقد عنى فرديناند بتربية أولاده أيما عناية ، ولكن ماذا يجدى ذلك في تقويم خلق الجنوبيين . المضطرم ؟ وقد حذا فرديناند حذو أسلافه السيء ، ورأى اجتنابا لكل نزاع بين أبنائه الذين يعرف حدة نفوسهم أن يقوم في حياته بتسوية يحاول أن يحسم بها عوامل النزاع من أساسها . بيد أنها كانت هي سبب الحرب الأهلية فيما بعد . ذلك أنه في سنة ١٠٦٤ قبل وفاته بعام استدعى في ليون مجلسا للشورى ، وفيه قرر بموافقة الأساقفة وكبراء المملكة ، أن يقسم أراضيه بين أبنائه الثلاثة ، فاختص سانشو أكبرهم بقشتالة والسيادة على المسلمين من رعايا صاحب سرقسطة (ابن هود) الذي يؤدي الجزية لقشتالة ويخضع لها . واختص ألفونسو^(١) بليون واشتوريش وحق الجزية السنوية التي يؤديها صاحب طليطلة (ابن ذى النون) ؛ واختص أصغرهم جارسيا بجليقية والبرتغال اللذين ضما إلى مملكة واحدة ، وحق الجزية على أمير إشبيلية (ابن عباد) وأمير بطليوس (ابن الأفطس) ؛ وأسند حق الإشراف على الأديار في جميع المملكة إلى ابنتيه الدونا أوركا والدونا إلفيرا ؛ واختصت أوركا فوق ذلك بمدينة سموره (زامورا) وهي قلعة منيعة على نهر دويرة ؛ واختصت إلفيرا بمدينة تورو وأما كن أخرى على دويرة .

٢ — أبناء فرديناند الأول

سانشو ، وألفونسو ، وجارسيا

واستطاعت أرملة فرديناند الدونا سانشا بما لها من السلطة أن تسهر مدى حياتها على وحدة المملكة ، ولكن ذلك لم يطل سوى عامين . وما كادت أم الملوك

(١) وفي الرواية العربية أذفونش أو أذفونش ، ويسميه ابن خلدون بنسية أصح هي الفنش (ج ٤ ص ١٨٢) .

الثلاثة تتبع زوجها إلى القبر ، حتى انطلقت أهواء الإخوة الجامعة من عقالها ؛ وكان سانشو ملك قشتالة^(١) الذي استولى أيضاً على جزء من اشتوريش ، وعلى الجزء الذي غنمه فرديناند من نافارا يضطرم سخطاً لأنه وهو أكبر إخوته لم يضع يده على مملكة أبيه كلها ، فحاول بادي^٢ ذي بدء أن ينتزع من ابني عمه سانشو ملك نافارا وسانشو ملك أراجون ، بمض مدن الأيبرو العليا فلم يفلح ؛ بيد أنه لم يخسر شيئاً من مدنه أو أراضيه فيما يظهر بالرغم من كونه قد هزم في موقعة مالقديا (ثيانا فيما بعد) سنة ١٠٦٧ م . ثم انقلب من هذه الحرب إلى مقاتلة أخويه ألفونسو وجارسيا ، أملاً في أن يخوض معهما معركة يسيرة خصوصاً وقد اغتتم حلف كثير من أتباعهما . ونشبت بين الفريقين مدى ثلاثة أعوام حرب ضروس خربت وديان ليون وقشتالة . والتحم الفريقان في موقعتين دمويتين ، الأولى في بلاتادا في ليون (١٨ يولية سنة ١٠٦٨) ، والثانية في جليباريس الواقعة على نهر كاريون في قشتالة (١٥ يولية سنة ١٠٧١) وتكبد كلاهما خسائر فادحة ، ولكن دون أن يحرز النصر أحد منهما . ولقد كان ألفونسو في الموقعة الأخيرة في مركز المتفوق ، ولكن حرصه على حقن الدماء حال دون تمتعه بشمرات ظفره ، بل أدى إلى اضطراب أمره ؛ ذلك أنه لم يشأ مطاردة جيش سانشو الفار ، وترك جنده الليونيين والجليقيين يحتفلون بالنصر دون تحوط وتدبر ، ومكن ذلك سانشو من اغتنام الوقت فجمع جنده ثانية ونزل حسبما تقول الرواية عند نصيح قائده « السد » البطل الأشهر ، فانقض على جيش ألفونسو ليلاً وأوقع به هزيمة ساحقة ، واستطاع ألفونسو أن ينجو بحياته ، ولكنه لم ينج من الأسر وأبقى سانشو على حياته ، تزولاً على رجاء أختها الكبرى أوراكا ؛ ولكن ألفونسو اضطر أن ينزل لأخيه عن عرش ليون ؛ وزج إلى ظلمات دير ساهاجون ؛ وهناك استطاعت أخته المأكرة أوراكا أن تدبر فراره ؛ وبادر الأمير الفار بالالتجاء إلى تابعه ابن ذى النون

(١) ويسيه صاحب البيان المغرب شائته (ج ٣ ص ٣٢) ، ولكن التسمية العربية الغالبة هي شائجه .

صاحب طليطلة فاستقبله بالترحاب والتكريم^(١).

ولم يكن حظ جارسيا ملك جليقية والبرتغال بأفضل من حظ ألفونسو ، وكانت مهمة إسقاطه هيئة على سانشو خصوصاً وقد قضى بطليانته واسطائفاته لوزير يبعثه الشعب على كل ولاء ومحبة له في أرضه . وما كاد سانشو يظهر على حدود جليقية حتى هب الشعب فقتل ذلك الوزير البغيض أمام عيني مليكه (جارسيا) ، وانضم إلى عدوه (سانشو) كثير من الكبراء والناقلين الذين أعييتهم مطاردته . والظاهر أن جارسيا فر دون أن يحاول معالجة حظه بالحرب ، فغادر مملكته في سرية فقط من حرسه ، وسار إلى تابعه ابن عباد أمير إشبيلية ، وهكذا تم لسانشو الاستيلاء على مملكتي أخويه .

ورأى سانشو أن يقطع على أخويه كل سبيل ، وأن يحول دون عودهما مع المرتزقة المسلمين أو يجعل على الأقل عودهما أمراً شاقاً ، ولكن كان يعوزه لتحقيق ذلك الاستيلاء على قلعتي سمورة وتورو النيمتين الواقعتين على نهر دويرة ، وقد كانتا في يدي أخته أوركا وإلفيرا ، وهما تمطقان على الأخوين الفارين . كذلك كان قد احتشد في هاتين القلعتين عدد جهم من الفرسان الليونيين والجليقيين يترقبون الفرصة الملائمة لكي يعودوا فيدخلوا أرض الوطن شاهرين الحسام . ورفضت الأختان ما عرضه عليهما سانشو من تعويضهما عن القلعتين بأراض أخرى ، وتدرعتا بالشجاعة فلم تبعاً بما توقعه به من أخذهما بالنار والسيوف . ومع أن تورو سقطت في أيدي القشتاليين لضعف حصونها ، فإن أوركا سيدة سمورة لم تخش بأساً ، وركنت إلى معونة الفرسان الشجعان الذين يحمونها بقيادة البطل آرياس كوزاليس ؛ وهكذا قامت مدينة واحدة بمقاومة سيد الممالك الثلاث وكانت قبره . ذلك أن سانشو حاول أن يتزع سمورة عنوة فلم يفلح فعمّل عندئذ أن يأخذها بالحصار ، ولكنه سقط قتيلًا في كمين نظم لاجتياله (٤ أكتوبر سنة ١٠٧٢) ، ولم يكن بعيداً عن تدبير اخته أوركا أو أخيه ألفونسو أو تديرهما معاً .

(١) ينشر صاحب البيان الغرب إلى هذا الحادث (ج ٣ ص ٢٣٢) .

وفي الحال ارتدّ الجيش المحاصر هلعاً عن أسوار سمورة عقب وفاة مليكه .
وبادرت أوركا فبعت إلى ألفونسو وهو في طليطة تنبئه بخلو العرش ، وتدعوه
إلى العود بأسرع ما استطاع . أما الروايات التي انتهت إلينا عن حكم الملك سانشو
وعن ارتقاء أخيه العرش والتي اشتق معظمها من الشعر والقصص ، فتسبغ على
هذه العودة كثيراً من ألوان الخيال المفرق ؛ بيد أنها ليست من التاريخ في شيء .
ولقي ألفونسو حين عودته إلى ليون مملكته القديمة اعترافاً تاماً بحقوقه الملكية ؛
ولكنه لقي أعظم الصعاب في قشتالة وفي الأراضى التي كانت تابعة لملكه نافارا
من قبل ، فقد اشترطنا لكي يلي ألفونسو العرش أن يقسم في حفل رسمي أنه
يرى من كل تبعة في مقتل سانشو ؛ فلما أعلن ألفونسو استعداده لأداء هذا القسم
لم يتقدم أحد من كبار قشتالة لتلقيه إياه إلا الكونت رودريجو دياز دى بيقار
المعروف بالسد الكمبيادور وقائد جيوش سانشو ، فإنه تطوع لأداء هذه المهمة
ولقن الملك اليمين مرتين فأدّاها ألفونسو على مضض ولم يغفر للسد قط جرأته ،
وهكذا أعلن ألفونسو أيضاً ملكاً على قشتالة .

وفي تلك الأثناء عاد الملك المبعد جارسيا (غرسية) أيضاً إلى مملكته جليقية ؛
والظاهر أن نزاعاً نشب بين الأخوين بخصوص قشتالة التي كان جارسيا يدعى
جزءاً منها . ونزل ألفونسو على نصيح أخته الساكرة أوركا ، فدعا أخاه إلى لقاء
زعم أنه لتسوية النزاع بالتفاهم . ولكن جارسيا ما كاد يمثل إلى مكان اللقاء حتى
رأى أنه غدا أسير ألفونسو وأدرك مبلغ خديعته (فبراير سنة ١٠٧٣) ، وأنفق
جارسيا في حصن لونا المنيع في ليون زهاء ثمانية عشر عاماً يرسف في أغلاله .
ولم يشأ ألفونسو أن يحمل أغلاله خشية انتقامه إلا بعد أن أكد له الأطباء قرب
موته . ولكن الأمير النكود أبى ذلك قائلاً إنه حل أغلاله طوال هذه المدة ، وإنه
يريد أن يحملها معه إلى القبر . وفي رواية أنه عجل موته بقطع شرايينه وذهب إلى
القبر وهو يلمن أخاه (مارس سنة ١٠٩٠) .

وهكذا فإن ألفونسو السادس لم يعتبر بمحتته وعثار جده ، فيغدو أكثر

اعتدالاً ورفقاً ؛ ولكنه استطاع بالخيانة والجريئة أن يجمع الممالك الثلاث تحت عرشه . كذلك استطاع بعد أعوام قلائل أن يضم إلى مملكته بعض أراضي مملكة نافارا الواقعة على نهر أيبرو (أبرة) .

والظاهر أن سانشو الرابع ملك نافارا لم يكن يحكم سوى مملكة صغيرة . ذلك أن فرديناند استولى بعد وفاة أبيه جارسيا على الأراضي الواقعة على ضفة أيبرو اليمينية ، ولم يفل سانشو عرشه إلا بفضل مناعة جباله وتعلق شعبه به . كذلك لا ريب في صحة الرواية القائلة بأنه عقد حلفاً مع مسلمي سرقسطة ضد أراجون . ذلك لأنه كان يخشى من هذا الجانب أكثر مما كان يخشى من جانب قشتالة . ولم يكن يجمع كلمة الأمراء فيما وراء البرنية سوى خصومة قشتالة . أما فيما عدا ذلك فقد كانوا يتخاصمون بعضهم بعضاً ، وكان سانشو يكفل بذلك حماية عرشه من الأعداء الخارجين . بيد أنه اتى مصرعه على يد أقرب الناس إليه . ذلك أن ريموند وأرمزنده — أسوة بما فعله ألفونسو وأوراكا ضد سانشو ملك قشتالة — أملا أن يحققا بالاغتيال مثل هذه الأمنية . فحدث أثناء الصيد أن كان الملك يرقب من صخرة عالية أفقية مصرع خنزير برى ، فانقض عليه القتلة وطعنوه من وراء وألقوا به من حلق فسقط مهثماً (سنة ١٠٧٦ م) . ولكن النافاريين سخطوا لهذه الجريمة أيما سخط ، ورفعوا إلى العرش سانشو الثانى ملك أراجون ، وذلك بالرغم من استدعاء ريموند لملك قشتالة القوى . ونفذ ملكا أراجون وقشتالة إلى نافارا وتفاهما على اقتسامها بالرغم من وجود ولدى الملك القتيلى القاصرين . فاستولى الفونسو على القسم المحاذى لنهر أيبرو المشتعل على ولايتى ريويابوسكونية واستولى سانشو على الجزء الواقع على البرنية ، وهو أكبر القسمين وفيه العاصمة بنبلونة ، وفر ريموند إلى أمير سرقسطة حيث قضى حياته المثقلة باللمن فى غمر الظلام . أما ولد سانشو الرابع فقد أبقاها ألفونسو فى ليون لينشأ فى بلاطه .

٣ — ريموند برنجار الأول كونت برشلونة

بينما كانت الممالك الأسبانية تتحول على هذا النحو بالإرهاب والعنف والقتل والحرب الأهلية إلى مملكتين هما قشتالة وأراجون ، ويحرض سلطان النصرانية بذلك تفوقاً ذا شأن على سلطان المسلمين ، كانت أسبانيا النصرانية تاتى عضداً في ولاية برشلونة أو قطلونية التي كان يحكمها طوال هذه الفترة الكونت ريموند برنجار المسمى ريموند الكبير (من سنة ١٠٣٥ - ١٠٧٦ م) . ولم يظهر الكونت فقط كأحد حماة النصرانية يقاتل المسلمين بشجاعة ، ويتنزع منهم الأراضي الواقعة على الضفة اليمنى لنهر «لورجات» ، ويفرض الجزية على صغار أمراءهم المجاورين له ، ولكنه استطاع أيضاً أن يزيد في قوة إمارته وذلك بأن ضم إلى برشلونة ولاية أورجل مرة أخرى ، ثم ضم إليها ولاية قرقدونة^(١) الواقعة في الناحية الأخرى من البرنيه ، وذلك بشرائها من ابنتى صاحبها الكونت روجر الثالث (سنة ١٠٦٧) . ولم يكن ضم هذا الجزء الهام من أراضي لانجدوك إلى قطلونية فقط ممهداً للطريق لغنم أعظم ، ولكنه أسفر بالأخص عن نتيجة كانت فيما بعد ذات أهمية خاصة وهي إعادة الصلة بين فرنسا وقطلونية ، بعد أن انقطعت من بينهما منذ استقلال قطلونية ، وتهيئة السبيل بذلك لنزوح الفرسان الفرنسيين المجاهدين الذين ألفوا في محاربة المسلمين مطمح مثلهم الخيالية ، والذين هرعوا في سرعات كبيرة لمساعدة أمراء أسبانيا النصارى ، في حروبهم ضد المسلمين وعاونوهم على تحقيق أعظم الفتوحات .

كذلك كانت قطلونية فيما يتعلق بالإصلاحات الداخلية قدوة تحتذى لجميع اسبانيا ، فقد رأى ريموند برنجار أن القوانين القوطية التي تطبق في الولاية لم تعد تتفق مع سير الأحوال فاستدعى جمعية من الكبراء عقدت في برشلونة سنة ١٠٦٨ ، ووافق هذا البرلمان الذي شهدته زوجته وواحد وعشرون من الكبراء على لائحة

(١) هي كاركاسون الحديثة (Carcassonne) ، وهي من مدن البرنيه الفرنسية .

جديدة تسمى « عرف برشلونة » (Usages de Barcellona) لتكرن قانوناً يطبق إلى جانب القانون القوطى الذى كان يطبق وحده من قبل . كذلك حاول ريموند أن يحد من حق القوة الذى كان يلجأ إليه الفرسان فى غاراتهم ، وذلك بواسطة الاحتكام إلى « سلام الله » ، واستدعى لذلك جمعية أخرى شهدها فضلاً عن الكبراء والأجبار نواب عن المدن وهى أول جمعية أوربية مثلت فيها الطبقة الثالثة . وأعيد حق الالتجاء إلى الكنيسة الذى نبذه الفرنج ، واتخذت قرارات للبر بالمساكين والمزول ، وحماية الزراع من ظلم الأقوياء .

أما الحلة التى بعثها الكونت ريموند لمعاونة أمير إشبيلية على افتتاح بلنسية من يد أمير طليطلة ، فترتبط ارتباطاً شديداً بتاريخ الإمارات المسلمة ، ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نقص تاريخ هذه الإمارات بادئ ذى بدء^(١) .

(١) يحمل ابن خلدون تاريخ إمارة برشلونة فى فقرة موجزة فى ختام حديث عن الممالك النصرانية (ج ٤ ص ١٨٥) .

الفصل الثامن

تاريخ الدول الإسلامية

التي قامت على أنقاض الدولة الأموية في اسبانيا

كانت أسرة أمية ذات الحول والسلطان — وهي التي بسطت خلافتها من دمشق ، حكمها على العالم الإسلامي ، والتي استطاعت بعد سقوطها على يد بنى العباس ، أن تحكم اسبانيا أحد أقطار دولتها الشاخنة ، وأن تقيم بها دولة باهرة ، ظلت بضمة قرون — قد انتهت رياستها كما ينتهي كل شيء في هذا العالم وحافت النقمة بمعقها ، ففاضوا في زوايا التاريخ دون أن يتركوا لهم أثراً .

وإن دولة تسقط صرعى نقائصها ، وليس من جراء ظفر أعدائها الخارجين ، لا تثير في الواقع كبير عطف . بيد أنه مما يدعو إلى التأمل ، أن يكون سقوط الدولة القديمة ، مهداً لنشوء بذور وحدات جديدة . ذلك لأن كل هدم في الواقع إنما هو عمل من أعمال الإنشاء والتجديد .

لقد ذهبت الخلافة الأموية في اسبانيا ضحية لفطرسه الحرس الخليفي وبنيه ، وأطباع الولاة ، وانحلال شعب فقد حبه وولاءه للأمر الحاكمة القديمة ؛ فمن كان ذا بأس ووجهة كان ينجح إلى استخدام قواه ، لافي سبيل الدولة ، وإنما لتحقيق مجده الشخصي . وهذه الأحزاب التي تقاسمت أشلاء الدولة وقادتها بذلك إلى الدمار ، لم تمت بذهاب الدولة الأموية ، وإنما كان ذهابها في الواقع بدء النضال فيما بينها ؛ وانقسمت الدولة الإسلامية في اسبانيا بادى ذى بدء إلى دويلات

عديدة حتى كان لكل مدينة تقريباً أميرها المستقل ، متخذاً لقب الملك أو الأمير أو الوالى أو القاضي ، تبعاً لحجم المدينة أو المنطقة التى يحكمها . ولكن سرعان ما تبين أن هذه الحال لا يمكن أن تطول ؛ أولاً : لما كان يجيش به الجميع من الأطماع ، وثانياً : لتباين القوى والرياسات . ذلك أن الأقوى كان يحاول أن يبطش بالأضعف ، فيحاول الأضعف أن يدرأ الخطر بالتحالف مع جار أقوى ، يتدو تابكاً له وبماونه على إحراز النصر على عدوها المشترك أو يهزم منه . هذا إذا لم تنجده معونة الأسراء النصارى ، وهى معونة يؤجرها بشمن غال .

وهكذا تكونت بعد معركة دامية بين الأحزاب ، من هاته الدويلات الإسلامية المديدة ، أربع دول رئيسية غلبت على جميع الدويلات الأخرى أو تحالفت معها . فى جنوب اسبانيا ، فى غرناطة وفى جزء من الأندلس غلب الحزب الأفريقى (المغربى) الأدارسة أو بنو حمود أصحاب مالقة ، وحالفهم أميراً غرناطة وقرمونة ؛ وكانوا فضلاً عن ذلك يحكمون عدة مدن فى شمال المغرب مثل مليلة وطنجة وسبتة . وكان بنو عباد أسراء إشبيلية يخوضون الحرب مع الحزب الأفريقى بلا انقطاع حتى تم لهم الظفر . وكانوا قد غلبوا بالحرب والحديمة على جميع الأسراء والولاة فى جنوب غربى اسبانيا . واضطر أميراً قرطبة وبطليوس إلى الانصواء تحت لوائهم حلفاء أو مغلوبين ، ولم يقف فى سبيل محاولة بنى عباد الاستيلاء على اسبانيا المسلمة كلها سوى بنى ذى النون أسراء طليطلة الأقوياء ، الذين حكموا أواسط أسبانيا . بيد أنهم لم يحققوا ذلك إلا على حساب استقلالهم . ذلك أنهم كانوا يدفعون الجزية للـك قشتالة التماساً لمونه ضد خصومهم . وأما الفريق الرابع الذى حكم فى شرق اسبانيا فكان أضعف من الباقين وحدة وأقلهم استقلالاً . ذلك أنه كان طبقاً للظروف بمقد التحالف مع الأدارسة أو مع بنى عباد أو مع بنى ذى النون . وكان بنو عامر فى بلنسية ومرسية نظراً لموقعهما الجغرافى أكثر اضطراباً لهذا التقلب من بنى هود والتجيين ، سادة سرقسطة وطليطلة ووشفة .

١ — الأدارسة أو بنو حمود

وحلفاؤهم في جنوبي اسبانيا

كان الأدارسة الذين يرجعون نسبهم إلى علي بن أبي طالب وفاطمة ابنة النبي (ص) قد أسسوا منذ أواخر القرن الثامن الميلادي دولة في المغرب كانت عاصمتها فيما بعد مدينة فاس . وقد سقطت دولتهم تحت ضربات الدولة الأموية الأندلسية والدولة الفاطمية اللتين تماقبتا في غزوها وإخضاعها في القرن العاشر ؛ وعاش بعض أفراد الأسرة المعزولة في مصر والمغرب واسبانيا . فلما اضطرت اسبانيا المسلمة في أوائل القرن الحادي عشر ، بالحرب الأهلية ، ولّى بعض الأحزاب المتنافسة على بن حمود سليل الأدارسة الذي كان حاكما لسبتة ، قيادة الجيش الأفريقي (المغاربة) ، (وكان أخوه القاسم بن حمود قد ولى في عهد الخليفة هشام المؤيد ولاية الجزيرة ومالقة) ، ثم نادوا به خليفة وحاكما لاسبانيا المسلمة (١٠١٥ م)^(١) . ومن ذلك الحين سعى الأدارسة بالأندلس بالمعنيين أو بنى حمود . ومع أن عليا لم يلبث أن مات بعد ذلك بعامين ، في مؤامرة دبرت لقتله ، فإنه كان قد وطد العرش لأسرته ، وانتخب للعرش بعده أخوه القاسم بن حمود ، ولكن حدث لسوء الحظ أن اضطرم الصراع حول العرش بين القاسم وبين ابن أخيه يحيى . ففقد بنو حمود الخلافة ، واستردها الأمويون لمدي قصير^(٢) . وانقضى

(١) تولى علي بن حمود الخلافة في الحرم سنة ٤٠٧ هـ ، وهو ما يوافق يونيه سنة (١٠١٦ م) ، وتلقب بالتوكل على الله .

(٢) كان خروج يحيى بن حمود على عمه القاسم الملقب بالمأمون في سنة ٤١٢ هـ ، وفراً للقاسم من قرطبة ودخلها يحيى وتلقب بالمتلى ؛ ثم عاد القاسم فدخل قرطبة في ذي القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولكن اضطر إلى مغادرتها لثورة قامت بها في جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ . وعول أهل قرطبة على رد الأمر لبني أمية ، وبايعوا عبد الرحمن بن هشام المستظهر في رمضان سنة ٤١٤ هـ ، فلم يلبث أن خرج عليه من أسرته حفيد للناصر يدعى محمد بن عبد الرحمن فقتله لثلاثة أشهر من ولايته ، وجلس على العرش وتلقب بالمستكني بالله ، وهو والد ولادة الشاعرة الأندلسية الصهيرة ، ولكنه أنصى عن قرطبة لسنة أشهر فقط من خلافته ، ثم اغتاله أحد أنصاره . وعادت قرطبة إلى طاعة يحيى المتلى ؛ ثم خرجت عن طاعته ، ورد الأمر =

من حول القاسم جميع أنصاره ، ووقع في أسر ابن أخيه يحيى بن علي . ولم يستطع يحيى أن يسترد خلافة قرطبة بادي ذي بدء ، ولكنه استطاع أن يحتفظ بأراضيهِ وتغري مالقة والجزيرة وبطنجة وسبتة في إفريقية . ولما عادت قرطبة إلى طاعته للمرة الثانية واتخذ لقب الخلافة مرة أخرى ، ثار عليه والي إشبيلية القرى القاضي ابن عباد ، ونشبت بينهما حرب قتل فيها يحيى (٤٢٧ هـ - ١٠٣٦ م) . وأقام أخوه إدريس نفسه أميراً مستقلاً على مالقة والجزيرة وبعض ثغور المدوة المقاتلة بجنوبي اسبانيا ، وذلك أثناء خلافة هشام الثالث (المعتمد بالله) بمدنقيه من قرطبة . واشتهر إدريس من بين ألقابه المتعددة بلقب المتأيد بالله .

وتاريخ إدريس هذا ، وتاريخ خلفائه ، فياض بالمتناقضات ؛ والروايات العربية المختلفة لا تكاد تتفق في شأنه على شيء ، بل إنها لا تتفق حتى على تعاقب الأمراء ، وعلى مدد حكمهم ؛ فالحروب المستمرة بين الأدارسة أنفسهم في سبيل السلطان ، وتداول الملك بالسيف ، وانقسام الأسرة الحاكمة إلى فرعين ، أحدهما مركزه في مالقة ، والآخر في الجزيرة ، وعود الأمراء الموزولين إلى العرش ؛ واتحاد الأراضي المنفصلة تحت حكم أمير واحد ؛ ذلك كله مما يلقي كثيراً من الغموض على تاريخ لا نعرفه سوى معرفة ناقصة مما انتهى إلينا من الشذور والروايات المشوهة ^(١) .

ومع أن إدريس المتأيد أحسن السيرة في حكمه (سنة ١٠٢٧ - ١٠٣٩ م) ، وحاول أن يهدئ ثورة الأنفس باستدعاء الأمراء المنفيين ، وإعلان العفو الشامل ؛ ومع أن الشعب قد أحبه لكثرة بره وإحسانه ، وأحبه العلماء والمثقفون لتمضيده العلوم والآداب ، فقد ثار عليه ابن عمه محمد بن القاسم بن حمود ، واستطاع بواسطة

= لبي أمية مرة أخرى ، وبويع هشام بن محمد الأموي ، ودخل قرطبة سنة ٤٢٠ هـ . وتلقب بالمعتمد بالله ، وخلع بعد عامين لولايته ، ففر إلى الثغر الأعلى ولحق بابن هود صاحب سر قسطة حتى توفي سنة ٤٢٧ هـ ، وهو آخر ملوك بني أمية بالأندلس .

(١) الواقع أن الروايات المتعلقة بتاريخ الأدارسة في الأندلس كثيرة الغموض والتناقض . ويراجع في ذلك ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ - ٩٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ و ١٥٥ و ج ٦ ص ٢٢١ ، وأبو الفداء ج ٢ ص ١٤٥ و ١٤٦ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٢٤ و ٢٢٥ ، والمراكشي ص ٣٣ - ٣٩ .

الجند الرقيق الذين كانوا يؤلفون بالجيش فرقة خاصة أن يستولى على الجزيرة ، وأن يقيم بها حكومة مستقلة . ثم إن ابني أخيه يحيى وهما إدريس والحسن ، وكانا ممتقلين بسببته ، استطاعا أن يفرا من سجنهما بمؤازرة بغض الزعماء من حراسهما لقاء أمل في تحقيق جاه أو مطمع ؛ وفي تلك الأثناء قتل إدريس التأييد ، وليس بعيداً أن يكون قتله أمراً مدبراً ؛ ولكن إدريس والحسن اختلفا على الملك واقتتلا . فاما إدريس وهو الملقب بالعالى ، فقد أيدته القائد ابن بُقَنْته في مالمقة وأعلنه أميراً عليها . وأما الحسن فقد أعلنه الحاجب نجبا الصقلي أميراً على سبته ؛ ثم جاز إلى أسبانيا محاول الاستيلاء على مالمقة ؛ فلما لم يوفق في محاولته ، رأى أن يقنع بمقد معاهدة تقسم بها أراضي المملكة ، ويحتفظ بمقتضاها إدريس بن يحيى بمالمقة وما إليها ؛ ويحتفظ الحسن بن يحيى بالثغور الأفریقیة ، وسرعان ما ظهر أن الحاجب نجبا إنما يعمل لنفسه . ذلك أنه لم يمض سوى قليل حتى قتل الحسن في سبته بتحريضه ، بعد أن اتخذ كل أعباء لا نجاح مشروعه الفادر . وتزوج من أرملة الحسن ، واستولى على أراضي الأدارسة في إفريقية بواسطة جيش ضوعفت أرزاقه ونادى عليها بإمارة محمد بن القاسم (المهدى) أمير الجزيرة ، وقد تردد في البداية بين قبول الإمارة تحت ظل الحاجب القوى وبين معاونة بني عمه . ولما وطد نجبا سلطانه في إفريقية ، عبر البحر في أسطول كبير إلى أسبانيا ، واستطاع بالفدر والحليانة أن ينتزع مالمقة ، وأن يأمر إدريس بن يحيى (سنة ١٠٥٣ م) .

فلما وقف محمد بن القاسم أمير الجزيرة على فعلة الحاجب ، بادر بالزحف في جنده إلى مالمقة ليماقب العصاة ، ولم يذخر الحاجب وسماً في التأهب لمحاربتة . بيد أنه ما لبث أن رأى في روع تردد الجند في تأييده ، فاضطر أن يسمي لسلامة نفسه ، وبادر إلى مالمقة لكي يقضى على الأمير الأسير إدريس بن يحيى ، ثم يمتنع هنالك حتى يأتيه المدد من إفريقية ؛ بيد أنه قُتل قبل أن يصل إلى المدينة بيد جماعة من الزعماء الموالين للأدارسة ؛ وفي الحال بادر هؤلاء إلى مالمقة فأطلقوا سراح إدريس بن يحيى المعتلى ، ورفعوه إلى المرش مرة أخرى (أواخر سنة ١٠٥٣ م) .

ولم يكن باديس الظفر أمير غرناطة أقل عوناً لإدريس على استرداد عرشه من الزعماء الأدارسة . ومن ثم فإنه يبدو من الخطأ الواضح ما تذهب إليه بعض الروايات العربية من أن الأمير باديس صاحب غرناطة قد افتتح مالقة ونزع إدريس عن عرشه (في سنة ١٠٥٣ م)^(١) . وحكم إدريس الثاني بعد ارتقائه للمرة الثانية عدة أعوام ، وبسط سلطانه على جميع الأراضى التي كانت تابعة للأدارسة ، ومنها الجزيرة انتزعها من محمد المهدي لما أساء في حقه ، ونفاه إلى إفريقية . بيد أنه مالبث أن ذهب ضحيةً لبغض أمرته ؛ ذلك أن محمد بن إدريس وهو من عقب محمد ابن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة انتمى به ونزعه عن العرش وألقاه إلى السجن ، فلبث يرسف فيه أعواماً حتى توفي سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م) . ولسنا نعرف إن كان محمد هذا هو نفس محمد المهدي الذي تولى الحكم قبل ذلك بأعوام ، ثم أسقطه إدريس بمعاونة صاحب غرناطة ، وبمثله إلى النقي في إفريقية ؛ فإنه من المتعذر علينا أن نتحقق من ذلك نظراً لتماثل الأسماء وإيجاز الرواية وغموضها^(٢) . وقد كانت هذه المعارك المستمرة بين الأدارسة أنفسهم أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط دولتهم على يد بني عباد أمراء إشبيلية ، الذين استطاعوا بحالهم من قوة شاذغة ، أن يبسطوا سلطانهم على جنوب أسبانيا كله . وخلف محمد القاسم أكبر أولاده الثمانية وتلقب بالمستعلي ، وأنفق كل وقته في حروب مستمرة مع إشبيلية ، وسقطت الجزيرة في يد بني عباد سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م)^(٣) ؛ ثم سقطت مالقة في

(١) لم يذكر لنا المؤلف أين استقى هذه الرواية . على أنه يلوح لنا أن الأمر قد اختلط عليه هنا ، والواقع أن باديس صاحب غرناطة قد استولى فعلاً على مالقة . واسكن بعد ذلك بأعوام قلائل إذ انتزعها من يد محمد بن إدريس المستعلي سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، والمستعلي هو آخر من تولاهما من بني حمود (راجع نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١٨) .

(٢) محمد بن إدريس المشار إليه هنا إما هو شخص آخر وهو الملقب بالمستعلي . أما محمد ابن إدريس الأول فهو الملقب بالمهدي ، وكانت ولايته سنة ٤٣٨ — ٤٤٦ هـ (١٠٤٧ — ١٠٥٤ م) .

(٣) القاسم المشار إليه هنا هو القاسم بن محمد بن حمود ، وهو آخر ولاية بني حمود ولم =

أيديهم بعد ذلك بثلاثة أعوام . وعندئذ اضطر الأدارسة إلى الفرار إلى إفريقية حيث بقيت لهم بعض الثغور . أما سلطانهم في اسبانيا فقد انتهى من ذلك الحين . وكان حلفاء الأدارسة أسراء مالقة وأنبأهم في معنى من المعاني ، أسراء غرناطة وألبيرة وجيَّان وأصحاب قرمونة واستجبه ؛ وكان هؤلاء يشدون أزر مالقة في حروبها مع إشبيلية ؛ وكان مؤسس إمارة غرناطة الزعيم البربري زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي الملقب بالنصور ؛ وخلفه في حكمها ابن أخيه جبوس بن ماكسن (٤٢٠ هـ — ١٠٢٨ م) على أن يبقى مرتبطاً بمخالفة مالقة على محاربة قرطبة وإشبيلية ، وقد كانتا مصدر الأخطار على غرناطة ؛ ومن ثم بادر جبوس وأمير مالقة ، إلى إغاثته محمد بن عبد الله البرزالي أمير قرمونة واستجبه ، حينما هاجمه ابن عباد أمير إشبيلية ، فبعد أن افتتحت قرمونة ، وحوصرت استجبه ، ظهرت في الميدان أمداد مالقة وغرناطة ؛ ومع أن بداية المعركة كانت سيئة بالنسبة للجيش المتحالف ، فإن أمير غرناطة الذي اشتبك بجيشه في معركة دموية ضد الأشبيليين استطاع أن يوقع بهم هزيمة قادحة وأن ينقذ قرمونة . بل استطاع أن يوغل في أراضي صاحب إشبيلية وأن يشحن فيها ؛ على أنه حدث بعد ذلك أن اضطرت مالقة بالقلقل عقب موت إدريس التأييد ؛ وكذلك توفي جبوس بن ماكسن روح هذه الحركة (٤٢٩ هـ — أواخر سنة ١٠٣٨) قدب الخلاف بين الجيوش المتحالفة وأخذت ترى بعضها بعضاً بالخيانة ، وأصبح من اليسور على الأشبيليين عندئذ أن يتهموا هذه الفرصة لتنظيم قواهم المختلة . وخلف جبوساً ولده باديس المظفر ، فعنى باديس ذي بدء بتوطيد سلطانه قبل أن ينزل إلى ميدان الحرب واستطاع إدريس الثاني (العالي) بمعاونته القوية أن يستعيد عرشه في مالقة ؛ ولبت باديس مدى حكمه الطويل (من سنة ١٠٣٨ إلى سنة ١٠٧٢ م) في حرب دائم مع إشبيلية يقتتل مع بني عباد بلا انقطاع ، بالتحالف مع أسراء مالقة وقرمونة واستجبه ؛

== يتلقب بالمستلي ، وكانت ولايته قاصرة على الجزيرة وحدها . وقد نزعا منه المعتضد بن عباد سنة ٤٤٩ هـ أو سنة ٤٥٠ هـ (سنة ١٠٥٨ م) ، وليس في سنة ٤٦٤ هـ كما يقول المؤلف .

وحدث أن هزم إسحاق بن سليمان الذى خلف محمد البرزالي فى حكم قرمونة ، وأخذت المدينة (سنة ١٠٥٣م) ، ولم يستطع حلفاؤه استعادتها يومئذ ، بن صاحب إشبيلية ، ولكن بنى عباد لم يستطيعوا أن يحققوا لأنفسهم ظفراً يذكر ضد جيوش غرناطة ومالقة ؛ ومن ثم فقد عمدوا بالخيانة والدس إلى إثارة الخلافات الداخلية ، لا فيما بين الحلفاء وحدهم ، بل وفى قلب الأسر الحاكمة ذاتها ، لكي يحطموا بذلك قوى خصومهم ؛ ومن الواضح أن اضطراب سلطان الأدارسة من جراء تقلب العرش بتلك الصورة العنيفة ، يرجع بالأخص إلى الدسائس الخفية التى كان يحكوها أمراء إشبيلية .

فلما انتهر الأمير محمد المعتمد صاحب إشبيلية فرصة الاضطراب فى جنوب إسبانيا ، واستولى على الجزيرة واستجبه ومالقة (سنة ١٠٧٥ م) وقضى بذلك على سلطان الأدارسة وأتباعهم أصحاب استجبه ، أضحت غرناطة وما يتبعها من أراضى البيرة وبياسة وجيان على وشك الوقوع فى قبضة الفاتح ، ولكن وقوع إشبيلية نفسها فى يد ألفونسو السادس وحليفه الأمير المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، اضطر بنى عباد أن يتركوا فتوحهم فى ولاية غرناطة ؛ وكان يحكم غرناطة يومئذ أمير ذكى شجاع هو عبد الله بن بلكين بن باديس خلف باديس المظفر وحفيده ، وكان قد استقل بعد ذهاب دولة الأدارسة بقرطبة وجيان وبياسة والبيرة واستمر فى حكمها حتى نزع الرابطون سلطانه عنها .

٢ — بنو عباد ملوك إشبيلية وحلفاؤهم بنو جهور أصحاب قرطبة

وبنو الأفطس أصحاب بطليوس فى جنوب غربى الجزيرة

كان أمير إشبيلية أقوى ملوك الطوائف أو أمراء إسبانيا المسلمة ، الذين قاموا على أتقاض الخلافة الأموية . وينتمى بنو عباد إلى أصل من أصول الشام . وقد وجدت أسرهم إلى الأندلس فى أواسط القرن الثامن (الميلادى) . ولما قامت الحروب الأهلية التى أدت فى أوائل القرن الحادى عشر إلى سقوط الدولة الأموية

ظهر عميدهم إسماعيل بن عباد بين زعماء الأندلس بالحكمة والتراء. والوجهة الملوكية . وكان المبعدون من قرطبة يلقون منه في إشبيلية كل عون وحماية . وقد اصطنع لنفسه بفيض جوده ، ورقة خلاله ، كثيراً من الأصدقاء والأتباع . وهذا النفوذ الكبير الذي كان يتمتع به إسماعيل ، هو الذي حمل الخليفة الإدريسي ، القاسم ابن حمود على أن يعتمد على معاونة إشبيلية ، وعلى أن يعين ابنه أبا القاسم محمداً ، من بعده والياً لإشبيلية . فلما اضطرت الحرب الأهلية ، واضطر الخليفة ، أن يفادر الحاضرة قرطبة ، استخلص محمد لنفسه سيادة إشبيلية بالعنف والخديعة (سنة ٤١٣ هـ — ١٠٢٢ م) وعاون في مشروعه جماعة من الزعماء الأقوياء ، فأقطعهم بعض الأراضي على أن يؤدوا له الجزية ؛ وهكذا وثق علاقتهم به وضمهم إلى جانبه . ومع أنه يدين إلى الإدارة قبل كل شيء بولايته ، فإنه ما لبث أن انقلب عدوهم الألد . ولم يقتصر على أن كان أول من جاهر بالثورة والانفصال عن خلافة قرطبة ، بل استطاع أيضاً أن يظهر تفوقه على الخليفة يحيى بن علي بن حمود في معركة نشبت بينهما بجوار إشبيلية هزم فيها الخليفة وقتل (سنة ١٠٢٦ م) واستمر محمد من بعد ذلك ييسط سلطانه على نواحي الأندلس ، بينما كانت البقية الباقية من بني أمية في قرطبة تمزق بعضها بعضاً ويخرج الحكم من يدها .

ولما اضطر هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين ، إلى الفرار من قرطبة من جراء خيانة وزرائه وبطائته ، قبض على زمام الحكم أبو الحزم جههور بن محمد بن جههور ، وكان كأسلافه من أكابر رجال الدولة ؛ وكان قد ولي الوزارة أو الحجابة لهشام وقبض على زمام الحكم من قبل . فلما خلا العرش طمح إلى استخلاص الملك لنفسه ، وهي غاية كانت تقتضى كثيراً من الحكمة والبراعة والدهاء في مثل هذا الظرف الذي اضطرت فيه المواقف بين مختلف الأحزاب ، وأراد كل أن يأمر ، ونكل الجميع عن الطاعة .

ورأى ابن جههور أن يضم الزعماء التوثيين الطامعين إلى حكومته ، وأن يكبح جماح الأحزاب ، فدعا العظماء إلى مشاركته في شؤون الحكم ، وبذا أنشأ للدولة

نوعاً من الدستور الأرستقراطي ، وهو نوع من نظم الحكم يندر أن نراه في الدول الإسلامية ، ولم يتمتع قط بحياة طويلة . وقد انتهى ابن جمهور نفسه إليه بتأثير الظروف . ذلك أنه كان من حسن السياسة أن يكسب صداقة الزعماء الأقوياء الذين لم يك من اليسور إخضاعهم بقوة السلاح ، بمنحهم بعض الامتيازات ، وإشراكهم في مجلس الدولة . وكانت هذه « الجماعة » التي ألفت من أكابر رجال الدولة وأوجههم ، تختص بالنظر في شؤون الدولة العليا . وكان ابن جمهور يعتبر لها رئيساً فقط . بيد أنه ما لبث أن اتخذ منها في يده أداة يوجهها كيف شاء . وكان لهذا النظام ميزة خاصة ، هي أن يستطيع أن ينسب إلى هذا المجلس الأعلى من تصرفات الحكومة ، كل ما هو بغيض وصارم ، وأن ينسب لنفسه منها ، ما يقبله الشعب ويرضاه . بيد أنه لا ريب أيضاً أنه استطاع أن يغمى رضى القرويين بما حققه من إصلاحات عديدة . ذلك أنه خفض الضرائب الفادحة التي كان يقتضيها بذخ الأمويين وتبذيرهم ، تخفيضاً عظيماً ، وألغى البعض منها بتماماً . وسار في حياته الخاصة سيرة قناعة ومجانبة للإسراف ، وجنح إلى البساطة والاعتدال . بل لقد أبى بادي ذي بدء أن يسكن في القصور الملكية ، تفادياً لما يقتضيه ذلك من كثرة الحشم ، واستطاع أن يحقق بإقالة رجال الحاشية ، وهم جبهة كبيرة ، وفراً عظيماً في النفقة . وأصلح القضاء الذي انهارت دعائمه في أواخر الدولة الأموية من جرّاء انتشار التجسس والرشوة ، وأقام جماعة قليلة من المحامين ذوى رواتب كالقضاة ، ألغوا مصلحتهم في سرعة إنجاز القضايا ، وتبسيط سير العدالة بقدر المستطاع . ورأى فيما يتعلق بمزاولة الطب ، أن يبعد عن المدينة كل الأدعياء وألا يسمح بمزاولته إلا لمن جاز الامتحان أمام لجنة من أكابر الأطباء . وأنشأ شرطة بارعة تسهر على حسن تموين المدن بالمواد الغذائية ، وعلى رخص أسعارها . وعهد إلى الجند الشعبي (المليشيا) الذي درب خلال الحرب الأهلية بالسهر على أمن المدينة وسكintها . ورصد إيرادات الدولة ونفقاتها في جرائد سنوية تذاع على الشعب ، وفرض على جباة الضرائب والكوس (الجمارك) رقابة

حصارمة . وهكذا تمتعت المدينة التي عانت مصائب الحرب الأهلية حقبة طويلة بنعم السلام والرخاء في ظل حكومة رفيقة عادلة ، وازدهرت العلوم والتجارة والصناعة ، وقامت فوق الأطلال الدارسة والميادين الخربة مرة أخرى ، أبنية شامخة يمررها قوم سعداء يدعون لسلطانهم بطول البقاء^(١) .

وإذ كانت قرطبة من قبل عاصمة اسبانيا المسلمة فكذلك كان جمهور بطمح إلى توسيع سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يفدو مثلما كان عليه سلطان الأمويين من قبل ؛ وكانت هذه أمنية جريئة خصوصاً إذا ذكرنا أن سلطانه لم يكن يشمل بعد قرطبة سوى مدن قلائل ، وأن ولاية الأقاليم الذين أقاموا أنفسهم أمراء مستقايين كان في وسعهم أن يردوا أطاع جمهور عن أراضيهم بالسيف . والواقع أنه لم يك ثمة عماد لأي حق أو دعوى في السلطان سوى القوة والعنف . ولما أرسل جمهور إلى أمراء مالقة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة ومرقسطة وبطليوس وبلنسية ، يدعوهم إلى الاعتراف بطاعته لم يتنازلوا حتى بالرد عليه . وحاولوا أن يذيعوا في جميع أنحاء اسبانيا مختلف الإشاعات عن حكمه الظالم . أما جمهور فكان من جانبه يتجاهل استقلالهم ومزاعمهم ، ويمتدح في رسائله إليهم ، غيرتهم وعنايتهم بتأييد السلام في الأقاليم الموكولة إليهم ، وكون توطيد دعائم الدولة لا يكون إلا بالطاعة والاتحاد .

وكان أقلمهم أكثرائاً بدعوى جمهور أبو القاسم محمد بن عباد أمير إشبيلية ، وكان يومئذ قد انتهى من حصار قرمونة وافتتاحها . بيد أنه لما هرع أميراً مالقة وغرناطة إلى إغاثة البرزالي صاحب قرمونة ، وهزما جيش إشبيلية ، وهددا إشبيلية ذاتها ، رأى محمد أن في محاصرة جمهور خطراً كبيراً عليه ، وفكر في حيلة يتيق بها شر أعدائه . ورأى لكي يسبغ على قضيته مستحجة الحق ، ويفتنم

(١) تفيض الرواية العربية في مناقب الوزير جمهور وفي رفيع خلاله وبارع حكمه ، ونصف لنا نظام الجماعة الذي أنشأ في قرطبة وبرنامجه الإصلاحى في كثير من الإعجاب والتقدير . تراجع في ذلك بالأخص ابن الأبار في كتاب الحلة السراء ص ١٦٨ . والبيان القرب ج ٣ ص ١٨٦ قلا عن ابن حيان .

تأييد الشعب في جميع الولايات ، ثم لكي يقضى بالأخص على زعامة جهور في قرطبة ، أن يذيع في كل مكان أن الخليفة هشاماً الثاني (المؤيد) (الذي أذيع موته سرّاً من قبل ورفع ثأنية إلى المرش)^(١) لم يقتل كما يتوهم الناس ، ولكنه ما يزال حياً يقيم في أشبيلية ، وأنه دعا محمداً إلى إغاثته وعونه ؛ ثم أمر فدعي لهشام في الخطبة على جميع منابر إشبيلية ، ونقش اسمه على السكة بها . وطلب إلى جميع المسلمين المخلصين أن يلزموا الولاء لسيدهم الشرعي ، وأن يمتروا به خليفة لهم . كما طلب إلى رؤساء الأقاليم والمدن أن يقيموا له البيعة . بيد أن مزاعم محمد لم تلق بين الأمراء كبير تأييد ، ولم يقبلها سوى بني عامر أصحاب بلنسية ومرسية ، فوعدوا وحدهم بالإغاثة والطاعة . أما الباقيون فقد استقبلوا دعوة محمد إلى المونة بالسخرية ، ولو ظهر هشام الحقيقي فيما بينهم لما أطاعوه . على أن محمداً استطاع مع ذلك أن يحقق غايته من بعض الوجوه ، فقد بث الشجاعة في نفوس أسدقائه وبث التفرقة إلى أعدائه ، وزد سيرهم المظفر إلى إشبيلية . كذلك أثارت دسيسة محمد في قرطبة قلاقل وثورات ضد حكم جهور ، وشغل جهور بقمعها ، فلم يكن يوسع أن يتقدم لمقاتلة محمد . وكذا ثارت الفتنة في مالقة بين الأدارسة حول المرش ، وهزم الأدارسة وحليفهم صاحب غرناطة في ميدان الحرب (٤٢٩ هـ - ١٠٣٨ م) . وبذا أنقذ محمد ، وكافأ محمد قائده الكبير أيوب بن عامر ابن يحيى اليحصبي الذي حقق له النصر ، فأقطعه حكم ولّيه^(٢) وجزيرة شلطيّش ، على أن يؤدي الجزية .

وكان ثمة في جنوبي غربي الأندلس ، فضلاً عن مملكتي إشبيلية وقرطبة ،

(١) تختلف المصادر العربية في مصير الخليفة هشام المؤيد اختلافاً كبيراً ، وتقدم إلينا عن موته واختفائه وظهوره روايات كثيرة متناقضة ؛ وتختلف أيضاً في شأن هذه الواقعة التي يشير إليها المؤلف ؛ فالبعض يرى أنها من حبل ابن عباد وعموياته ، مثل ابن حبان (البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٨) ، وابن الأثير (ج ٩ ص ٩٧) ، وأن ابن عباد اختراع هذه القصة اختراعاً ليسعين بها على أمره ويهدد خصومه ؛ ويرى البعض مثل أبي الفداء أنها واقعة حقيقية (ج ٢ ص ١٤٧) .

(٢) ولّه Huelva ، ويطلق عليها أحياناً اسم « أوبه » .

بنو الألفس يقيمون في بطليوس مملكة ذات شأن ، ويرجع الفضل في قيامهم على عرشها إلى سابور الفارسي ، مولى الخليفة الحكم الثاني (المستنصر) ووالى مقاطعة الغرب في عهد هشام الثاني (المؤيد) . وعهد سابور بولاية ماردة إلى فتى من مكناسة هو عبد الله بن مسلمة بن الألفس التجيبي وأولاه ثقته ، وكان يستشير في جميع شؤون الحكم . ولما توفى سابور أثناء الحرب الأهلية ، نادى عبد الله بن الألفس بنفسه أميراً مستقلاً في « الغرب » (غرب الأندلس) وتلقب بالنصور^(١) ، واتخذ بطليوس مقراً لحكومته ، وكان له حلفاء أقوياء في بني عمه التجيبيين أمراء سرقسطة (بني هود) . ولم يكثر ابن الألفس لدعوة ابن جهور إياه إلى الطاعة . ولكي يوطد ملكه في المنطقة التي تشمل بطليوس وماردة وباجة وباجة وقورية وأشبونة وشلب وما إليها ، عين ولده أبا بكر محمد ولياً للمهد ، وهو الذي تلقب فيما بعد بالمظفر .

وكما حاول أيوب وأحمد ابنا أحمد والى لبلة (سنة ١٠١٩ م) أن يفتشوا بالأندلس في ولبة وجزيرة شلطيش ولبة إمارة مستقلة ، وهى إمارة سرعان ما تطلع بنو عباد وبنو الألفس إلى إخضاعها ، فكذلك قامت إمارة صغيرة أخرى جنوبي البرتغال هى إمارة شنتيمرية (ساتنا ماريا) الغرب (الغربية) من أعمال ولاية الغرب الحالية وقاعدتها مدينة اكسونه ، ويحكمها الوزير أبو جعفر أحمد بن سعيد ، وصهره سعيد بن هارون اعتماداً على حق الوراثة . أما شنتيمرية الشرق (الشرقية) وأرضها المعروفة بالسهلة المتاخمة لولاية طليطلة ، فكان يحكمها هذيل بن خاف بالوراثة عن جده الحاجب عن الدولة أبو محمد هذيل بن رزين ، وعاصمتها شنتيمرية الشرق^(٢) ، وكان أميرها يستظل بحماية بنى ذى النون أمراء طليطلة .

وبينما كان جهور أمير قرطبة يطمح إلى امتلاك شنتيمرية الشرق ، كان

(١) فى أبى الفداء (٢ من ١٤٨) ، وابن الأثير (٩ من ٩٩) أن الذى تلقب بالنصور هو الفتى سابور .

(٢) هى التى تعرف فى الجغرافية الحديثة باسم Albarracin ، وهو تحريف لاسم حكامها من بنى رزين .

بنو عباد يطمحون إلى امتلاك شتمرية الغرب ، وسرعان ما رجحت كفة بنى عباد رجحانا قويا بتحالفهم الوثيق مع المامريين سادة الساحل الشرقى (بلنسية ومرسية) ، وعدل أبو القاسم محمد بن عباد فى أواخر عهده عن دعواه بأن هشاما الثانى حى يقيم فى قصره ، ولكنه عمد إلى قصة أخرى كان يرجو من ورائها النجاح ، فزعم أن هشاما توفى حقيقة ، ولكنه اختاره لولاية عهده ، وعهد إليه بالانتقام لما حل به من المحن ، واعتمد بنو عامر على ذلك الزعم الواهى فعملوا على توثيق تحالفهم مع بنى عباد ؛ وهكذا أصبحت هزيمة الأدارسة أمراً محققاً بعد أن صار الهجوم عليهم ممكناً من الناحيتين .

يبد أن ابن عباد ما كاد يجد فى الأهبة لمحاربة الأدارسة وحلفائهم حتى أدركه الموت (٤٣٣ هـ - ١٠٤٢ م) خلفه فى الحكم ولده أبو عمرو عباد بن محمد وتلقب بالمتضد بالله . وقد اشتهر المتضد بوفرة ذكائه ، كما اشتهر بوسامته وروعة قوامه ؛ وكما أسبغت عليه شهرته بالقريض والفرل المضطرم والشجاعة والبذخ صورة أمير من أمراء الفروسية ، فكذلك نراه يصمم هذه الصورة المثلى بشنيع فجوره ، ورائع فسوته ، وبالغ استهتاره بالدين . ومع أنه كان يشغف حبا بزوجه ابنة مجاهد المامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية (البليار) ، فإنه كان يحتفظ بسرب من الخطايا يضم سبعمائة أو ثمانمائة امرأة ؛ وبالرغم من أنه كان ينفق أموالا عظيمة على الأبنية الشاحخة ولا سيما القصور والقلاع ، فإنه كان يترك المساجد خرابا ولا يعنى بإنشاء شئ منها خلافا لما جرت عليه سنن أمراء المسلمين . وقد كان يغمر خاصة أصدقائه بمطفه وجزبل صلاته ، ولكنهم لم يأمنوا قط روعة الموت على يده . ذلك أن بذخه الطائل كان يقتضى أموالا عظيمة ، وكان ينزعها من أولئك الذين أثروا مما أولاهم من مناصب ووهبهم من عطايا . وقد قضى بالموت على منظم وزرائه ونزع أملاكهم ليستمين بها على بذخه المفرق . وكانت تنتظم فى أبياء قصره أفئداح من جاجم الموتى محلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، فيذكر أهل بطانته دأعا برؤيتها ما يهددهم من روعة المصير^(١) ، وأما إزاء جيرانه فقد كان المتضد كثير

(١) إن هذه الصورة الباهرة القائمة التى يقدمها إلينا المؤلف عن المتضد بالله المبادئ =

الدعاء والخديعة لا يترك فرصة سانحة إلا انتهزها لتوسيع أملاكه . وكان يوجه جل اهتمامه إلى الإدارة باعتبارهم أخطر أعداء إشبيلية . بيد أنه لم يغفل أيضاً شأن قرطبة وطليلة ، وكان يرى أن اشتبا كهما في حرب مما يعود عليه بأكبر نفع ، إذ يستطيع عندئذ أن يتحول من محالفتهم إلى افتتاحهما بأيسر أمر .

٣ — بنو ذى النون

كانت طليطة في أواسط اسبانيا يومئذ أقوى دولة إسلامية في شبه الجزيرة . ولسنا نعرف بالتحقيق أول من حكمها عقب انهيار الدولة الأموية . فالعض يقول إن ابن يعيش كان أول أمير استقل بها عن حكومة قرطبة . ولكن معظم الروايات تجمع على أن الذى حكمها بعد ذلك هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر من بنى ذى النون أعلن نفسه أميراً عليها وتلقب بنصر الدولة المظفر (بعد سنة ١٠٣٠ م على ما يظهر)^(١) . وتلقى إسماعيل بالسخرية دعوة جمهور أمير قرطبة

== هي نفس الصورة التي رددتها التواريخ الإسلامية كلها والأندلسية منها بنوع خاص لا مبالغة فيها ولا إغراق . وقد أجملها لنا ابن بسام صاحب الذخيرة في العبارات القوية الآتية : « قطب رعى الفتنة ، ومنتهى غاية الخنة ، ناهيك من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم منه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فرس الفلا وهو رايش ، منهور تتعاهم الدماء ، وجبان لا تأمنه الكماة ، متعسف اهتدى ، ومنبت قطع فأبقى » وكان قد أوتى أيضاً من جمال الصورة وتمام الخلقة ونظام الهيئة وسباطة البنان ونفوق الذهب وحضور الخاطر وصدق الحديث ما فاق على نظرائه ، ونظر مع ذلك في الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان أدنى نظر بأزكى طبع . . . أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة في معان أمدته فيها الطبيعة وبلغ فيها الإرادة . وكان على جرأته في إحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء فاستوسع في اتخاذهن وخلط في أجناسهن ، فاتمى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه » أوردها ابن خلكان في ترجمة المتضدد منسوبة لابن بسام (ج ٢ ص ٣٧) ووردت في البيان المغرب منسوبة لابن حيان (ج ٣ ص ٢٠٧) . وأما ما قيل في قسوته وبطشه برجال الدولة وقصة الجناح التي كانت ترين ساحة قصره فيراجع فيه المراكشي (ص ٥٠ و ٥١) . ويراجع أيضاً دوزي (ج ٣ ص ٤٣ و ٤٩) .

(١) كان مؤسس دولة بنى ذى النون في طليطة إسماعيل بن عبد الرحمن يلقب بالمظفر وأليس بالمظفر ؟ وكان بدء دولته فيها سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، وأبو النداء ٢ ص ١٤٧) .

إياه إلى الطاعة تحت ظل الحكومة المركزية ، ونصح إليه بأن يقنع بأعضائهم عن اغتصابه ، وكون بعض الزعماء الضعفاء يعترفون بطاعته . وأما هو فليس يدين بالطاعة لأحد سوى الله .

ولما رأى جمهور أنه لا يستطيع نظراً لضعفه أن يفرض طاعته على الأمراء الأقوياء بالسيف ، تذرّع بالروية والحزم وآثر أن يجرب قواه مع بعض الزعماء الأصاغر ؛ وكانت محاولته الأولى ضد صاحب السهلة الذى أبى أن يعترف بسلطان قرطبة ، فهاجمته قوة من الفرسان القرطبيين ، وأخضعت إمارته الضعيفة بسرعة ؛ وعندئذ استغاث الأمير المزعول وهو هذيل بن رزين بصاحب طليطلة ؛ وكان إسماعيل بن ذى النون ينظر بعين التوجس إلى كل توسع من جانب قرطبة ، فبادر بنوثة ابن رزين ، ولم يمض سوى قليل حتى استمدادت قواته السهلة ورُدّت لأمرها وأخذ يهدد قرطبة ذاتها .

وكانما كل شيء كان ينذر بسقوط قرطبة ، ففي نفس اللحظة التى كانت الحاجة فيها أشد ما تكون إلى حاكم قوى ، توفى الأمير النابه جمهور ، ذلك الذى نعته الشعب بأبى الوطن والمدافع عن الدولة (سنة ٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م) . ومن سوء الطالع أن ابنه الوليد محمد بن جمهور الذى خلفه فى الحكم ، لم يكن رجل هذا المآزق الصعب . أجل كان الوليد عاقلاً عادلاً ، ولكنه كان ضعيفاً مريضاً لا يقوى على أعباء الرياسة . وسرعان ما ظهر أن يديه الضعيفتين لم تكونا أهلاً لقبض على زمام الحكم فى تلك الآونة العصيبة ؛ ورأى محمد أن يجتنب حرباً غير مأمونة المواقب ، فعرض الصالح على صاحبي طليطلة والسهلة ، ولكنهما رفضا عرضه بإباء ، فاضطر عندئذ أن يخوض رغم إرادته حرب حياة أو موت .

وهكذا أثخنت مدى أعوام فى المنطقة الواقعة بين قرطبة وطليطلة حرب طاحنة ؛ وكانت الهزيمة ستندو فيما يظهر مصير ابن جمهور ، لو لم يقم فرديناند الأول ملك قشتالة وليون بغزو أراضى طليطلة غير مرة ، ورغم ابن ذى النون بذلك على عقد الهدنة مراراً مع قرطبة . فلما خضعت طليطلة لقشتالة والتزمت بأداء

الجزية ، واستطاعت بذلك أن تنعم السكينة وأن تعتمد على عون القشتاليين وقت الحاجة ، عادت إلى مجاربة قرطبة بنجاح ، سيما وقد حالفها على قتال قرطبة بنو عامر أصحاب بلنسية .

٤ — بنو عامر والتجيبيون وبنو هود في شرق اسبانيا

كان الشاطى* الأسباني من مصب نهر أيبرو (أبره) جنوباً حتى ثغر المرية على مقربة من الجزائر الشرقية (البليار) قد اقسمته دويلات عدة تجمعها جميعاً رابطة التحالف ، وتعرف برياسة أمير بلنسية أبو الحسن عبد العزيز المافري حفيد الحاجب المنصور محمد ابن أبي عامر ؛ ومع أن المنصور وأتباعه من بني عامر كانوا أول سبب في سقوط الدولة الأموية ، فإنهم انحازوا بعد ذلك منذ حروب الفتى خيران المامرى ضد الإدارة إلى جانب بني أمية . على أن الخليفة الإدريسي على بن حمود بعد هزيمته لخيران (سنة ١٠١٨ م) أقطع مع ذلك قريه الفتى زهير المامرى ولاية دائية . واستطاع زهير خلال الحرب الأهلية بمعاونة بعض الزعماء المامريين أن يستولى على ثغر المرية بسهولة ، وقد كان يحكمها يومئذ محمد بن القاسم القيروانى من قبل أمير إشبيلية ؛ وهكذا بسط زهير حكمه على جميع الشاطى* الممتد من مرسية إلى المرية وعلى الجزائر الشرقية . وكان يحكم دائية من قبله على بن مجاهد ، ويحكم ابن عمه أبو الجيش عبد الله ، وأحمد بن رشيق الجزائر الشرقية (البليار) وأبو بكر أحمد مرسية^(١) ، أما بلنسية فكانت مستقلة يحكمها أبو الحسن عبد العزيز حفيد المنصور (منذ سنة ١٠٢٢ م فيما يظهر) وكانت تربطه بزهير محالفة وثيقة ؛ فلما توفى زهير أو قتل في المرية بعد حكم طويل قام صديقه

(١) إن أول من استقل بدانية هو مجاهد المامرى الملقب بالوافى ، واستقل بها سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، وخلفه ولده على بن مجاهد الملقب بإقبال الدولة سنة ٤٣٦ هـ (١٠٥٤ م) . وأما عبد الله فكان على جزيرة ميورقة من قبل عمه مجاهد ؛ وأبو بكر صاحب مرسية هو أبو بكر أحمد بن طاهر (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥ وما بعدها) .

عبد العزيز الملقب بالنصور بالأمر من بعده ، وبسط حكمه على الثغور الممتدة من المربة حتى مصب أبرة (سنة ١٠٥١ م) . وكان من أتباعه أيضاً الزعيان المامريان لبون صاحب مريبطر ، ومبارك صاحب شاطبة^(١) . وكذلك وثقت أواصر التحالف بينه وبين التجيين أصحاب سرقسطة ، بواسطة التماهد والمصاهرة ، ثم أقطع النصور ولاية المربة لصهره وزوج ابنته معن أبي الأحوص ابن والي وشقة^(٢) .

ولا ريب أن سادة ولاية سرقسطة (الثغر الأعلى) كان مركزهم أشد حرجاً من مركز أي أمير آخر من أمراء اسبانيا المسلمة ؛ وكان يتبهم ولاية وشقة ولاردة وطرطوشة ، وهم من بني تميم ؛ وقد اختلف فيما إذا كان بنو هود أمراء سرقسطة ينتمون إلى فرع من بني تميم ، أم أنهم ينتمون إلى أصل آخر ، والأول هو الأرجح والأصح . كذلك اختلفت الرواية في شأن أمراء سرقسطة الأوائل . والمعروف أنه حينما اضطرت الحرب الأهلية التي انتهت بسقوط الدولة الأموية ، استطاع المنذر بن يحيى التجيبي أن يستقل بشؤون سرقسطة منذ سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م ثم أعلن نفسه أميراً عليها وتلقب بالنصور . والروايات القليلة التي انتهت إلينا عنه يناقض بعضها بعضاً . يده أنه يلوح لنا من المحقق ، أنه لا صحة للرواية العربية القائلة بأن حكمه قد امتد حتى سنة ١٠٣٩ م . وأن هشاماً الثالث آخر الخلفاء الأمويين قد لجأ إليه واستظل بضيافته ، وأنه قتل بيد بعض أقاربه أثناء رحلة له إلى غرناطة . ويبدو من الأصح أن موت المنذر كان في سنة ١٠٢٦ م على الأكثر ، وأن ولده يحيى الملقب بالظفر الذي لا تذكره معظم الروايات قد خلفه

(١) مريبطر هي بالأفريقية Murviedro وهي Sagunto الحديثة ، وقد كان صاحبها أبو عيسى بن لبون (ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٨٦) ، وتراجع أخبار مبارك المامري صاحب شاطبة في البيان المغرب ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) هو ذو الوزارتين أبو الأحوص معن بن محمد بن صاهد التجيبي صاحب المربة ولورقة وبياسة وجيان ، وكانت له ولابنه أبي يحيى بن معن الملقب بالمتصم بالمربة دولة زاهرة دامت زهاء نصف قرن ، واشتهرت بحماية الثمر والأدب (سنة ٤٣٣ — ٤٨٤ هـ) .

في الحكم ، ثم انتزى عليه سليمان بن أحمد بن هود والى لاردة ، فانزع سرقسطة ؛ وحكمها بنو هود من ذلك الحين . وعلى أى حال فلا بد أن يكون ذلك قد حدث قبل سنة ١٠٣١ م ، إذ تجمع الروايات الوثيقة على أن هشاماً الثالث قد لجأ في هذه السنة إلى سليمان بن هود أمير سرقسطة واستظل برعايته وحمايته^(١) . واتخذ سليمان لقب المستعين بالله ، ووطد دعائم استقلاله بقوة وشجاعة ضد النصارى والمسلمين على السواء . ورفض ما طلبه إليه جهور من الاعتراف برياسته ؛ واعترف ولاية وشقة وطرطوشة وغيرها من المدن القريبة من سرقسطة بسيادة بنى هود ، بعضها طوعاً والبعض الآخر كرهاً . وإذا كان التحالف وثيقاً بين التجيبين والماريين لما بينهما من صلة القرابة ، فقد كان بوسع سرقسطة التي عانت كثيراً من غزوات جيرانها النصارى ، أن تعتمد على معاونة بلنسية ، هذا إذا لم تنقذها الحروب الأهلية بين القطلونيين والقشتاليين والأرجونيين والنافاريين (البشكنس) . وفاضل ولد سليمان وخلفه أبو جعفر أحمد المقتدر (٤٣٧ هـ - ١٠٤٦ م) بمثل حزمه وشجاعته ؛ بيد أنه اضطر أخيراً لكي يتق غلبة البشكنس والأرجونيين والقطلونيين ، أن ينضوى تحت لواء فرديناند الأول ملك قشتالة ، وأن يؤدي له الجزية ، وأن يكفل بذلك معونته ضد جميع أعدائه .

(١) تختلف الرواية العربية في شأن منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة ، فالبعض يقول إنه حكمها حتى سنة ٤١٤ هـ ، وخلفه في حكمها ولده يحيى الملقب بالمظفر ، واستمر في حكمه حتى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) حيث انتزعها منه سليمان بن هود وقتله (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠) . ولكن البعض الآخر ينقل ذكر المظفر ويقول لنا إن منذراً استطال حكمه حتى سنة ٤٣٠ هـ ، وأنه قتل بيد رجل يدعى عبد الله بن حكيم غلب على سرقسطة حيناً ثم انتزعها منه سليمان بن هود سنة ٤٣١ هـ (البيان المغرب ٣ ص ١٧٨ و ١٧٩) . وأما ما يشير إليه المؤلف من التجاء هشام الثالث الأموى الملقب بالمتنشد إلى صاحب سرقسطة ، فقد حدث ذلك سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) حسبما يذكر المؤلف ، ولكن قبل تنلب ابن هود عليها ، وكان التجاؤه إلى منذر أو ولده المظفر .

الفصل الثالث

حروب الطوائف بمؤازرة النصارى

حتى افتتاح ألفونسو السادس لطليلة

(سنة ٤٣٣ - ٤٧٨ هـ) - (١٠٥١ - ١٠٨٥ م)

١ - تفوق أمير طليلة

هكذا كانت حال الدول الإسلامية في النصف الثاني من القرن الحادى عشر : كانت فيما بينها أشد خصومة وتطاحنًا من النصارى ، ولم تكن تتورع عن التحالف مع الدول النصرانية أو أن تستمد عونها نظير الجزية . وحتى صاحب أواسط اسبانيا الأمير القوى المأمون يحيى بن ذى النون الذى خلف أباه سنة ١٠٤٣ م ، لم يكتف باغتنام عون حليفه القوى عبد العزيز بن أبى عامر ، فعمد إلى استئجار الفرسان القشتاليين ليطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة . وقد كان سقوط ابن جهور محققاً لو أنه اجترأ على لقاء الحلفاء واتقاء العاصفة بمفرده ؛ ومن ثم فقد اضطر على مضض أن ينزل عن دعواه فى سيادة اسبانيا المسلمة كلها ، وأن يعترف باستقلال جيرانه وخصومه ، بنى عباد أصحاب إشبيلية ، وبنى الأفطس أصحاب بطليوس ، وأن يدعوهم إلى معاونته ضد طليلة ، التى كانت تهددهم جميعاً بالويل . ومع أن المعتضد بن عباد كان يشترك يومئذ مع الإدارة فى معارك شديدة فانه بادر مع ذلك إلى قبول التحالف المرغوب ، إذ رأى فيه وسيلة طيبة لتوسيع سلطانه . أما أمير بطليوس فقد كان أقل أثره وهوى . ذلك أنه ما كاد ابن جهور

يعترف بسيادته على « الغرب »^(١) حتى يادر بوضع قواته رهن تصرفه .
وقد أثار هذا الحلف الذى عقد بين أمراء جنوب غربي اسبانيا الثلاثة (سنة ١٠٥١م) بالأندلس حرباً عظيمة ، كان من نتائجها أن زاد سلطان بنى عباد ووجهتهم زيادة كبيرة . وأراد الأمراء الأصغر ، أصحاب لبله وولبة وجزيرة شلطيـش واكسونه ، الانضمام إلى هذا الحلف ؛ ولكن ابن عباد عارض فى قبولهم كخلفاء مستقلين ، فى حين أنهم يستظلون بسيادته . بيد أنهم عقدوا مع ذلك فيما بينهم تحالفاً وثيقاً ، وفوضوا عبد العزيز اليحصبي صاحب لبله (الذى خلف أحمد منذ سنة ١٠٤٢)^(٢) فى أن يعقد باسمهم محالفة خاصة مع قرطبة ، يتعهد الجميع بمقتضاها أن يتعاونوا فى الدفاع عن أنفسهم . وتطبيقاً لهذا التحالف سار الجميع فى قواتهم إلى قرطبة لإنجادهـا . وعندئذ عمد ابن عباد إلى انتهاز هذه الفرصة ، فاكفى بأن أرسل إلى محمد بن جهور خـمسة فارس ، وزحف فى جيش قوى على لبله وولبة وجزيرة شلطيـش واكسونه ، واستولى عليها ؛ ولأذ أمراءها بالفرار اتقاء الأسر أو الموت ، وأسلمها ابن عباد إلى أسـر الأمراء الفارين ، على ألا تعتبر هذه المنحة ذات صفة شخصية ، بل تعتبر مقابل خدماتهم ، فلا تكون الجزية وراثية ، وإنما يزاول بمقتضاها حقه فى السيادة باختيار خلفائهم . ومن ثم فقد عهد ابن عباد إلى والى لبله الجديد عبد الله بن عبد العزيز ، بالقيام بمحاربة قرمونة ، فخارجها وافتتحها سنة ١٠٥٣ كما قدمنا .

أما الحرب بين طليطلة وقرطبة ، فقد لبثت بضعة أعوام تتخللها مبارك مضطرة تدور سجالات بين الفريقين . بيد أنها استتحات فى النهاية بالنسبة لمحمد ابن جهور إلى وجهة محزنة . ذلك أن المأمون صاحب طليطلة ، بعد أن اجتمع

(١) ولاية الغرب Algarve أو غرب الأندلس .

(٢) فى إيراد ولاية لبله على هذا النحو خطأ أو تحريف . ذلك أن أول ولايتها المستأين هو أحمد بن يحيى اليحصبي الملقب بتاج الدين ، وخلفه فى الحكم أخوه محمد بن يحيى اليحصبي (سنة ١٠٤١م) وتلقب بمز الدين ، ولا يوجد بين ولاية لبله من بنى يحيى من اسمه عبد العزيز .

لديه من جراء تحالفه مع بلنسية والسهلة وقشتالة ، كثير من الجند المرتقة ، سار إلى لقاء أعدائه في معركة حاسمة ، واستطاع أن يوقع بقوات قرطبة وبطلبوس وإشبيلية المتحدة هزيمة شديدة . ثم ظهر بجيشه الظافر أمام أسوار عاصمة الأندلس القديمة ، وضرب في الحال حولها الحصار . ولم يك ثمة سبيل لإيقاد قرطبة إلا أن تبادر إشبيلية إلى إغاثتها ، فبعث محمد ابنه عبد الملك إلى أشبيلية ليطلب حليفه ابن عباد ، بأن يبعث إليه المدد على جناح السرعة ، لكي يرغم المأمون على رفع الحصار ؛ فتردد ابن عباد في البداية ، ولكنه لما رأى قرطبة قد أشرفت على السقوط بعث لإنجادها جيشاً قوياً تحت إمرة ابنه محمد وإمرة قائده ابن عمر (ابن عمار)^(١) وزودها بمخطة وأوامر سرية خاصة ، فهوجم الجيش المحاصر واضطر إلى رفع الحصار بعد معركة دموية ، ثم ارتد أدراجة مسرعاً ، وخرج القرطبيون فطاردوا أعداءهم وأتموا بذلك هزيمة الطليطيين .

وهنا رأى قائد الأشبيليين (ابن عمار) الفرصة سانحة لتنفيذ خطة سيده السرية ، فبينما كان جيش قرطبة لا يزال مشغولاً بمطاردة العدو بإمرة عبد الملك ابن جهور ، سار ابن عمار إلى المدينة ، ولم يظن إنسان بالخلفاء سوءاً ، ودخلها دون معارضة واحتل مراكزها الحصينة ، قبل أن يفتن القرطبيون إلى أن

(١) يتحدث المؤلف في غير موضع عن « ابن عمر » Ibn Omar قائد المعتد بن عباد أو بمعونه . وقد استطعنا أن نقطع في الحال بأن إيراد الاسم على هذه الصورة به تحريف ، وأنه يجب أن ينصرف إلى ابن عمار وزير المعتد ؛ وهو أبو بكر محمد بن عمار الشاعر الأشهر وكان من رجال الأندلس ومن أوفرهم ذكاء وبراعة ودهاء . ووزر للمعتد ، وتولى نصريف مهامه السياسية ، وكان يرافق حملاته ويسهر على نجاحها بحسن تديره . وما زال يخدم المعتد حتى سقط عليه لأمر بدرت منه واعتقله ثم قتله (سنة ٤٧٩ هـ — ١٠٨٦ م) . وقد كان فيما يظهر مرافقاً لجملة ابن عباد التي أوفدها لنجدة قرطبة ليشرع على تنفيذ أوامره السرية في انتزاعها بعدئذ من بني جهور . ولم يكن قائداً لأنه ليس من رجال الحرب ، وكان يقود هذه الجملة خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين (البيان المغرب ٣ ص ٢٦٠ ، ودوزي ٣ ص ٩٧ و ٩٨) . وكذلك كان شأن ابن عمار في مرافقته حملات ابن عباد الأخرى إلى شرق الأندلس كما سيبيء ، فقد كان يتولى فيها ناحية الإشراف والتوجيه عند المأزق . ويشير المؤلف إلى « ابن عمر » في عدة مواضع ، وقد صححناها في سياق الكلام . (راجع في حياة ابن عمار وشمرة ثلاثه الفتيان ص ٨٣ وما بعدها ، والمراكشي ص ٤٩ وما بعدها) .

أصدقاءهم قد انقلبوا عليهم . وكان الأمير محمد بن جهور مرابطاً طريح الفراش ، فوق أسيرا في يد أعدائه ، ولم يمش بعد هذه الحياة المروعة سوى أيام قلائل . ولم يكن مصير ابنه عبد الملك بأفضل من مصيره ، فقد عاد من مطاردة الطليطالين إلى قرطبة ، فألقى أبوابها منغلقة دونه . ولما طُلب إليه التسليم أدرك في الحال ما ارتكبه الحلفاء الغادرون من خيانة أثيمة . واستشاط سخطا ووجدا ، فألقى بنفسه أمام قوة كبيرة تحديق به من كل صوب . ولبث يقاتل قتال المنتقم اليائس حتى أنحن جراحا ، وسقط من فوق جواده مغشيا عليه ، ثم توفى في الأسر بعد ذلك بأيام وهو يصب اللعنات على ابن عباد وعلى أهل قرطبة الذين استقبلوا الخونة طائمين (سنة ٤٥٢ هـ — ١٠٦٠ م) ، وهكذا انهارت دولة بني جهور في قرطبة ، ولما يمحض على قيامها ثلاثون عاما في محنة محزنة حقا ، وهي محنة افتدى بها الأولاد الأبرياء خيانة أبيهم جهور للخليفة هشام الثالث (المعتمد بالله) .

وعندئذ غدا أمير إشبيلية أقوى أمراء إسبانيا المسلمة ، وعمد ابن عباد إلى استرضاء زعماء الأراضى المفتوحة بجليل الصلات ، وإلى اجتذاب الشعب بمختلف المآدب والحفلات ومصارعة الوحوش . وسرعان ما نسى الناس حكم بني جهور الصالح . بيد أنه كان ثمة شخص يتوق إلى الانتقام ، هو الحارث بن الحكم قائد الجيش القرطبي . وكان قد انسحب مع فرسانه إلى مدينة الزهراء مقام الحلفاء الأمويين السالف ، فلما وقف على مصرع بني جهور غادر ظاهر قرطبة وسار إلى المأمون صاحب طليطلة ، خصيمه الذي طالما حارب من قبل ، وعرض عليه خدماته ضد العدو المشترك ، فاستقبله المأمون مفتبطا ، وأخذ الاثنان بعد الخصومة . وأخذا يدبران معاً هلاك عدوهما الظافر .

وكان المأمون يرى جزعا قوة صاحب إشبيلية في ازدياد مستمر . ذلك أن حروبه مع الإدارة كانت تكلل بالظفر المستمر . وقد انضم إليه . معظم الزعماء العاصرين أمراء قسطلون ومريطر (مرفيدور) وشاطبة والمرية ودانية . ولما فرغ المأمون من أهبطه الحريصة دعا صهره (زوج ابنته) عبد الملك المظفر ، الذي

خلف أباه عبد العزيز في حكم بلنسية (٤٥٢ هـ - ١٠٦٠ م) إلى معاونته بالجند . ولكن عبد الملك اعتذر عن إجابته لزولا على نصيح وزيره محمد بن مروان ، واحتج بأن وقوف معظم المأمريين إلى جانب إشبيلية ، يجعل إقدامه على هذه المعاونة خطراً على بلنسية ، فلما وقف المأمون على جواب صهره ، وخشى من جهة أخرى أن ينضم إلى ابن عباد جهاز جيشه سرا ، وعقد تحالفاً مع الملك فرديناند الأول صاحب السيادة عليه . وانقضت القوات المتحدة بسرعة البرق على بلنسية ، ولم يستطع البلنسيون مقاومة للفرسان القشتاليين ذوى الدروع الحديدية ، وسقطت ولاية بلنسية كلها في يد المأمون (اكتوبر سنة ١٠٦٥) ولم ينقذ حياة عبد الملك سوى تدخل زوجته ابنة المأمون فأبقى المأمون عليه . وأقطعه حكم « شلبة » (١) : وأما صاحب النصيح المشئوم الوزير ابن مروان فقد أثر الانتحار حتى لا يشهد بحنة سيده ، التي يحمل بمض تبعها . وبعد أن نظم المأمون حكومة بلنسية وعين إليها ، عاد إلى طليطلة وقد ضم قوات بلنسية إلى قواته استعداداً لمحاربة ابن عباد . ولكن حالت دون إتمام أهبة بعض الشؤون . ذلك أن الملك فرديناند الأول صاحب قشتالة الذي كانت واقعة بلنسية آخر غزواته المظفرة توفي بعد ذلك بأشهر قلائل . وثار من جراء تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ، حروب شديدة ، وانهز المأمون من جانبه فرصة اضطراب المملكة النصرانية ، فنكل عن أداء الجزية التي تعهد بها للملك قشتالة ، وأدى ذلك في الوقت نفسه إلى حرمانه من معاونة النصارى ، وهى معاونة لم يكن يستطيع دونها لقاء أمير إشبيلية ، فلما تم الأمر لسانشو (سانجه) واستولى على مملكة أبيه كلها (سنة ١٠٧٠م) فرأخواه إلى الأمراء المسلمين ، والتجأ أحدهما

(١) تسمى الروايات العربية هذه الواقعة التي ترتب عليها سقوط بلنسية بواقعة بطرنة Paterna . وقد اختلف في مصير عبد الملك المظفر بعد سقوط عاصمته ، والمعول عليه أن صهره المأمون اعتقله في قرية شنت بريه من أعمال طليطلة وقتله ، أو في قلعة ترفقة من أعمال بلنسية ، أو في قلعة أقليمش ، (راجع البيان المغرب ٣ ص ٢٥٢ و ٢٦٧ و ٣٠٣ ، ودوزى ٣ ص ٧٩ والمراجع) . أما رواية المؤلف فقد نقلها عن كوندى وهى رواية ضعيفة . وأما مدينة شلبة Xelba أو Chelva الحديثة ، فهى مدينة صغيرة تقع شمال غربي بلنسية ، بوى غير مدينة شلب في غرب الأندلس .

وهو جارسيا (غرسية) ملك جليقية إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والتجأ الثاني وهو ألفونسو (ادفنش) ملك ليون إلى المأمون صاحب طليطلة .

وكان المعتمد بن عباد أمير إشبيلية قد توفى أثناء ذلك (سنة ١٠٦١ هـ — مارس سنة ١٠٦٩م) توفى في السابعة والخمسين من عمره بعد حكم زاهر دام سبعة وعشرين عاما . ويقال إن حزنه العميق على وفاة ابنته الحسنة طاهرة قد عجل بموته ؛ فخلفه في حكم إشبيلية وقرطبة وقرمونة ولده الشجاع محمد الملقب بالمعتمد على الله . وكان فارسا ذا بأس (وكان يرندى في الحرب درعا من اللازورد الأزرق مرصعا بنجوم من الذهب تحيط بهلال مذهب) ، وقد حالفه حسن الطالع في حروبه مع الإدارة وحلفائهم ؛ وفي حفل ييمته تسمى بالمظفر والمؤيد بالله مضافة إلى لقبه^(١) .

وكان المعتمد بن عباد كأبيه المعتمد يتمتع بخلال باهرة ؛ بيد أنه كان مثله يجيش بأهواء وضيمة . وكان يفتنم بذكائه وشجاعته وجوده تقدير الشعب وثقته . وكانت جهوده في سبيل تمويض الدين نكبتهم قسوة أبيه ؛ تحيط حكمه بحب الأكار والأصاغر على السواء . بيد أنه كان مثل أبيه في نظر الفقهاء مستهترا بالدين ، يستبيح شرب الخمر ويبيعه للجنود في الميدان ، وكان شاعرا طائر الصيت يندق عطفه ورعايته على العلماء ، وينافس في ذلك صديقه معز الدولة صاحب المريّة .

ولما تولى المعتمد حكم إشبيلية ، كانت بقية الدول الإسلامية الأخرى بالجزيرة قد حطمتها الحروب الداخلية أو غزوات النصارى ، فلم يكن أمام المعتمد من يخشاه إذا استثنينا أمير طليطلة الذي كان يحكم بلنسية في نفس الوقت ، وكان تفوق هذين الأميرين على باقي الأمراء عظيما جدا حتى إنهما استطاعا أن يرغما باقي الأمراء على الوقوف إلى جانب أحدهما أو الآخر . ولما رأى المأمون أن إشبيلية مشغولة بحروبها المستمرة مع الإدارة ، وأن بني الألفونس يقتتلون فيما بينهم بزعامة يحيى النصور وخصيمه عمر التوكل على الحكم عقب وفاة محمد بن عبد الله

(١) تلب أبو القاسم محمد بن عباد بالمعتمد على الله ، والظاهر يقول الله ، (الراكشي ص ٥٤) .

المظفر ، وأن بني هود والتجيبين في ولاية سرقسطة يشبكون مع جيرانهم النصارى في معارك دموية مستمرة ، رأى الفرسة سانحة للعمل ، والانتقاض على العاصرين أصحاب تدمير ومرسية حلفاء إشبيلية وانتزاع تلك الأراضي منهم ، بحجة أنه وهو أمير بلنسية صاحب السيادة عليها .

وما كاد المتمد يقف على فعلة المأمون حتى أرسل قائده الشجاع ابن عمار وأبا بكر بن عمرو والى تدمير وأحمد بن طاهر والى مرسية على رأس قوة من الفرسان لإنجاد مرسية . ولما كانت هذه القوة أضف بكثير من القوة التي بها المأمون ، فقد جمع زعماء مرسية مبلغ عشرة آلاف من الذهب استأجر بها ابن عمار مددا من الكونت ريموند برنجار أمير برشلونة ، وبعد أن تبادل الفريقان المهود والرهائن سار ريموند على رأس قوة مختارة من الفرسان مخترقا بلنسية إلى مرسية ، وهناك انضم إلى جيش إشبيلية الصغير ؛ ولكنه ما كاد يقترب من مرسية حتى تولته الدهشة واعتقد أنه قد غدر به ، إذ رأى حول المدينة عدة آلاف من الطليطلين يحاصرونها ؛ وعندئذ صرح بأنه من العبث الخطير أن يهاجم بتلك القوات الصغيرة جيشا يضم قوات طليطلة وبلنسية وقونفة ودانية ومريطار وشاطبة وشنتمرية والسهلة ، وتعاونه فرقة كبيرة من المرتزقة من قشتالة وجليقية ، وأعلن انسحابه في الحال ، وأنه لا يستطيع الانتظار حتى يأتي المدد من إشبيلية . ولكن الجبن نصف الهزيمة ؛ وقبل أن يتمكن القطلونيون من الانسحاب اضطروا إلى خوض المعركة مع جنود المأمون (١٠٧٣م) وأصيبوا مع حلفائهم الأشبيليين بهزيمة شنيعة ولذا المهزومون بالفرار في مختلف الأنحاء ، وحصل المأمون بهذا النصر الباهر على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى ، ونادى بنفسه في الحال أميرا عليها . وبذا أصبح هذا الأمير القوى يسيطر على أواسط اسبانيا كلها وهو ما يعادل نحو ثلث أراضيها .

وفي ذلك الحين أيضا انتهت الحرب الأهلية التي نشبت في اسبانيا النصرانية عقب وفاة سانشو ملك قشتالة ، وأمر أخيه جارسيا ملك جليقية على يد الملك

ألفونسو السادس ؛ ولم ينس ألفونسو أنه لقي أثناء محنته من أمير طليطلة كل حماية ورعاية ، فمقدت عندئذ بين ألفونسو السادس والمأمون محالفة بتبادل المعونة والدفاع ، وتماهد الأميران على أن يرتبطا معاً برباط الصداقة الوثيق .
وبدا عندئذ هالك صاحب إشبيلية ألد أعداء طليطلة ، أصرأ لا مناص منه .
ورأى المأمون ألا يترك لابن عباد فرصة لكي يقوى نفسه بالتجالف مع بني هود أصحاب سرقسطة ، وبني الأفطس أصحاب بطليوس ، وأن يقضى نهائياً على الإدارة حسبما كان يمتزم ، فبادر بمهاجمة خصمه من ثلاث جهات ، لكي يحكم تسديد الضربة إلى قرطبة . وبينما زحف القائد ابن لبون صاحب مرسية ظافرأ صوب جيان ، وسار جيش آخر إلى حدود سرقسطة ليرقب حركات ابن هود ، وتظاهر الجيشان كل بأن الحرب واقعة في الناحية التي قصدها ، إذ هاجم الفرسان الطليطيون بقيادة الحارث بن الحكم والمرزقة القشتاليون قرطبة على غرة ، فغسقت في أيديهم دون مقاومة . ولكن نشبت بين الفريقين في الزهراء في ظاهر قرطبة معركة دموية . ودافع حرس ابن عباد ، وهم من المغاربة بقيادة ابنه سراج الدولة عن القصور الملكية دفاعاً شديداً ، حتى أئخن قائدهم الشجاع جراحاً وأسلم الروح . وأمر الحارث أن يرفع رأس الأمير القتيل على رمح ، وأن يطاف به في شوارع قرطبة ، وأن ينلدى : هذا انتقام الله ، ويا لروعة انتقامه ، لقتل الأمير عبد الملك بن جهور .

وسرعان ما زحف معظم جيش طليطلة على إشبيلية ، ولم يكن بها يومئذ سوى قوة يسيرة ، لأن المتمد كان قد سار في معظم قواته إلى مالقة لافتحها من يد الأدارسة . وتوج زحف المأمون السريع بالظفر التام ، فافتحم إشبيلية (٤٦٨ هـ ١٠٧٥ م) ، ولم يلق معارضة إلا أمام القصر ؛ ودافع عنه الحرس دفاعاً قويا ، حتى سحق ومزق أمام الكثرة النالية ، واحتوى أمير طليطلة الظافر على جميع أموال بني عباد ، وفرقها بين جنده جزاء شجاعتهم وهمتهم ، ولكنه حرص على ألا يس نساء المتمد بسوء (١).

(١) إن هذه الواقعة ، أى واقعة استيلاء المأمون بن ذى النون على إشبيلية ووقاته =

بيد أن المأمون ارتكب خطأ فادحاً ، إذ لم يتم الحرب كلها بسرعة . ذلك أنه بدلا من أن يسمى بعد فتح المدينتين تَوْأً إلى لقاء ابن عباد في ميدان الحرب ، لبث في إشبيلية ستة أشهر دون عمل . وفي أثناءها استطاع المتمد أن يختم حربه مع الأدارسة بالظفر التام ، إذ استولى على الجزيرة وعلى مالقة ذاتها ، وقضى بذلك على سلطان الأدارسة في الأندلس ، واستطاع أيضاً أن ينتزع بعض البقاع من عبد الله بن بلكين بن باديس صاحب غرناطة . وفي الوقت نفسه كان المقتدر بن عموذ صاحب مرقطة وحليف ابن عباد يقاتل جند المأمون بتجاح ، ويهدد بلنسية ؛ ومن ثم فإن المتمد لبث قوى الأمل . ومع أن عاصمته قد سقطتا في يد أعدائه ، فإنه لم يخالجه شك في أنه مستعيدهما . وما كاد ينتهي من حرب الأدارسة ، حتى سار في معظم قواته ليسترد عاصمته ، ولم يك ثمة شك في أن سكانها المخلصين له سيشدون أزره ؛ ولذا ما كاد يضع الحصار حول إشبيلية حتى بدأ يخالفه حسن الطالع . ذلك أن المأمون بن ذى النون توفي لمرضه وهرمه في شهر ذى الحجة سنة ٤٦٨ (يونيه ١٠٧٦ م) ، وتوفي قبله ابنه هشام نائبه في الحكم وولى عهده ؛ وعهد المأمون قبل وفاته بالحكم إلى ابنه الثاني يحيى الملقب بالقادر بالله الذى يصقه البمض بأنه حفيده^(١) . ولما كان يحيى لا يزال حدثاً ، فقد عين للرعاية عليه حتى يبلغ الرشد ، بعض الولاة ، والحارث بن الحكم ، والملك ألفونسو

== بها ، ثم استرداد المتمد لها ، وما يتعلق بذلك من التفاصيل التى يوردها المؤلف فى هذا المقام قد اشتقت جميعها من كوندى ومصادر أفرنجية أخرى . وهى رواية لا سند لها ولا تشير إليها المصادر الإسلامية بكلمة . والظاهر أن الأمر يتعلق هنا بخلط بين هذه الواقعة الزعومة وبين واقعة حقيقية أخرى ، وهى استيلاء المأمون على قرطبة ووفاته بها ثم استرداد ابن عباد لها . وهذه هى الواقعة التى تؤيدها المصادر الإسلامية ، فقد استولى المأمون على قرطبة سنة ٤٦٨ هـ بمساعدة مفامر ومتآمر يدعى جرير بن عكاشة ، ثم توفى بها بعد دخولها بأيام قلائل ، وقيل إنه توفى مسموماً . فارتد جنده عنها إلى طليطلة ، وعاد ابن عباد فاسترد قرطبة وانتقم من قتلة ولده . ولم يخرج إشبيلية من قبضة بنى عباد قط حتى استولى عليها المرابطون سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، (راجع ابن الأثير ج ٩ ص ٩٩ ، وابن خلدون ٤ ص ١٥٩ و ١٦١ ، والمراسكى ص ٤٥ وما بعدها ، وراجع أيضاً دوزى ٣ ص ١٠٠ و ١٠١) .

(١) هو يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذى النون ، وهو فعلاً حفيد يحيى المأمون ، (ابن خلدون ٤ ص ١٦١) .

السادس ؛ وكان المأمون يثق بالفونسو ثقة خاصة ، ويعتبره أعز أصدقائه ، وأعظم عضد طليطة ، ولم يخطر بباله أنه سيجنح بمد ذلك إلى نقيض ما كان يؤمل . وكان موت المأمون إيذاناً بأفول طالع بنى ذى النون . وكانت طليطة إبان حياته أعظم دول أسبانيا المسلمة ، وكانت مبعث البذخ والبهاء . وقد اشتهر المأمون بالأخص بما شاده من الأبنية الشاخة التى انتهى إلينا عن بنائها كثير من القصص المفرق ، ومنها ما حكى أنه ابتنى قى نهر تاجه قصر آيستطيع الجالس فيه أن يرى من عروشه البلورية الأسماك تشق النهر .

٢ — تفوق أمير إشبيلية

لم يستطع جند المأمون أن يصبروا طويلا على المقاومة بالرغم من أن موت أميرهم قد أخفى عنهم مدى حين ، وبالرغم مما أبدى قادتهم من الشجاعة والبراعة فى رد هجمات المعتد ؛ ومن ثم فقد آثروا ترك المدينة بمد إذ رأوا ما يجب لإخضاع أهلها من كبير جهد ؛ واستطاعت قوى الفرسان الكثيفة أن تشق لجند طليطة بين الجيش المحاصر طريقا ؛ وأن تمكنه من الوصول إلى قرطبة دون خسارة كبيرة . بيد أن عود الجند القشتاليين إلى أوطانهم نظراً لاقتراب الشتاء ، وظهور بعض القلاقل فى المناطق التى افتتحتها طليطة ، حملا قادة القادر على مواصلة السير . وبقى الحارث بن الحكم فى قرطبة والياً لها ، وهو يعنى نفسه أن يستقل بحكمها بالرغم من قلة جنده .

ولكن لم تتح له فرصة لتحقيق أطباعه ؛ ذلك أن المعتد الذى حالفه التوفيق فى حصار إشبيلية بادر بالاستفادة من ظفـره ، فظهر أمام أسوار قرطبة قبل أن يعلم أحد بمناذرتة لأشبيلية . وفى الحال أدرك الحارث أسفاً أن أهل قرطبة يؤثرون أمير إشبيلية على حكمه وحكم القادر . ورأى الخيانة والفدر من أولئك الذين كان يعتبرهم أنصاره ، فلاذ بالفرار صوب طليطة . ولكنه فر متأخراً ؛ وما كاد المعتد يدخل قرطبة على رأس جيشه فى موكب رائع ، حتى انقلب إلى دته مطار فى سرية من الفرسان وأدركه غير بعيد . ثم طمنه بحربته فى ظهره طمنة

مطار دته

نفذت إلى صدره ، وذلك انتقاماً لموت ابنه سراج الدولة . وعلفت جثته فوق سارية على قنطرة قرطبة وشنق إلى جانبه كلب مبالغة في الإهانة . وترك الحارث ولداً هو أحمد عينه القادر والياً لقلعة رباح^(١) .

وهكذا غادر طليطلة حسن طالعتها وتحول عنها إلى أمير إشبيلية . ولم يكف ابن عباد باستعادة المدن والأراضي التي فقدتها ، بل عمده فوق ذلك إلى انتزاع مرسية وبلنسية من القادر . ذلك أنه بعث وزيره الماكر ابن عمار إلى تلك المنطقة ليعمل على إثارة العاصرين على بني ذى النون ؛ وسرعان ما رفع عبد الملك بن عبد العزيز صاحب شلبه ، وأمير بلنسية السابق علم الثورة^(٢) ، واستطاع أن يسترد بلنسية وسيادته القديمة عليها بلا صعوبة . ولما توفي بعد ذلك بقليل (سنة ١٠٧٠ هـ - ١٠٧٨ م) خلفه في حكمها ولده أبو بكر . ولكنه كان في الواقع أكثر خضوعاً لابن عباد منه كأمر مستقل . غير أن ابن عمار لم يستطع أن يكسب عبد الرحمن بن طاهر وإلى مرسية بمثل هذه السهولة ، وكان حليفاً مخلصاً لبني ذى النون ، فاضطر أن يضرب الحصار حول المدينة مدى حين حتى نفذت أقواتها واضطر ابن طاهر إلى التسليم (سنة ١٠٧٩ م) . ورأى ابن عباد أن يماجه على مقاومته فنزع منه ولاية المدينة وأعطاه لابن عمار جزاء له على جهوده الموفقة في خدمته .

ولكن المعتمد لم يكن ليطمئن إلى هذا الظفر كله مادام في وسع القادر صاحب طليطلة أن يعتمد على معاونة ملك قشتالة . وكان يرى أنه لا بد من إبعاد هذا الحليف القوي عن بني ذى النون ، مهما كلفه ذلك من عظيم التضحية ، إذا أراد أن يقيم سيادة إسبانيا المسلمة كلها ؛ ولو أنه استطاع أن يظفر بصداقة ألفونسو السادس وعمل ألفونسو من جانبه على تهديد طليطلة وشغلها ، لكان من الحق

(١) تراجع المامش السابق ، ويورد دوزى واقعة مطاردة ابن عباد للحارث وقتله والتبيل بجثته مندوبة لابن عكاشة ، فهو الذى طورد وقتل ومثل بجثته وهو الأرجح (ج ٣ ص ١٠١) .
(٢) أشرنا في هامش سابق إلى اختلاف الرواية في مصير عبد الملك المنصور صاحب بلنسية بعد سقوطها في يد الأمازيغ والى أن شلبه المقصودة هنا هي غير مدينة شلب في غرب الأندلس .

أن تنتصر جيوشه المظفرة على الإماراتين الباقيتين ، وهما إمارة بنى باديس فى غرناطة وإمارة بنى الأنطس فى بطليوس . ثم إن بنى هود فى سرقسطة لابد أن يخضعوا لسلطانهم ، نظراً لأن الأعداء المجاورين يحدقون بهم من كل صوب ؛ وكان المقتدر ابن هود يحكم سرقسطة منذ سنة ١٠٤٦م ولم يتح له إنقاذ ملكه من أطاع راميرو الأول وسانشو الأول ملكى أراجون إلا بمعاونة المرتقة القشتاليين سنة (١٠٦٣م) ثم بالتحالف مع البشكنس (نافار) . بيد أنه خسر كل ما غنمه من الزبايا فى معارك استمرت أعواماً . ذلك أن سانشو الأول ملك أراجون ضم معظم نافار إلى مملكته وأخذ يهاجم أراضى سرقسطة بقوة كبيرة ويستولى على قلاع الحدود واحدة بعد أخرى .

ومن ثم كانت الظروف كلها مواتية لأطاع أمير إشبيلية . بيد أنه أدرك أنه لابد أن يبادر إلى عقد التحالف مع ملك قشتالة قبل أن يسبقه إليه أمير آخر . ومع أنه توقعاً لأسوأ النتائج ، وهى أن يأبى ألفونسو أن يترك حلفه القديم مع بنى ذى النون ، قد جدد علائق الصداقة مع أمير برشلونة على يد ابن عمار والى مرسية ، وعرض أموالاً كثيرة لاستئجار الجند المرتقة ، فإنه رأى من الأصلىح والأوفى لخطته ، أن يسمى بكل ما وسع إلى صداقة ملك قشتالة وليون ، إذ هى أدعى إلى النجاح بلا ريب . فبعث مفاوضه البارع ابن عمار إلى ليون وكانت يومئذ مقر ملك قشتالة ، وفاز ابن عمار بأن يعقد بين ألفونسو وبين سيده معاهدة يتعهد بها ملك قشتالة أن يماون أمير إشبيلية بالجند المرتقة ضد جميع أعدائه المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة مقادير كبيرة من المال . ويتعهد بالأخص بما هو أهم ، وهو ألا يعترض مشروع ألفونسو فى افتتاح طليطلة . وهكذا ضحى المعتمد بمعقل إسبانيا المسلمة ، لكي يفوز بيسط سيادته على الإمارات التى لم تخضع له بعد وهى إمارات غرناطة و بطليوس وسرقسطة .

وذهب ألفونسو السادس ابن عمار منظم هذه المعاهدة خاتمين ثمينين جزاء جهوده . ومع أنه لا صحة لما يروى من أن ملك قشتالة تزوج فى هذه المناسبة

بسيطة ابنة المعتمد توثيقاً للتحالف ، فإنه من المرجح أن ألفونسو استطاع على أثر هذه المحالفة أو في مخالفة تالية (سنة ١٠٩١ م) أن يضمها إلى زوجه كخطية له ، وهو تشبه بالتقاليد الإسلامية كان ذاتها بين أمراء أسبانيا النصرانية ، بالرغم مما كانت تثيره الكنيسة ضده من شدد الاحتجاج (١) .

٣ — افتتاح ألفونسو السادس لطليطلة

وفي سنة ١٠٧٩ م أعلن ألفونسو الحرب على طليطلة اعتماداً على المعاهدة الموقعة ، وذلك بالرغم من أنه لقي في طليطلة من قبل ملاذاً وحماية من مطاردة أخيه سانشو وبالرغم من أنه لبث إلى تلك الآونة يرتبط ببني ذي النون بروابط الصداقة ، وقد أقسم أن يعاون ولد المحسن إليه على الاحتفاظ بأملكه . نسي الأمير الظمى إلى الفتح كل ما يفرضه العرفان والصداقة ، وتفرضه العهد ، واستعان بمعرفة لنواحي طليطلة أيام إقامته منفياً بها ، على القدر بأولئك الذين أولوه حمايتهم ورعايتهم ؛ وقد شعر المؤرخون النصارى بلا ريب بفداحة هذا العدوان ، فلم يذكروا شيئاً عن التحالف بين ألفونسو وأمير إشبيلية والزموا القموض في رواية الحادث حتى لا تبدو شناعته .

وكان الأمير القادر بالله قبل أن يبدأ ألفونسو محاربة طليطلة ، قد اضطر إلى مغادرة المدينة فراراً من عواقب ثورة قامت بها ، ومن المرجح جداً أن زعماء الثورة استدعوه حينئذ بدأ ملك قشتالة غزوته لأراضى طليطلة .

(١) استقى المؤلف هذه الرواية من بعض المصادر اللاتينية والنصرانية حسب ما بين في منبغاته (ج ١ ص ٢٨١) وترد فيها اسم ابنة المعتمد هكذا Zaida أو Ceida . وهي رواية تحمل سبباً الإغراق والبطان . وإذا لم يكن من المقول أن يرضى أمير مسلم عظيم كالمستد ابن عباد أن يزوج ابنته من أمير نصراني ، فإنه مما لا يقبله العقل مطلقاً أن يرتضى أن تكون ابنته خليفة غير شرعية لمثل هذا الأمير ؛ وإذا لم يكن ابن عباد يقيم في مثل هذا التصرف الدائن وزناً للاعتبارات الدينية والشرعية ، وهو في ذاته مما لا يقبل ، فن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لتأنيجه السياسية ، وأقلها أن يضطرم شعبه المسلم بالثورة عليه وأن يسحقه ويسجن أسرته .

وفي ذلك الحين كان أمير إشبيلية قد سار في جيشه إلى غرناطة ليخضع أميرها عبد الله بن بلسكين بن باديس إلى سلطانه ؛ وكان المقتدر بن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتد عليه يوماً فيوماً من سانشو الأول (سانجه) ملك أراجون ، خصوصاً بعد أن سقطت في يده قلاع الحدود بوليه وجرادوس وبترايادا وأرجويداس وموزون ، واحدة بعد الأخرى ، ومن ثم فإنه لم يستطع إنجاد طليطلة من بين الأمراء المسلمين سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالنصور ، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو ؛ وكان ألفونسو قد أثنى عندئذ في ولاية طليطلة حتى صيرها قفراً بلقماً ، ولم يكن يفي بهذا الميث والتخريب ، سوى تجريد القلاع من كل وسيلة للحصول على القوات . ومن ثم فإنه لما شعر باقتراب النصور ، ارتد أدراجه ، فعاد النصور عندئذ بجيشه إلى حيث أتى ؛ ولم يمض سوى قليل حتى توفي مبكياً عليه من شغبه (٤٧٣ هـ — ١٠٨٢ م)^(١) خلفه أخوه أبو محمد عمر بن محمد المتوكل ، وكان والياً ليابرة (إفور) وجعل ولده الفضل والياً على ماردة وولده الآخر العباس والياً ليابرة .

وفي العام التالي عاد ألفونسو فمات في بسائط طليطلة وخربها مرة أخرى . وكان المعتمد قد استطاع عندئذ أن ينتزع جيّان وأوبدة وبياسة ومرتوس من آل باديس أمراء غرناطة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يسير قواته ضد طليطلة ، فإنه سيرها نحو الغرب ، وزحف على بطليوس ، وبذا استطاع أن يحول دون معاونة بني الأفطس للقادر ؛ وكانت بلنسية قد عادت بعد وفاة أميرها أبي بكر إلى ولائها نحو طليطلة ولكن شغلها أمير دانية . وأما سرقسطة فكان أميرها العالم الباسل المقتدر بن هود قد توفي (٤٧٣ هـ — ١٠٨١ م) . وخلفه في حكمها ولده يوسف

(١) في هذا التاريخ تحريف ، وقد توفي المظفر أمير بطليوس في سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م) وخلفه ولده يحيى النصور واستمر في الحكم نحو أربعة أعوام . ثم خلفه ولده الثاني عمر الملقب بالمتوكل واستمر في الحكم حتى سقطت بطليوس في أيدي المرابطين سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) . وعلى ذلك فقد كان أمير بطليوس وقت غزو النصارى لأراضي طليطلة هو عمر المتوكل (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ ودوزي ٣ ص ٢٣٩) .

ابن أحمد المؤمن . وكان المؤمن يرى وجوب معاونة القادر بن ذي النون معاونة قوية حتى لا تقع سرقسطة ذاتها فريسة للنصارى أو لابن عباد ، ولكن نضاله المستمر ضد أراجون وبرشلونة ، لم يكن يمكنه من أن يسير ضد قشتالة قوة يعتد بها . بيد أنه حاول أن يقضى على ألفونسو في كين دبرة . وذلك أنه أوعز إلى حاكم حصن روضة المنيع أن يتظاهر ضده بالثورة وأن يستدعى إليه ألفونسو لكي يتسلم منه الحصن بنفسه ، ثم يفاجئه بالاعتقال والأمر . ولكن ألفونسو ارتأب في الأمر فلم يحضر بنفسه ، وأرسل ولدى أخيه ملك نافار اللذين ربيا في بلاطه مع جماعة من أكابر قشتالة لاستلام مفاتيح القلعة . وهناك انقض المسلمون عليهم وقتلهم عن آخرهم ؛ ولم يستطع ألفونسو أن يثأر لهذه الحياة الأثيمة لمناعة القلعة واستحالة أخذها .

واستطاعت الحرب أعواماً وألفونسو يعيث في بسائط طليطلة أينما عيث وقد انتسف كل زروعها وأقواتها ، واستولى على كثير من أماكنها الحصينة . وفي العام السادس لبده الحرب زحف على طليطلة ذاتها بجيش ضخم وضرب الحصار حول المدينة الزاخرة وقطع كل علاقتها مع الخارج . وكان يحجى القادر أميراً مترفاً يؤثر العيش الناعم على حياة الحرب والنضال ، ولم يكن لقسوته وبطشه ، يتمتع حتى بحب شعبه ؛ ومع ذلك فقد حاول أن يبدل آخر وسيلة للدفاع عن ملكه فاستنهض بنى الأفطس لغوته وقد أغاثوه من قبل ، واضطروا ألفونسو إلى الانسحاب ؛ وكان عمر التوكل يواجه عندئذ خطر إشبيلية ، ومع ذلك فقد رأى من واجبه ألا يترك القادر لمصيره ، فبعث ولده الفضل وإلى ماردة بجيش لا تقاذ طليطلة ؛ ولكن جيش ألفونسو كان يفوقه عدة وعدداً . وبذا هزم الفضل في جميع المارك التي خاضها ، واضطر أن يعود إلى ماردة ، وقلبه فياض بالأسف والحسرة إذ كان يرى أن سقوط طليطلة قد غدا أمراً مقضياً ، وأنه سيجر معه أسبانيا المسلمة كلها إلى الهلاك .

ولما رأى القادر نفسه محروماً من كل عون ، ورأى ما يهدد شخصه من شعب

عزت أقواته ، عرض على ألفونسو أن يدفع الجزية ، وأن يعترف بسلطانه ، وأمل بهذا الثمن أن يفتدى الماصفة التي تنذره بالملاك ؛ ولكن ملك قشتالة أبي كل عرض في هذا السبيل ، وأصر على وجوب خضوع المدينة وتسليمها دون قيد ولا شرط ؛ ولم يلق الشجمان القلائل الذي نادوا بالموت في سبيل الحرية والاستقلال استحساناً ولا تأييداً من الشعب ، وقد كان يتوق إلى التخلص من يؤسه . وهكذا أصبح القادر عاجزاً عن الدفاع واضطّر أن يسلم المدينة بعد أن تمهد ألفونسو لسكانها بتأمين أنفسهم وكافة أموالهم ، وأن يبقّى مسجدها الجامع مفتوحاً للصلاة ، وأن يستبقى المسلمون شرائعهم وقضائهم ، وأن يسمح لهم بالهجرة إلى الأراضى الإسلامية ، وأن يحملوا أموالهم دون معارضة . وهكذا سلمت قلعة المدينة ، وكذلك جميع نقطها الحصينة إلى ملك قشتالة ، وتمهد المسلمون بأن يؤدوا له جميع المكوس التي كانت تؤدى إلى بنى ذى النون .

ودخل ألفونسو السادس عاصمة القوط القديمة (طليطلة) في السابع والعشرين من محرم سنة ٤٧٨ الموافق ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ . وعادت طليطلة إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عاماً ؛ واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين ، وغدت بذلك عاصمة اسبانيا النصرانية ؛ ولم يعض قليل حتى عاد أسقف طليطلة إلى تبوء منصبه كرئيس للكنيسة الأسبانية كما كان الشأن أيام الملكة القوطية . ولما كانت طليطلة دائماً منزل كثير من النصارى واليهود ، فقد تناقص عدد سكانها المسلمين بسرعة . ذلك أن كثيراً من النصارى هرعوا إليها عندئذ من أنحاء قشتالة وليون ؛ ومن جهة أخرى فقد هجرها كثير من المسلمين ممن تبوءوا أميرهم القادر إلى بلنسية التي منحت إليه ولايتها ، إما طوعاً أو كرهاً بمعاونة ألفونسو . وهكذا اختتمت دولة بنى ذى النون في طليطلة .

وكان سقوط طليطلة ضربة قاضية على التفاهم بين ألفونسو وأمير إشبيلية . ذلك أن ملك قشتالة لم يقنع بالاستيلاء على تلك القاعدة الهامة ، ولكنه استولى

أيضاً على جميع الأراضي الواقعة على ضفتي نهر التاجه ، وعلى قلاع مدريد (بحر يبط) ، ومقودة ووادي الحجاره وقلعة رباح ، بل غدا يهدد قرطبة وماردة وبطلوس ؛ وهكذا جزع المعتمد وساوره الندم على تحالفه مع ملك النصارى ، وصب جام غضبه أولاً على الوزير ابن عمار الذي عقد هذا الحلف ، والذي اشتهر يومئذ بمقدرته في ميدان الحرب ، كما اشتهر بروعة شعره ، وبراعته في عقد الملائق السياسية . فقبض عليه وألقاه في السجن ، ثم أمر به فأعدم بالرغم من عديد خدماته وبشفاعة العظماء من أصدقائه ، بل قيل إن المعتمد هو الذي تولى إعدامه بنفسه^(١) .

وكتب المعتمد إلى ألفونسو ألا يتعدى في فتوحاته طليطلة ، فإن هو فعل فإن ذلك يعتبر خرقاً للتعاهد ؛ ولكن ملك قشتالة لم ير في إنذار حليفه ما يحمله على وقف سيره المظفر ، وأجاب المعتمد بقوله إنه يملك ولاية طليطلة بالاشتراك مع صديقه الأمير يحيى القادر صاحب بلنسية . ولكي يدل على أنه من جانبه مخلص لاشروط التحالف أرسل إليه خمسمائة فارس من ذوى الدروع الحديدية لمعاونته في محاربة غرناطة ؛ ولكن المعتمد ، وقد غدا يرتاب في جميع تصرفات ألفونسو ، خشى أن يكون هؤلاء الفرسان الذين قدموا نجاة إلى جوار إشبيلية دون دعوة منه ، قد قدموا ليذبوا له مكيدة ما ، فبادر بعقد الصلح مع غرناطة لكي يعود الفرسان النصارى في الحال من حيث أتوا .

وما أن وصلوا إلى طليطلة حتى أبدى ألفونسو دون حرج أنه ينوى افتتاح الولايات المسلمة كلها ؛ ولما أبى المعتمد أن يسلم إلى ملك قشتالة بعض حصون من ولاية طليطلة كانت في يده ، أعلن ألفونسو ضده الحرب ، كما أعلنها على جميع الأمراء المسلمين ؛ ورأى الأمراء المسلمون بمدفوات الوقت كيف قدموا بآبائهم من جراء تفرقهم إلى عدوهم الوسيلة لتقوية سلطانه عليهم .

وزحف ألفونسو على سرقسطة بآدى ذى بدء ؛ والواقع أن أميرها المؤمن لم يكن يستحق لوماً على تقاعسه عن نجدة طليطلة ؛ ذلك أنه مثل بنى الأفطس ،

(١) راجع الهامش عن ابن عمار ص ٥١ .

بذل كل ما يستطيع لنوث القادر ، ولكن جهوده لم تكن شيئاً ؛ وكان ملك أراجون وقواس^(١) قطلونية يهاجمونه بلا انقطاع ، ويشغل في الوقت نفسه بحاربة أمراء دانية وقسطلون المسلمين ، فلم يكن بوسعه أن يحشد قواه في نقطة بذاتها ، وقد أبدى في معارك لاردة ووشقة ضر وبابديعة من البسالة ، ولكن جهوده لم تتوج بالفخر . ثم شهد قبيل موته سقوط طليطلة وعزه المصاب ، فحزن لموته جميع المسلمين المخلصين أياً حزن ؛ ذلك لأنهم فقدوا بفقدته عضداً لدينهم ؛ وفي الروايات الشعرية ما يفيد أن الفارس القشتالي المنفى السيد الكنييطور قد عاش في كنفه عدة أعوام^(٢) وحارب من أجله ضد النصاري والمسلمين على السواء ، يبدو أن معظمها ينتظم في سلك القصة ولا يدخل في حيز التاريخ .

وخاف المؤنمن ولده أبو جعفر أحد الملوك المستعين بالله (٥٤٧٧ - ١٠٨٥ م) وما كاد يلى الحكم حتى أغار عليه ألفونسو ، وأضحت سرقسطة مهددة بمصير كصير طليطلة ؛ وهنا رأى الأمراء المسلمون جميعاً شبح السقوط ماثلاً أمام أعينهم ، فالتحدوا لأول مرة واجتمعت كلهم على أن يضموا حداً للفتوح ألفونسو . وإذا كانت قواهم مجتمعة لا تكفي لرد عدوانه ، فقد اتفقت كلهم على الاستنجاد بالمرابطين في إفريقية واستدعاهم إلى الجزيرة .

(١) القواس في الرواية العربية جمع قومس مشتقة من اللاتينية Comes وهي الكونت وأحياناً يعبر عنها بكلمة قط (راجع ابن خلدون ٤ س ١٨ و ١٨١ و ١٨٢) .

(٢) كان السيد الكنييطور (السكبيادور) يتقلب في خدمة بني هود وقد خدم المؤنمن أعواماً ، واشترك في حروب كثيرة .

الفصل الرابع

نشأة المراتبين

وأسباب عبورهم إلى اسبانيا

(من سنة ٤٤٢ - ٤٧٨ هـ) (١٠٥٠ - ١٠٨٥ م)

١ - عبد الله بن ياسين

كان اللمتونيون الذين اشتق اسمهم من ثوبهم البسيط « اللمت » يرجعون أصلهم مثل أقربائهم من بني كدالة ومسطاسة^(١) إلى قبيلة صنهاجة التي نزحت من بلاد العرب إلى المغرب^(٢) وكانوا من البدو الرحل يتنقلون في صحارى إفريقيا من واحة إلى أخرى حتى انفصلوا في النهاية عن باقي القبائل ، وزلوا في قاصية غربي إفريقيا على مقربة من المحيط الأطلنطي^(٣) . وكانوا يجهلون العلوم والفنون والكتابة ، ويجهلون تعاليم الإسلام بالرغم من مجاورتهم للأمم الإسلامية ، وكان دينهم « المجوسية »^(٤) ، وقد حرموا تذوق الرفاهة التي تخلقها حضارة الإنسان ، ولكنهم كانوا أيضاً بمنجاة من الرذائل التي تترتب عادة على ارتفاع مستوى الحياة

(١) يورد المؤلف اسم مسطاسة محرفاً « مسطافة » ، وهناك قبيلة أخرى من قبائل صنهاجة تسمى « مسوفة » ، ولكن الأرجح أنه قصد الأولى . وكدالة تكتب أحياناً جدالة . (راجع روض القرطاس (طبع أوروبا) ص ٧٥ ، وابن خلدون ٦ ص ١٤٤ ، والاستقصاء للسلاوي ١ ص ٩٨ ، وأبو الفداء ص ١٧٤) .

(٢) راجع ابن خلدون ٦ ص ١٥٣ ، وروض القرطاس ص ٧٥ .

(٣) يعرف المحيط الأطلنطي في الجغرافية العربية بالبحر المحيط والبحر الأعظم وبحر اقنايس وبحر الظلمات وغيرها .

(٤) راجع ابن خلدون ٥ ص ١٨١ .

البشرية ؛ وكما حدث في العصر القديم بالنسبة لاناخرسيس الاسكيثي^(١) ، فقد خرج يحيى بن إبراهيم اللبتوني في أواسط القرن الحادى عشر الميلادى لتحصيل المعارف التى تنقص قومه فى البلدان الأخرى ، فتجول فى بلاد المغرب ورحل إلى بلاد العرب ، ووقف على مبادئ الإسلام ، وكذا على العلوم والمعارف التى كانت دائمة فى العالم الإسلامى فى هذا العصر ؛ وكان يحز فى نفسه ما يراه من شدة تأخر قومه عن الأمم المتقدمة . وقد عقد العزم على ألا يدخر وسماً فى تثقيف اللبتونيين فى صحاريهم بعلوم الإسلام ، وتعرفهم بآداب الدنيا ؛ وكان يحتاج فى ذلك إلى عالم مسلم ، فوقع على بغيته أثناء مقامه بالقيروان على يد فقيه من معارفه ، وألقى طلبته فى رجل يضطرم غيرة لتلك المهمة الشاقة ، أعنى تثقيف أولئك البدو الصحريين . هو عبد الله بن ياسين^(٢) . وكانت قبائل لمتونة وكندالة ومسطاسة تعرف باسم مشترك هو : « المثلثون » وذلك إما لأنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، أو لأنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم ، أن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسبن فى عداد الرجال^(٣) ؛ واستقبل « المثلثون » الرسول الجديد عبد الله بفتور ، ولكن دروسه ما لبثت أن نفذت إلى قلوب البدو البسطاء ، وما لبث أن رفعه أولئك المسلمون الجدد إلى أعظم مقام وأخذوه سيدهم وحاكمهم . ثم دانت معظم قبائل الصحراء لعبد الله تارة بالإقناع وتارة بالسيف ، واجتمعت تحت لوائه . وأعلن زعيم المثلثين نفسه أبو زكريا يحيى بن عمر أنه تلميذه وتابعه ، وقنع من الزعامة بقيادة المجاهدين « فى سبيل الله » إلى ميدان الحرب ، فاختاره عبد الله وهو الإمام وصاحب الأمر ، أميراً وقائداً ، وأطلق على المثلثين اسماً جديداً هو « المرابطون » (أى الذين يتعهدون على أن يخلصوا أنفسهم لخدمة

(١) هو فيلسوف من سيكتيا تزح إلى اليونان ليتعلم فيها ، ويقال إنه كان صديقاً لصلولون ، وقد اشتهر بوفرة الذكاء والحكمة .

(٢) هو عبد الله بن ياسين السكزولى أو الجزولى (روض القرطاس ص ٧٨ و ٧٩ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٢ و ١٨٣ ، والاستقصاء ١ ص ١٠٠) .

(٣) الاستقصاء ١ ص ٩٨ .

الله أو بمعنى آخر مشتق من كلمة «الرابعة» المسلمون الوردون المنقطعون للعبادة^(١) وبث الدين الجديد في أهل الصحراء حماسة واضطراباً ودفعهم زعمائهم إلى الفتح ، فسارعوا من نصر إلى نصر . وكان المغرب الأقصى (موريتانيا) قد استقل عن اسبانيا المسلمة في أوائل القرن الحادى عشر ، وبسط آل زيرى من قبيلة زناتة سيطرتهم على معظم أرجائه ، فزمرته جيوش المرابطين الضخمة ، وكانت تتألف من فرسان مهرة ، ونظم بالأخص صفوفاً من المشاة البارعين في فنون القتال ؛ وتؤلف الخطوط الأولى من صفوف من أشجع الجند المشاة يحملون حرايا بالغة الطول . وكان المرابطون يحرزون النصر بجراتهم وجلدهم في كل حرب تقريباً . وكان ممثل زعيمهم وهو يتقدمهم محارباً في أول الصفوف يذكي شجاعتهم وبسالتهم . على أن هذا الإغراق في الجرأة من جانب القائد يجيى أبى زكريا لم يكن مما يرضى الإمام عبد الله بن ياسين حتى أنه أمر به ذات يوم فعوقب على تهوره بالجلد عشرين سوطاً^(٢) . ومع ذلك فإن أبى زكريا لم يفارقه شغفه بخوض المارك في صميم لظاها ، حتى سقط ذات يوم فتيلاً مقاتلاً في إحدى الوقائع . ولكن جنده أحرزوا النصر مع ذلك .

فاختار الإمام بما له من السلطة العليا ، أخاً أبى زكريا أبى بكر بن عمر مكانه ؛ وفي العام التالى لقي عبد الله حتفه حينما كان يفزو ضد أهل تامسنا ، وبقاتل دون تحوط ، وائتقا في حظه وطالعه (٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م)^(٣) .

وكان مؤسس الدولة المرابطية يضطرم بتمصب مفرق استطاع أن يثبت في قبائل الصحراء ، وكان يرى سحق جميع الذين لا يتلقون تعاليمه كلها دون قيد ولا شرط ، وكثيراً ما فعل ذلك متى توفرت له الوسيلة . وكان شديد التشفف في مأكله ومشربه . وكان خطيباً موهوباً قوى التأثير والإقناع ، واسع العلم والمعرفة

(١) هذا التفسير تنقصه الدقة فالمرابطون مشتقة من الرابطة . وأصل معنى الرباط إرتباط الخيل بإزاء العدو في الثغور ، ومنه الرباط وهو من لازم الثغر لدفع العدو ، أخذنا من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحوا » .

(٢) راجع روض القرطاس ص ٨١ .

(٣) راجع روض القرطاس ص ٨٤ .

يرى فيه البدو البسطاء مخلوقا فوق البشر ، وبلغ من نفوذه لدى هذه الجوع البدائية أن استطاع أن يقودها لفتح أهل المغرب والقبائل البربرية ؛ وكانت تعاليمه غاية في البساطة تسير جنباً إلى جنب مع نظم الدولة البسيطة . وكانت أخصر وأجبات المرباط الورع تنحصر في الصلاة والزكاة وأداء العشر . وكانت الفنائم التي تحصل في الحرب بعد أن يفرز منها خمس الإمام توزع على المجاهدين فتحفزهم بذلك إلى الغزو والظفر من جديد .

٢٠ — فتوح يوسف بن تاشفين في إفريقية

ولما توفي عبد الله بن ياسين قبض أبو بكر على زمام الحكم دون شريك ، ولم يكن قبل ذلك سوى قائد للإمام ؛ ولما كانت مدينة « إفريقية » (١) التي جعلها الأمير — وهو اللقب الذي اتخذها أبو بكر — مقامه قد أخذت تضيق بجموع حبه الزاخرة فضلا عن سوء موقعها ، فقد رأى أن يختار موقعا آخر يبني فيه عاصمة جديدة للملك ، وسرعان ما ظفر بهذا الموقع في بسيط حافل بالزرع والساء ؛ وأقيمت به غير بعيد قصور ومنازل عديدة ، وسُميت المدينة الجديدة « سراكش » . ومع أن أبا بكر لم يشرف على بنائها ، بل أشرف عليه خلفه ، فإنه يجب أن يعتبر مع ذلك مؤسس هذه المدينة الشهيرة ، وكان تأسيسها على الأرجح في أوائل سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م .

ذلك أن أبا بكر بينما كان مشغولا باختطاط عاصمته الجديدة ، إذ نشبت حرب أهلية بين قبيلتي كدالة ولتونة ، فخرج إلى الصحراء لكي يحول بتدخله دون أن تبطش إحدى القبيلتين بالأخرى ، وكانت كاتماها تقاتل الأخرى بمنتهى النكال والشدة دون أن تتضح أسباب هذه الخصومة . ولما تعذر إقناع القادة من الفريقين بمقد الصالح ، بادر الأمير إلى نجدة لتونة في خيرة جنده نصره لها على خصومها ، واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت من قبيلة صنهاجة على العاصمة الجديدة وأمره أن يتم تخطيطها وبناءها (١) .

(١) راجع في تأسيس سراكش روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٤ والاستقصاء ١ ص ١٠٧ وما يورده في ذلك من مختلف الروايات .

وبينا كان أبو بكر يقاتل كدالة في الصحراء ، عمد يوسف بن تاشفين إلى توطيد سلطانه في المغرب الأقصى . وكان هذا الرجل الذي خلق للزعامة يجمع بين جمال الطلعة والجسم ، وبين أبدع المواهب العقلية . وكان يتمتع بأوفر قسط من الذكاء والرأى الثاقب والشجاعة وبعد النظر ، وهى أخص صفات الزعامة ؛ وكانت شهرته وشغفه بالحرب ، وقد كان يقودها بفطنة وحسن طالع ، يسبغان عليه خلال الفروسية ؛ وكان جوده وولاؤه ، واحتقاره لمظاهر الترف في اللبس والسكن ، تكسبه محبة شعبه ، وتقوى في نفوسهم من جهة أخرى عواطف التوقير والشرف التى وطنتها صرامته وعدالته ؛ وقد بلغ من اعتداله وتقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشمير ولحم الإبل ، ولا يشرب سوى لبن الإبل ؛ وإلى هذا الاعتدال والتقشف يرجع الفضل فيما كان يتمتع به من صحة بدنية ، وفى كونه قد عاش مائة عام ، وهو عمر نادر البلوغ ^(١) .

وابتلى يوسف فى مرا كش مسجداً بديعاً ، وقصراً حصيناً ، وعدة أبنية أخرى (سنة ٤٦٣ هـ — ١٠٧٠ م) ، بيد أنه لم يهمل شأن الحرب ؛ وكان لديه فضلاً عن حرسه الخاص المؤلف من ألى عبد اشترام من ساحل غيانة ، وفضلاً عن قوة أخرى تسهر على شخصه ، مؤلفة من بضع مئين من الصقالبة النصارى من اسبانيا يحذقون فنون القتال ، جيش ضخم يضم زهاء مائة ألف مقاتل ، وينقسم إلى خمسة جيوش ؛ فإذا دفت الطبول سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة العدو فى أكل نظام . وقادها يوسف ببراعة ، فغلبت على أنحاء موريتانيا (المغرب الأقصى) كلها ، وافتتحت مدينة فاس الحصينة ، ولأىوسف خزائنه بالمال مما أصاب فى غزواته المظفرة ، وبالأخص مما انتزع من اليهود الذين كانوا يقطنون المغرب يومئذ بكثرة ، وكان يشتد فى مطاردتهم .

أما أبو بكر فبعد أن أتم حربه ضد كدالة ، وفاز بالنصر عليها ، وقاد جيشه

(١) كان مولد يوسف بن تاشفين سنة أربعمائة من الهجرة ووفاته سنة خمسائة . راجع فى نشأته وخلالة روض القرطاس ص ٨٧ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ وما بعدها . والحلل الموشية (طبع تونس) ص ١٢ وما بعدها .

المظفر حتى قلب بلاد السودان فقل راجعا إلى مراکش (سنة ٤٦٦ هـ - ١٠٧٣ م) ولما اقترب من المدينة دعا يوسف إلى لقائه متظاهرا بصداقته ، وكان قد وقف على أطماعه وعظيم فتوحه وقواته معتزما أن يجرده من الولاية التي قلده إياها بالندر لا بالنف ، فسار يوسف إلى لقائه في مكانه بجيش ضخم ؛ فارتاع أبو بكر ، ورأى أنه لم يبق له من السلطان سوى الاسم ، وأعلن في الحال استمداه لأن يترك لابن عمه مملكة الرابطين كلها وعاصمتها مراکش ، وأن يقنع بحكم اللمتونيين في الصحراء ، فلم يتردد يوسف في قبول هذا العرض ، وفي الحال أخذ البيعة لنفسه من جبهة الرعماء الجاهزين ، وارتد أبو بكر إلى اللمتونيين في الصحراء . وهنا تختلف الروايات في مصيره ، فيقول البعض إنه لبث هناك يحارب قبائل السود المجاورة مدى ثلاثة أعوام حتى توفي في سنة ٤٦٩ هـ - ١٠٧٦ م ويقول البعض الآخر إنه عكف على الأهلية للحرب لأنه لم يستكن إلى فقد سلطانه ، وأنه سار إلى محاربة يوسف ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها أبو بكر ، وأن الظافر لم بشمر نحو المحسن إليه بشيء من العرفان فأمر بإعدامه^(١) .

وكان يوسف بن تاشفين ببسط سلطانه يومئذ في شمال غربي إفريقية على مملكة تمتد من حدود غيانه خلال الصحراء ، وخلال موريتانيا (مراكش) حتى البحر الأبيض المتوسط ، ويحدها المحيط الأطلانطي من الغرب ، ويحدها من الشرق ولاية قرطاجنة (تونس) التي كانت تنضوي يومئذ تحت لواء خلفاء مصر الفاطميين . وفي سنة ١٠٧٠ م سقطت في يده طنجة ، وكانت في يد الأدارسة الذين أخرجوا من مالقة . وعاون في أخذها المعتمد بن عباد أمير إشبيلية نكابة في أعدائه ، فبث السفن لمحاصرتها من البحر ، وحاصرها يوسف من البر حتى سقطت ، ولم ينقصه سوى سبتة ، للاستيلاء على جميع بر المدوة المقابل لشاطئ الأندلس .

ولما امتد سلطان المرابطين نحو الشرق بافتتاح تونس (سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٨٠ م)

(١) نضع الرواية العربية وفاة أبي بكر سنة ٤٨٠ هـ . راجع في لقائه يوسف ومصيره روض القرطاس ص ٨٧ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ١٠٦ ص ١٠٦

سقطت سبتة كذلك في أيديهم ، بعد حصار طويل (سنة ١٠٨٤ م) ؛ وهنا بدت شبه الجزيرة الأسبانية لهذا الأمير المطبوع على الظفر فتجا يسير المنال ، لا سببا وقد دعاه أهلها المسلمون لتجديدهم ضد النصارى .

٣ — الأخطار المحدقة بالإسلام في اسبانيا

اجتمعت كلمة ألفونسو السادس ملك قشتالة وسانشو الأول ملك أراجون ونافارا (نبرة) ، وكذلك الكونت برنجار ريموند فيما يظهر ، على سحق الدولة الإسلامية في اسبانيا . ذلك أنه بالرغم من أن المسلمين قد حكموا معظم أرجاء الجزيرة زهاء أربعمئة عام ، فقد كان النصارى يرون أن حقوقهم ما تزال قائمة عليها ، وأن أرض اسبانيا ما تزال ملكا لهم ، ولم يكن يحالجههم شك في أنهم سوف يستعيدون الجزيرة كلها ذات يوم ، ويخرجون الفاتح الأجنبي منها . وكان ألفونسو السادس يرى أن هذا اليوم قد حل . ذلك أن الممالك النصرانية نبذت عندئذ كل خصوماتها ومعاركها التي كانت فيما مضى تشل قواها ، وأخذت تسد كل قواها بمجتمعة ضد أعداء النصرانية . وكان من اليسور عقد هذه الوحدة ، فنذ بميد لم تجتمع أطراف المملكة النصرانية كما اجتمعت يومئذ ، إذ كان ألفونسو السادس يحكم جليقية وجزءا من البرتغال وأشتوريش وليون وقشتالة وبسكونية ؛ وكان سانشو راميرز يحكم أراجون ونافارا ، وكان الكونت برنجار ريموند يحكم برشلونة وأورجل ؛ وإذن فقد كان النصارى الأسبان على حق في أمانهم ، خصوصا بعد أن سقطت طليطلة الحصن العظيم في أيديهم ، وكانت أعظم معقل للدولة الإسلامية في اسبانيا ، وكان كل شيء يبدو عندئذ ممكنا .

وبينا سار إلى الأندلس جيش ضخم من جليقية وليون وانتزع مدينة قورية من بني الأفطس ، ووصل إلى بسائط إشبيلية ، فأحرق قراها وانتسف حقولها ، وسارت قوة من الفرسان إلى شنونة ، ثم اخترقت جزيرة طريف قاصية اسبانيا حتى البحر ، إذ حاصر القشتاليون بمعاونة جنود من الأراجونيين والقطالونيين ، وضربهم ألفونسو تحت قيادته فيما يظهر ، قلعة مرسطة الحصينة ؛

وسقوط سرقطة يضع منطقة الايبرو (ابره) كلها حتماً في يد النصارى ، ويجعل الشواطئ الأسبانية مما يلي البحر الأبيض عرضة لغزواتهم .

وأتخن النصارى في ولاية سرقطة كلها بالنار والسيف ، ولم يكن يردم في الحرب أى اعتبار إنسانى مادام الأمر متعلقاً بأعداء الدين ، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة ، وتلقى المؤتمن بن هود وعدا بوصول المدد السريع من إخوانه المسلمين في جنوب الجزيرة . بيد أن النصارى كانوا يشددون الضغط على سرقطة يوماً بعد يوم ، وكان المسلمون في شبه الجزيرة يرتجفون جميعاً لاحتمال سقوط هذا المعقل النسيج ، وكانت قواتهم وأهباثهم في حالة يرثى لها . وكانت دون قوى النصارى ، ومن ثم فقد كانوا بلاريب يتطلعون إلى عون من الخارج . عندئذ أجهت أبصارهم إلى قوة المرابطين الناهضة في إفريقية ، وكانوا قد استولوا على بعض مدن الأندلس دون معارض ، وعولوا على استدانتهم والتماس عونهم وغوثهم (١) .

وكان المعتمد بن عباد وهو يومئذ أعظم أمراء الأندلس يتحمل بتصرفه الطائش في معاونة ألفونسو على محاصرة طليطلة أكبر تبعه في تلك النكبة التي نزلت به وباخوانه المسلمين . بيد أنه غداً بعد أن تبين خطأ أوفرهم نشاطاً في العمل على تحطيم صولة النصرانية ، وكان يرى مثل باقى الأمراء والولاة المستقلين أن قواهم قاصرة لا تكفى . ففي خلال مؤتمرين عقد أولهما في إشبيلية ، وثانيهما في قرطبة اتفق الأمراء المسلمون على أن يرسلوا سفيراً إلى يوسف بن تاشفين في إفريقية يلتمسون عونه وغوثه . أجل عارض البعض في ذلك ولا سيما عبد الله ابن سنكوت والى مالبة ، وكان يرى أن المرابطين أشد خطراً عليهم من النصارى وأنه ما يزال من اليسور أن ترد عادية النصارى بالاتحاد والثابة ، ولكن معظم الأمراء كانوا يائسين من الاعتماد على قواهم ، فأنحوا باللوم على عبد الله ساخطين ، بل رماه بعضهم بالخيانة ، وعهدوا إلى المتوكل أمير بطليوس ، وكان يومئذ أعلم

(١) في روض القرطاس تفصيل حسن لغزوات النصارى في تلك الفترة (ص ٩٢) .

أمرء الأندلس ، بأن يكتب إلى يوسف رسالة يصف فيها ما يلقاه المسلمون من
النصارى من الحزن ، ويلتمس إليه أن يبادر بغوثهم قبل أن تقع الطامة الكبرى ،
ووقع هذه الرسالة ثلاثة عشر من الأمراء المستقلين ؛ فلما وصلت الرسالة إلى يوسف
تشاور في أمرها مع أكابر الزعماء والقربى فيما يجب صنعه . ورأى هؤلاء القادة
الذين خرجوا حديثاً من القفر ، ولم يسموا من قبل باسم النصارى ، ولم يلبسوا
أن للإسلام مثل هذا العدو القوى ، أنه يجب نزولاً على حكم الدين أن يبادر
المسلم إلى غوث المسلم ضد أعداء الدين .

على أن زعيم المرابطين وقد صقلته التجارب وبلغ ذروة النضج ، (وكان يومئذ
قد جاوز السبعين) لم ير أن واجبه يقتصر في ذلك على النزول عند بواعث النيرة
الدينية ؛ ونظراً لنقص معرفته بالجزيرة وبالمدو المنتظر وكونه يخشى أن يحاربه
النصارى الأسبان قد لا تسفر عن النجاح المحقق ، فقد رأى أن يتبع في ذلك
نصح كاتبه عبد الرحمن^(١) وهو أندلسي المولد يعرف الجزيرة وشؤونها حق المعرفة ،
فشرح له عبد الرحمن ما يعترض الحرب في الجزيرة من عظيم الصعاب ، لأن معظم
الجزيرة في يد النصارى ، والجزيرة ذاتها وعرة البسائط تعترضها جبال صعبة المسالك
تحول دون الفتوح السريعة ، ويمكن تشبيهها بسجن يندر أن يستطيع الداخلون
إليه الخروج منه . وتساءل الكاتب أى صداقة تربط سيده بأوائك الأمراء ؟
وأى قربى تحمله على غوثهم ؟ وأى ضمان قدموه إليه ؟ قال : فإذا انتصر عليك
الأعداء فقد يقطع عليك طريق العودة إلى إفريقية بأيسر أمر . ومن ثم فنصحني
إليك هو أن تخطر أمير إشبيلية أنك لا تستطيع العبور إلى إسبانيا قبل إخلاء
حصن الجزيرة ، وبذا تملك موضعاً أميناً تشغله حامية مخلصة ، وتبقى في كل رقت
على اتصال دائم بإفريقية^(٢) .

(١) هو كما في الحلل الموشية عبد الرحمن بن أسبط ، وكان أندلسياً من أهل الربة
(س ٣٢) .

(٢) يورد ابن الخطيب نص الحديث الذى أدلى به عبد الرحمن إلى يوسف فيها يأتى :
« فقال (أى عبد الرحمن) له أيد الله الأمير تمررون الثمن ، وسبعة أثمان يهرها النصارى ، =

وفي ذلك الحين الذي وجهت فيه الرسالة إلى أمير المرابطين بطلب النوث ، وانتظرت منه الأمداد ، كان ملك قشتالة لا يزال يشحن في أراضي المسلمين ، فضلاً عما كانت تشعر به سرقطة كل يوم من ازدياد الضغط عليها وكونها كانت تحارب جيرانها العاصريين ، كان بنو الأفطس إزاء خطر داهم . ذلك أن ألفونسو كان يندرم بتخريب جميع مدائنهم إذا أبوا الخضوع لسلطانة المظفر . وقد رد الأمير العالم عمر المتوكل صاحب بطليوس على مطالبه برسالة طويلة ، بيد أنه لم يحجم عن المضي في غزواته وفتوحه (١) .

٤ — غلبة ألفونسو السادس على أسبانيا المسلمة

وبينا كان يوسف بن تاشفين يتردد في العبور إلى أسبانيا إما لأنه لم يستكمل أهبطه أو لأن الحصون المطلوبة لم تسلم إليه ، حاول عدة من الأمراء بأداء الجزية وتسليم حصون الحدود أن يحصلوا على مهادة ألفونسو ولو إلى حين . ولم ينج أمير إشبيلية نفسه من ذلك الإذلال المهين . وبمث ألفونسو إلى إشبيلية سفيراً تسميه الرواية العربية بقرمط البرهانس (٢) ومعه إلى المعتمد رسالة تفيض كبرياء وصلفاً ينعت فيها نفسه بالقيصر وسيد الشعبين ، وإمام الشريعتين (٣) . ونقول

== وهي (أي أسبانيا) شقيقة عرجة صريحة سجن لمن دخلها لا يخرج منها إلا تحت حكم صاحبها ؛ وإن أنت جرت إليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك من شيء ، وهو الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم ولا صداقة متصلة ، ويتق إذا نضى الله الفرض من العدو أمسك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر إليكم ، فاكثبوا إليه ، أي إلى المعتمد فإنه لا يمكنك الجواز إلى أن يعطيك الجزيرة الخضراء فتعجل فيها أمتلاك وأجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت ، (الحلل الموشية ص ٣٢) .

(١) راجع نس هذه الرسالة في الحلل الموشية (ص ٢٠ و ٢١) ، وهي رسالة تفيض شجاعة وإباء وتبلا .

(٢) هكذا ورد اسم السفير في خطاب ألفونسو السادس إلى المعتمد ، حتماً ينقله إلينا ابن الخطيب في الحلل الموشية (ص ٢٢ و ٢٣) ، ولكن بلوح لنا أن هناك تحريفاً في كلمة « القرمط » والأرجح أنها كلمة « القومط » البرهانس ، (أي الكونت) وهو بالأفريقية (Alvar Fanez) وقد كان من أكابر قادة ألفونسو ورجال دولته .

(٣) ألفاظها كما وردت في الحلل الموشية « من الإنيطور ، ذي اللتين الملك الفضل الأدفنش بن شانجه » ولعل الإنيطور هنا هي الإمبراطور .

الرواية العربية إن المتمد أجاب على هذه الرسالة برسالة أشد كبرياء وعنفًا ولكنها تذكر مع ذلك أن المتمد اضطر إزاء تردد يوسف في العبور إلى إسبانيا أن يؤدي جزية مشينة ، ومن ثم فإنه يحق لنا أن نرتاب في صحة هذه الرسالة^(١) . وكان مع سفير ألفونسو قرمط البرهانس يهودى بارع فى شؤون النقد يدعى ابن شاليب ، والظاهر أن ألفونسو وقع غير مرة على مال زائف مما يقبضه من جزية الأسراء المسلمين ، فأمر اليهودى أن يفتن إلى ذلك فيما يقبضه من المتمد ، فلما حل إليه الوزراء مال الجزية التى يجب أن يؤديها المتمد إلى ملك قشتالة أبى أن يتقبله دون فحص للتحقق من صحته ، فأتار ذلك نقاشا حادا ، وحاول السفير تسوية الخلاف فاقترح أن يقدم ابن عباد بدل المال المطلوب سفنًا حربية بقيمة الجزية لأن اليهودى مأمور ألا يتسلم المال دون فحص وتحقيق .

ولكن المتمد ازداد غضبًا لأقوال السفير وصاح بأنه لا يستطيع أن يحتمل بعد طغيان النصرارى الأوغاد بل قيل إنه بطش بالسفير خلافا لما يقضى به قانون الأمم (القانون الدولى) . وفى بعض الروايات العربية أن المتمد فقأ عينى السفير بنفسه وقتل رفاقه وهم ثلاثمائة ، ولم ينج منهم سوى ثلاثة لاذوا بالفرار . وضرب اليهودى حتى غشى عليه ثم صلب ؛ ولكن توجد ثمة رواية غربية أخرى أوثق من هذه (والروايات النصرانية لا تذكر شيئًا عن الحادث) مفادها أن المتمد كان أقل خشونة فى معاملة السفير . ذلك أن السفير كان يقيم مع حاشيته فى الخيام فى ظاهر إشبيلية ، فانسل إلى خيمة اليهودى بعض العبيد الصقالبة وقتلوه والنصارى الذين كانوا معه . وكان ذلك بأمر المتمد بلا ريب . أما حياة السفير فقد حفظت نزولا على قانون الأمم ، وارتد السفير إلى طليطلة وهو يتوعد بنقمة مولاه^(٢) .

(١) ورد فى الحلل الموشية نس هذه الرسالة ، ونىها ينس ابن عباد على ألفونسو كبرياءه وصلفه ويرد إليه وعيده (س ٢٣ — ٢٥) .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه السفارة وما وقع للسفير النصرانى وزميله اليهودى ابن شاليب فى الحلل الموشية ص ٢٥ و ٢٦ ونفع الطيب ٢ ص ٤٧٠ وابن خلكان ٢ ص ٣٩ وابن الأثير ٩ ص ٤٨ والاستقصاء ٢ ص ١١٣ ؛ والروايات العربية تختلف فى بعض التفاصيل ولكنها تنفق فى هذه السفارة وفى غايتها ، راجع أيضاً دوزى ٣ ص ١١٩ .

وتبين المتمد بمد التأمل الهادئ سوء تصرفه ، ونصح الوزراء بأن يُصَوَّر الحادث كفورة سخطة جاش بها الشعب ضد اليهودى لما أبداه من عدم الثقة ، وأن يمد ألفونسو بالترضية الكافية وذلك اتقاء للمصافة التى تبدو قريية فى الأفق ؛ ولكن المتمد كان يرى رأيا آخر فاستدعى ابنه الرشيد ، وكان قد أخذ له البيعة بولاية عهده ، وأفضى إليه بأنه إذ يستحيل عليه مقاومة أطماع ألفونسو وطفغيانه بالسيف يمتزم أن يستدعى المرابطين إليه ، وأنه يؤثر أن يسحق على يد إخوانه فى الدين على أن يسحقه ألفونسو اللعين . وحديث المتمد مع ولده يشف عن السبب الذى حمل يوسف بن تاشفين على التريث فى إجابة دعوة أسراء الأندلس ؛ ذلك أنه طلب تسليم حصن الجزيرة فى الأندلس وهو من أراضى أمير إشبيلية ، فتردد المتمد فى تحقيق طلبه ، ولكن المتمد رأى عندئذ أنه يجب أن يختار بين أن يسحق على يد ألفونسو وأن يلقى بنفسه فى يد المرابطين . ولما بين الأمير الرشيد لوالده ما ينطوى عليه التجاؤه إلى المرابطين من الخطر أجابه المتمد بما يأتى : « أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أننى أعددت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ، فتقوم على اللعنة فى منابر الإسلام مثل ما قامت على غيرى ، فى حرز الجلال والله عندى خير من حرز الخنازير »^(١) .

٥ — يوسف بن تاشفين يعترم العبور إلى اسبانيا

وبادر المتمد فأرسل إلى المغرب سفارة تحمل رسالة بخطه وفيها بنعت ساطان المرابطين « بأمر المؤمنين » . وكان يوسف قد تلقب بأمر المؤمنين قبل ذلك بقليل زولا على رغبة الزعماء وشفعه بلقب « ناصر الدين » ، وكانت هذه خطوة ذات شأن ، ذلك أن أحداً لم يجروا على ادعاء الخلافة قبل ذلك إلا إذا كان من سلالة النبي (ص) أو ادعى ذلك على الأقل . ومع ذلك فقد كان يوسف يعترف

(١) هكذا وردت فى الحلل الموشية (ص ٢٨) ، وقد أوردها المؤلف بنى من الزيادة فى العبارة الأخيرة هكذا : « وثالثه يا بنى إبنى لأوثر أن أرى الجلال لسلطان مراکش على أن أغدو تابعاً لملك النصارى وأن أؤدى له الجزية » . وراجع أيضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٣ ، فى ترجمة يوسف بن تاشفين . وما قاله ابن عباد بهذه المناسبة موضع خلاف . والتفق عليه هو أنه قال إن رعى الجلال خير من رعى الخنازير .

بدعوة خليفة بغداد العباسي ، بل قيل في بعض الروايات العربية إن الخليفة المستظهر بالله قد عينه أميراً على إفريقية ، وأحيط هذا التمين بجميع الرسوم والتقاليد المربية^(١) .

ويصف المتمد في كتابه (إذا صح النص الذي انتهى منه إلينا) ما وصل إليه المسلمون في الأندلس من جراء خلافهم وتفرق كلمتهم من حال يرثي لها وينتحدث عن ألفونسو ملك قشتالة في أعنف لهجة ، ويذكر كيف أنه في كل يوم ينقض على أراضي المسلمين كالسكب السمور فيميت فيها ، ويفتح الحصون ، ويسبي السكان ، ويخون في كل شيء دون أن يهب أحد من أمراء الأندلس لنفوسهم والدفاع عنهم ، وذلك بالرغم من أنهم يرون بأعينهم محنة ذويهم وأصدقائهم وجيرانهم ؛ وينسب المتمد هذا الخور والتخاذل إلى اعتدال جو الأندلس ، وإلى الشنف بالملاذ ، وإلى الحمامات ذات الماء المطر ، وإلى المآكل الشهية واليمن الناعم الرغد ، ويرجو ألا يتردد يوسف وهو سيد أم عظيمة وملك ضخم في أن يعبر إلى أسبانيا ، وأن يقاتل ذلك المدو الذي يطارد المؤمنين بكل ما يملك من غدر وخديعة قاصداً نحو الإسلام في اسبانيا^(٢) ، وكتب الوزير أبو بكر^(٣) كتاباً بنفس المعنى يؤكد فيه بحق أن إتهام سلطان المسلمين في اسبانيا لا يرجع إلا إلى تفرقهم وتخاذلهم ، وأنه ينساب يقوى النصاري بالانحداد ويتزعجون أراضي المسلمين ومعاقلهم بالعنف والخديعة وبالوعيد والوعد وبالسيوف والإقناع ، إذا يقوى المسلمين تنضب يوماً بعد يوم . وقد غصت المساجد التروكة بالقساوسة من أعداء

(١) وردت هذه الرواية في ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ وراجع الحلل الموشية ص ١٦ .

(٢) راجع نص هذا الخطاب الذي ينسب لابن عباد إرساله إلى يوسف بن تاشفين في الحلل الموشية ص ٢٨ و ٢٩ ، وقد لحصه للؤلؤ تلخيصاً حسناً ؛ وقد أشار إليه في روض القرطاس (ص ٩٢) .

(٣) جاء في الحلل الموشية أن أبا بكر هذا الذي تنسب إليه هذه الرسالة هو « أبو بكر ابن الجسد » (ص ٢٨) ، ولكن يلاحظ من جهة أخرى أن أبا بكر بن زيدون ولد الشاعر الأشهر أبو الوليد بن زيدون الخزومي كان يومئذ من وزراء المتمد بن عباد ، وكان بين رسل المتمد وسفرائه إلى يوسف بن تاشفين ، ولله هو كاتب الرسالة المشار إليها (راجع ابن خلكان ج ١ ص ٥٤ ، ونفع الطبيب ٢ ص ٥٢٦) ، أما نص هذه الرسالة فقد ورد في الحلل الموشية (ص ٣٠ و ٣١) .

الدين ، ونشرت الصلبان فوق المنائر التي كان يتلى فيها الأذان من قبل ، وأخذت النواقيس تفرع للقداس بعد أن كان يدعى للصلاة . ويختتم الوزير كتابه بقوله إن يوسف قد غدا معقد الآمال وإنه يعتقد أن الله قد اصطفاه لإيقاظ الإسلام^(١) . ولما كان يوسف قد أبدى أنه لا يستطيع العبور إلى أسبانيا إلا إذا أعطى له حصن الجزيرة فقد ارتضى أمير إشبيلية هذه التضحية بالرغم من اعتراض ولده الرشيد . وأرسل المعتمد إلى يوسف ينبئه بهذا القبول . ثم أرسل إلى ولده يزيد الراضى بالله وإلى الجزيرة يأمره بأن يسلم المدينة إلى المرابطين الذين يمينهم ابن تاشفين لتسلمها^(٢) .

ثم رأى المعتمد أن يسى إلى اجتذاب زعيم المرابطين إليه خاصة ، وأن يحمله على التعجيل بمقدمه إلى أسبانيا ، فسار إلى زيارته بالمدوة خفية فألفاه في مكان يبعد عن سبتة بثلاثة أيام يقوم بأهبات عسكرية عظيمة ، ولم يكشف المعتمد عن شخصه حتى جاز إلى قصر الأمير ، ثم طلب إلى رجال الخالص أن يخطروا أمير المسلمين بأن ابن عباد يقف يابه ، فذعرا ابن تاشفين وظن أن المعتمد قدم في جيشه ولكنه أدرك في الحال خطأ ، واستقبل المعتمد بود وترحاب ، وسرعان ما أشار إليه أن يعود إلى أسبانيا ليقوم بإعداد المؤن اللازمة للجيش الذي يعمده للعبور إلى الأندلس . فعاد ابن عباد إلى إشبيلية مستاء لخفية المسمى الذي قصد وهو أن يحمل يوسف على أن يختاره نائبا من قبله لأسبانيا المسلمة . وعلى أثر ذلك أمر يوسف بعبور جيشه من سبتة إلى الجزيرة^(٣) .

(١) تشير الرواية العربية إلى مراسلات أخرى وجهت من أمراء الأندلس إلى يوسف (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٢) .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ ونفع الطبيب ج ١ ص ٤٧ .

(٣) في هذه الرواية بعض التموض ، فالتفق عليه أن ابن عباد عبر إلى المغرب لزيارة يوسف بن تاشفين . ولكن المختلف عليه هو ما إذا كانت هذه الزيارة قد حدثت قبل موقعة الزلاقة أو بعدها . والرواية الثانية أرجح وهو أن ابن عباد عبر إلى المغرب بعد الزلاقة ليستمد عوناً في بعض شؤونه (راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠) . ويأخذ دوزي بهذه الرواية (ج ٣ ص ١٣٤) ويورد المراكشي (ص ٧٠) وصاحب روض القرطاس (ص ٩٣) الرواية الأولى وهي التي أخذ بها المؤلف .

الكتاب الثاني

سيادة المرابطين في شبه الجزيرة
في عصرى ألفونسو السادس ملك قشتالة
وآلفونسو المحارب ملك أراجون

الفصل الأول

فتوح المرابطين في اسبانيا

في عهد يوسف بن تاشفين وولده علي

حتى موقعة اقلش

(من سنة ٤٧٩ - ٥٠٢ هـ) - (١٠٨٦ - ١١٠٨ م)

١ - حملة يوسف لإنجاد الأندلس ضد الفونسو السادس

في شهر ربيع الآخر سنة أربعمائة وتسع وسبعين من الهجرة الموافق أغسطس سنة ١٠٨٦ م عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة . وما كادت السفن تنشر قلاعها حتى صعد يوسف إلى مقدم سفينته وبسط ذراعيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً : « اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاً للسلدين فسهل عليّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » . وبرى السلون الأتقياء أن البحر ما لبث أن هدأ وجازت السفن سراعاً في أبدع جو إلى شاطئ الأندلس . وما كاد يوسف يمبر إلى الشاطئ حتى صلى مفتتحاً عمله باسم الله ^(١) ، ثم تسلم قامة الجزيرة الخضراء التي تعهد بتسليمها المعتمد وألقى هنالك لاستقباله والاحتفاء بمقدمه جمعا كبيرا من القضاة والفرسان وعلى رأسهم صديقه محمد المعتمد أمير إشبيلية ^(٢) ، وأراد المعتمد أن يترجل عن جواده وأن يقبل يد يوسف إشارة

(١) هكذا ورد دعاء يوسف في روض القرطاس وروايته في جواز السفن على أثر ذلك في ربيع طيبة وصلاة يوسف على أثر عبوره هي المقصودة هنا (راجع ص ٩٣) .

(٢) تختلف الرواية الإسلامية في هذه الواقعة فالبعض يقول إن المعتمد بن عباد استقبل =

بمخضوعه ، فتمعه يوسف من ذلك لأنه لم يكن سيد القوم بعد ولم يكن سوى حليفهم ، مؤثرا أن يفرض طاعته على الجميع في فرصة أخرى . وإذ كانت الجزيرة مفتاح اسبانيا فقد أمر بتحصينها أنتم تحصين ورتب بها حامية مختارة لتسهر عليها ، وشحنها بمقادير عظيمة من الأقوات والذخائر لكي تغدو ملاذا أميناً يلتجئ إليه إذا منيت حملته بالفشل^(١) ، ثم غادرها في جيشه إلى إشبيلية . وكان كل أمير من أمراء الأندلس قد تعهد بأن يجمع ما في وسعه من الجند والمؤن ، وأن يسير إلى مكان معين في وقت معين . وكان أمير إشبيلية قد عني عناية خاصة بإعداد مقادير عظيمة من المؤن تكفي لتزويد جيش ضخم ، واستطاع بذلك أن يسبق زملاءه الأمراء في اغتنام عطف يوسف . ولبت أمير المرابطين في إشبيلية ثمانية أيام فقط يرتب أثناءها قواته وينتظر مقدم الأمراء الأندلسيين في قواتهم . وقبل السير تركت جميع الأتقال والعتاد التي لا حاجة إليها . ثم غادر الجيش إشبيلية مخترقاً أراضي أمير بطليوس ، وكان أخوه المستنصر قد عني بجمع الجند والخيول والدواب . ورتبت القوات على النظام الآتي : سار في الطليعة فرسان المرابطين وعدتهم عشرة آلاف يقودهم أبو سليمان داود بن عائشة ، وتلهم قوات الأندلس يقودها المعتمد أمير إشبيلية . وكانت قوات الأندلس تؤلف وحدها جيشاً خاصاً منفصلاً عن جيش المرابطين المؤلف من جند إفريقية . وسار من بعدهم يوم جيش المرابطين يقوده يوسف بن تاشفين ، وكان ينزل في المساء في الحملة التي يغادرها أمير إشبيلية في الصباح ، ووصلت الجيوش على هذا النحو إلى « أرطوشة » على مقربة من بطليوس ولبت هنالك ثلاثة أيام^(٢) .

= يوسف في الجزيرة وهي رواية المراكشي (ص ٧٠) وصاحب روض القرطاس (ص ٩٣) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٦) والبعض الآخر يقول إن المعتمد استقبل يوسف في إشبيلية ولم يستقبله في الجزيرة الخضراء (راجع ابن الأثير ١٠ ص ٥٢ والحلل الموشية ص ٣٧ ونفع الطيب ٢ ص ٥٢٧ والاستقصاء ج ١ ص ١١٥) والأولى هي الأرجح فيما يظهر .

(١) راجع الحلل الموشية ص ٣٥ .

(٢) أرطوشة Artosa كما في الرواية الأفرنجية ، ولكن الرواية الإسلامية تقول « طرطوشة » ، وظاهر أنها تقصد بلدة أخرى غير نهر « طرطوشة » الشهير في مقاطعة سرقسطة (راجع روض القرطاس ص ٩٤ والاستقصاء ج ١ ص ١١٦) .

وفي تلك الأثناء كان نبأ مقدم الرابطين إلى اسبانيا قد وصل على جناح السرعة إلى معسكر النصارى أمام أسوار سرقسطة ، وكان الملك ألفونسو السادس قد سير إليها معظم قواته لكي يجعل بسقوطها ، ولم يحمله على رفع الحصار عنها سوى الخوف على عاصمته طليطلة وعلى أراضيها الجنوبية . فمقد مجلسا من كبراء مملكته ، ثم حشد قواته ، وقام بأهبات حربية عظيمة ، ليخوض المعركة مع فائحي إفريقيا بنجاح . وإذ كانت الحفنة تملى بالاتحاد فقد تحالف مع سانشو راميرز^(١) Sancho Ramirez ملك أراجون وصاحب بنبلونه والكونت برنجار ريموند ، وكان الأول يشتغل يومئذ بمحاصرة طرطوشة ، وكان الثاني يتأهب لنزو بلنسية ، فعدل كل منهما عن مشروعه ، وانضما بقواتهما إلى ألفونسو ، وكان قد حشد قوات عظيمة من جليقية وليون وبسكونيه واشتوريش وقشتالة ، ومن الأراضي الإسلامية التي فتحت أخيرا ، ووفدت في الوقت نفسه لنجدة النصارى الأسبان سريات من الفرسان ، من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك وجويانه وبرجونه وبروفانس مؤمنة أن تجنى بمقاتلة أعداء الدين منافع عظيمة ، وأن تحقق سلام روحها . وتقول الرواية العربية ، وهي تبالغ أحيانا في أقوالها ، إن جيش ألفونسو كان يبلغ زهاء مائة ألف من المشاة وثمانين ألفا من الفرسان ، منهم أربعون ألفا من ذوي المدد الثقيلة ، والباقيون من ذوي المدد الخفيفة . ومن هؤلاء نحو ثلاثين ألف فارس من المسلمين من رعايا ألفونسو . أما الرواية النصرانية فإنها تلزم الصمت إزاء عدد النصارى أسوة بالرواية العربية إزاء عدد المسلمين ، ولكنها تقدر عدد الجيش الإسلامي بوضع مائة ألف أو تقول إنه كان لا يحصى عديده . لجيش من الجراد المنتشر . وقد تقترب من الحقيقة إذا قدرنا قوات كل فريق بنحو مائة وثلاثين ألفا إلى مائة وخمسين ألفا . ذلك أن جيش الرابطين الذي قاده يوسف إلى اسبانيا لا يحتمل أن يزيد كثيرا على سبعين ألف مقاتل ، ويمكن أن يقدر ما حشده أسراء الأندلس بمثل هذا المدد . ولم يك ثمة ما يجعل النصارى

(١) هو المعروف في الرواية العربية بابن رذمير .

على أن يحشدوا للقتال أكثر مما حشد أعداؤهم سيما وقد استطاعوا بعد ذلك بقليل أن يحشدوا مثل هذا الجيش مرة أخرى^(١) .
وعسكر الجيشان المتحاربان على قيد بضعة أميال من بطليوس في سهل تتخلله الأحراش ، وتسميه الرواية العربية بالزلاقة أو السهلة وتسميه الرواية النصرانية «سكرالياس» sacralias و فرق بين الجيشين هر صخير تسميه الرواية العربية بنهر حجير^(٢) وضرب يوسف محلته (معسكره) وراء ربوة عالية منفصلا عن محلة الأندلسيين^(٣) وعسكر الأندلسيون أمام النصارى ، وكانت جموع فرسانهم التي لا تدرك نهايتها الأبصار تبعث إلى قلوب الأمراء الأندلسيين اليأس من النجاح والظفر .

وكان احتشاد هذه الجموع الهائلة مع ما كانت تحمل من مؤن قليلة يهدد الجيشين بالجوع إذا طال مكثهما في تلك البقعة ، ومن ثم فقد أرسل يوسف إلى ألفونسو كتابا يخبره فيه بين ثلاث : إما أن يمتنع الإسلام ، أو يؤدي الجزية لأير الرابطين ، فإذا أبى الاثنين فعليه أن يبادر بالأهبة إلى القتال ، وأنه أى أمير الرابطين القوي قد عبر بنفسه إلى اسبانيا ليوفر على ملك النصارى هذا العناء وليلقاه بنفسه . وقد شاء الله أن يجمع الآن بينهما في ميدان واحد ،

(١) هذه تقديرات مبالغ فيها ، وتبدو مبالغة الرواية النصرانية بنوع خاص حين تقدر المسلمين بمئات الألوف . كذلك تقدم إلينا بعض الروايات الإسلامية مثل هذه التقديرات المبالغ فيها بالنسبة للنصارى ، ففي رواية مثلا أن النصارى كانوا مائتي ألف راجل وثمانين ألف فارس (راجع روض القرطاس ص ٩٠ ، وفي سياق الرسالة التي قيل إن يوسف بعث بها إلى المغرب عقب النصر ص ٩٧) ، وفي الحلل الموشية أن النصارى كانوا ثمانين ألفا ، منهم أربعون ألفاً من ذوي الدروع الثقيلة (ص ٣٨) . ولكن الروايات الإسلامية المعتدلة لا تنهض في التقدير إلى هذا الحد ، فمثلا يقدر ابن الأثير جيش النصارى بخمسين ألف مقاتل (ج ١٠ ص ٥٢) ، وفي رواية أخرى أن النصارى كانوا أربعين ألفاً غير الأتباع (فتح الطيب ٢ ص ٥٣٨) ، وفي الحلل الموشية أن المسلمين كانوا ثمانية وأربعين ألفاً نصفهم من الأندلسيين ونصفهم من الرابطين (ص ٣٨) ؛ ويقول المراكشي إن المسلمين كانوا عشرين ألفاً فقط (ص ٧١) ، وعلى أى حال فإنه يستخلص من الروايات المختلفة أن عدد المسلمين كان أقل من عدد النصارى ، (راجع أيضاً دوزي ج ٣ ص ١٢٧) .

(٢) ويسميه صاحب روض القرطاس نهر بطليوس (ص ٩٤) .

(٣) روض القرطاس (ص ٩٤) ، والاستقصاء (ج ١ ص ١١٦) .

وذلك لكي يقضى على طغيان النصارى وجشمهم^(١).

فلما قرأ ألفونسو الكتاب ألقاه على الأرض منضجاً وقال للرسول : اذهب فقل لولايك إننا سنلتقى في ساحة الحرب . وأما عن يوم اللقاء فقد كتب ملك النصارى إلى أمير الرابطين ما معناه : « إن غدا يوم الجمعة وهو يوم المسلمين ولست أراه يصلح للقتال واليوم التالى وهو السبت يوم اليهود ومنهم كثيرون في المعسكرين وإذاً فلست أختاره للقتال أيضاً . كذلك لست أختار اليوم التالى وهو يوم الأحد لأنه يوم النصارى ، وعلى ذلك فأنى أقترح للقاء يوم الاثنين ففيه يستطيع كل منا أن يجاهد بكل قواه لإحراز النصر دون الإخلال بيومه » فوقع هذا الاقتراح من يوسف موقع الرضى وتحدد للقاء يوم الاثنين ٢٦ أكتوبر سنة ١٠٨٦ وهو الموافق ١٥ رجب سنة ٤٧٩هـ^(٢).

ولكن ألفونسو كان يرى وفقاً لمبدأ ذميم ، أنه يحق له أن يلبجأ في الحرب إلى كل خدعة ، وأن ينكث بالعهود المقطوع فيقاتل قبل اليوم المضروب ليفاجئ العدو وليتمكن بذلك من هزيمته . ومن ثم فقد اعترم أن يلبجأ إلى مثل هذه الخديعة وأن يختار للقتال يوم الجمعة وهو يوم المسلمين .

بيد أن المسلمين بالرغم من إرجاء موعد القتال إلى ما بعد أيام لم يدخروا وسماً في التحوط ضد أية مفاجأة . وكان المعتمد أمير إشبيلية يرتاب بنوع خاص في نيات ملك قشتالة سيما وقد خبر من قبل خدعه في الحرب ، وعانى من جرائها

(١) توجد الرواية الإسلامية ملخص كتاب يوسف إلى ألفونسو فيما يأتى : إنه بعث كتاباً على مقصى السنة يعرض على الأذفونش الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية ، ومن فصول كتابه : « باقنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك وتعتبت أن يكون لك تلك تعبر البحر عليها ابنا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه المروعة بيننا وبينك ، وسفري عاقبة دعائك ، وما دعاه الكافرين إلا في ضلال » (راجع الحلل الموشية ص ٣٥ ، وابن خلكان ٢ ص ٤٨٣ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٧ ، والاستقصاء ١١٤) ؛ هذا مع خلاف يسير في العبارات بين مختلف الروايات .

(٢) تشير الرواية الإسلامية إلى رسالة ألفونسو ليوسف (أو لابن عباد) في هذا المعنى (المراكشى ص ٧٢ ، والحلل الموشية ص ٣٩ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٢٩) ، وراجع أيضاً دوزى (٣ ص ١٢٩) .

غير صرة ، فبث عيونهم بالليل ليرقبوا كل حركة في معسكر النصارى ، ووقف هؤلاء على أهبة النصارى للقتال فارتدوا مسرعين إلى المتمد ، وكان قد أعد جنده للنزال قبل أن يتحرك جند ألفونسو من محلهم . وفي الحال أخطر يوسف أيضا بحركات النصارى وكان يقود المعسكر الثاني والقلب والجيش الاحتياطي .

وكان ألفونسو قد قسم جيشه إلى قسمين ، فسير أولهما بقيادة الكونت جارسيا والكونت رودريك وانقض هذا الجيش بمنتهى العنف على معسكر الأندلسيين بقيادة المتمد ، وأمل ألفونسو أن يبعث بذلك المهجوم المفاجئ الروع والاضطراب في صفوف العدو . ولكن شد مدهش النصارى إذ رأوا أمامهم قبل أن يصلوا إلى المعسكر الأندلسي ، جيشا من الرابطين قوامه عشرة آلاف فارس بقيادة داود ابن عائشة وهو من أشجع قادة يوسف وأقدرهم . أجل لم يكن في وسعه أن يصمد لكثرة النصارى وعنف هجومهم وذلك بالرغم من اعتماده على قوة كبيرة من رماة السهام والنبال ، ولكنه استطاع على الأقل بوقفته الباسلة أن يحطم من عنف هجمة النصارى وأن يرغمهم بذلك على الارتداد إلى خط دفاعهم الثاني . ولم يكن ذلك بالطبع دون خسارة فادحة لحقت بالرابطين واضطرتهم إلى الارتداد فيما بعد . وعهد ملك قشتالة بقيادة جناحي جيشه إلى سانشو راميرز صاحب أراجون والكونت برنيجار ريموند ، ونولى هو قيادة القاب بنفسه . وافترن زحف النصارى وهجومهم بصياح حربى مسرور وقرع هائل للطبول . وكان أمير إشبيلية يصطحب معه منجبا فسأله عن سير الموقعة فأجابه في البداية بما يتبط المهم ولكنه عاد فبشره بحسن العاقبة ولم يكن لديه شك في نصر المسلمين^(١) ومع ذلك فقد هاله ما رأى من انقضاخ العدو على معسكره في مثل هذه الجوع الضخمة وبث منظر الفرسان النصارى في دروعهم الحديدية — وكانهم كتل من السحب القائمة ، يهوون بسيوفهم على الأندلسيين كالبرق — بين الأمراء الأندلسيين أيما روع ، فأيقنوا بالهلاك قبل خوض المعركة ولاذوا جميعا بالفرار المشين . وطوردت

(١) ينبر ابن الخطيب في الحال الموشية إلى قصة ابن عباد مع منجبه (ص ٣٩ — ٤٠) .

الصفوف الفارة في غير انتظام حتى أسوار بطليوس ، بيد أن فرسان إشبيلية يقودهم أميرهم الشجاع المتبذ استطاعوا نوعاً أن يتقدوا شرف مسلّى الأندلس ، وكان أولئك الفرسان وقد أحاطت بهم من كل صوب آلاف مؤلفة من فرسان العدو يقاتلون كالأسود المجروحة ، ويؤازرهم الفرسان المرابطون بقيادة داود ابن عائشة وهم الذين قاتلوا في البداية بمنتهى البسالة والجلد ؛ وهكذا استطاعوا أن يصمدوا لهذه المعركة الهائلة مدى حين .

وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر حيناً رأى مقاومة المتبذ تضئف تباعاً ورأى حركة الفرار تتسع بين المسلمين شيئاً فشيئاً . وكان جيش المرابطين بقيادة يوسف ابن تاشفين يربط في المحلة الثانية وراء أكمة عالية تحجبه عن أنظار النصارى ، ولم يكن قد اشترك في المعركة بعد . ولم يشترك فيها مع الجيش الأندلسي من الإفريقيين سوى الآلاف العشرة من الفرسان المرابطين بقيادة داود ابن عائشة ؛ ولكن ألفونسو ظن لسوء طالعهم خطأ أنه قد خاض المعركة مع قوى الأعداء جميعها .

ففي تلك الآونة الحاسمة وثب الجيش المرابطي المظفر إلى الميدان في الوقت الذي أخذت فيه قوى النصارى في الهبوط ، وأرسل يوسف لغوث المتبذ عدة فرق من زناتة وغيرها من البربر بقيادة أبي بكر وعزز بذلك جانب الأندلسيين في معركة مالت إلى هزيمتهم ، وبادر في الوقت نفسه بالزحف في حرسه الضخم من اللتوينين والمرابطين ، وقد كان عماد ظفره في جميع حروبه الإفريقية . واستطاع بحركة بارعة أن يباغت معسكر ألفونسو وأن يحدق به . وكان ألفونسو يدفع جنده في غمرة المعركة دائماً إلى الأمام ، حتى استطاع أن يوقع الهزيمة بالمتبذ ، وأن يلجئه إلى الفرار بالرغم من قدوم النجدة الرابطة لقوته ؛ وبينما هو مشغول بمطاردة العدو المهزم ، إذا به يقع فجأة على جموع فارة من النصارى ، وقد كان أولئك حرس معسكره ، فانقض عليهم يوسف بجيشه الزاخر واضطربهم إلى الفرار . وعلم النصارى مع الروع أن يوسف قد احتوى المعسكر النصراني وقتك بمعظم حراسه واستولى على جميع ما فيه من نقائس ، وأحرق الخيام وغت المتاع .

وما كاد ألفونسو يقف على هذا النبا حتى ترك مطاردة الأندلسيين ومن معهم من الرابطين ، وارتد من فوره ليسترد معسكره الذى انتزعه يوسف وليوقع الهزيمة هناك بأعدائه . ولكن يوسف لم ينتظر حتى يهاجمه ألفونسو بل انقض فى جموعه المظفرة على النصارى كالسيل يحمل من يصادره . ومع أن النصارى كانت قد خبت قواهم من استطالة النضال ، فإنهم قاتلوا قلب الجيش الإفريقى بشجاعة وجلد حتى أن يوسف بالرغم من عنف وثبته وجدة قواه بدأ يرتاب فى بلوغ النصر ، فأخذ يثب بجواده السريع بين جنده من صف إلى آخر وهو يذكى حماسهم للقتال ويقول : « يامعشر المسلمين اصبروا واصبروا دائماً فى هذا الجهاد المقدس . ولقد نقص الله عدد المشركين ، وإن الجنة ماثوى الشهداء ، وإن اخوانكم الذين استشهدوا لينعموا بأعظم ضروب السعادة فى جنات الخلد »^(١) ولم يكن تشجيع يوسف لجنده بقدرته أقل من كلماته ، فقد كان فى مقدمة الصفوف يخوض غمار المعركة فى ذروة لظاها ، وقد قتلت تحت أفراس ثلاث ، وكأنما كانت تحميه من الطمان يد العناية . وقاتل الرابطون فى هذا اليوم وهم يضطرمون شرقا إلى الاستشهاد ، وكأنما كانوا يجدون فى طلب الموت فى أعمنى صفوف العدو حتى يفوزوا بنعيم الخلد . كذلك قاتل النصارى فى هذا اليوم المصيب بإخلاص يضطرم للدين وللوطن . ودام القتل التدريع بضع ساعات ، وسقطت ألوف مؤلنة وقد حصدهم الموت حصاد الهشيم ، وغمر دم القتلى ساحة الحرب ، وغرق بمض السافطين فى دم الأولى قتلهم . وأخيراً بدت طلائع الوقعة الحاسمة قبيل دخول الظلام ؛ وكان أمير إشبيلية وداد ابن عائشة قد لاحظا عند ارتدادهما فى اتجاه بطليوس أن ألفونسو قد كف عن المطاردة فجأة ؛ وسرعان ما علم كيف مال

(١) المفروض أن المؤلف يقصد هنا إلى معانى المبارات التى خاطب بها يوسف جنده فى ذلك الموقف ، وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية تصف هذا المنظر بما يأتي : « وكان أمير المسلمين على فرس أنثى يمر بين سافات المسلمين يحرضهم ويقوى نفوسهم على الجهاد والصبر ويقول : « يامعشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والفنية » ، فقاتل المسلمون فى ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب فى الموت (روض القرطاس ص ٩٥) .

النصر إلى جانب يوسف ، فجعل قواتهما وهروا إلى الميدان مرة أخرى ؛ وهكذا هوجم النصارى من الجانبين في وقت واحد ، وهكذا حقت عليهم الهزيمة ولم يبق أمامهم إلا أن يقاتلوا قتال اليأس أو أن يركنوا إلى الفرار . على أن الظافرين في يومهم لم يفكروا في مسأئهم إلا في موت شريف وذلك بعد أن أفل طالعهم كل الأفل . وأما جن الليل وبسط الظلام حجاباً على السهل الذي غطى بالجثث والدماء ، ركنت فلول ضئيلة من الجيش النصراني إلى الفرار ، وهلكت البقية في موت مجيد من أجل الوطن والدين .

وأصيب الملك ألفونسو من طعنة حربة بجرح شديد في فخذه ، وكان يقاتل بشجاعة فائقة ويقود الصفوف بنفسه ؛ ولم يرد أن يعيش بعد الهزيمة ، ولم توجد قطرة ماء يروى بها الجريح عطشه المروع ، وأخيراً وقع بمضهم على قليل من النبيذ فسقوه للملك ؛ وقاده بالرغم منه زهاء خمسمائة فارس وحملوه معهم إلى ربوة عالية ، وانحدروا منها تحت جناح الظلام حتى مدينة قورية .

وتعرف الرواية العربية هذه الموقعة المزدوجة التي استمر لظاها في يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م الموافق ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ بأنهم واحد هو موقعة الزلاقة^(١) ، وهو اسم السهل الذي وقعت فيه ؛ وتسمى الرواية النصرانية الموقعة الأولى التي نشبت ضد أمير إشبيلية وداود ابن عائشة بموقعة « رودا » ، وتعرف الموقعة المروعة التي نشبت ضد يوسف بموقعة « ساكر الياس » . ويبدو من الإيجاز الذي يلتزمه الرواة النصارى إزاء هذا النصر العظيم للإسلام على النصرانية

(١) تختلف الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ موقعة الزلاقة ، فيقول ابن خلكان (تقلا عن البيهقي) إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ (ج ٢ ص ٤٨٤) ، ويتفق ابن الأثير معه في السنة ولكنه يقول إنها كانت في أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) ، ويقول المراكشي إنها كانت في ١٣ رمضان سنة ٤٨٠ هـ (ص ٧٢) ، ويقول ابن خلدون إنها كانت سنة ٤٨١ هـ (ج ٦ ص ١٨٦) ؛ ولكن ورد في روض الفرج (ص ٩٦) وفي الحلال الموشية (ص ٤٠ — ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ وهذا اليوم يوافق ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ، وهو التاريخ الذي تضمنه الرواية النصرانية للموقعة ، وهي بذلك أسح الروايات ، راجع أيضاً دوزي (ج ٣ ص ١٢٩) والمهاشم .

في شبه الجزيرة مرة أخرى كيف يتناول المهزومون سير هزائمهم في غضاضة وإحجام ؛ وهذا الإيجاز والغموض اللذان أحاطا بالرواية النصرانية هو السبب في كونها قد جمعت من الموقعة الواحدة موقعتين مختلفتين تبعاً للزمان والمكان .

والظاهر أن عدد القتلى في الزلافة كان فادحاً جداً ، ويعترف النصارى أنفسهم بأنه قد سقطت منهم جموع عظيمة . على أنه يبدو من الإغراق ما نقصه الرواية المربية من أن عدد القتلى والأسرى من النصارى قد بلغ مائة وثمانين ألفاً . وأن ألفونسو لاذ بالنجاة إلى طليطلة في مائة فارس فقط ، وأن المسلمين لم يفقدوا سوى ثلاثة آلاف مقاتل^(١) ؛ بيد أنه من الواضح أن خسارة المسلمين لم تكن أقل بكثير من خسارة النصارى^(٢) .

وقضى المسلمون ليلتهم في ساحة القتال فوق أكداس القتلى والجرحى ، وقد امتزجت أناشيد نصرهم بأنين المحتضرين وزفرائهم . فلما بزغ الفجر أدبوا صلاة الصبح في السهل الدامى ، ثم حشدوا جموع الأسرى وجمعوا الأسلاب والفنائم لقسمتها . وأعد يوسف من عمله الدامى لجيشه منظراً مدهشاً مروعاً ؛ ذلك أنه أمر برؤوس القتلى من النصارى فحزت وصفت في ساحة القتال على شكل أهرام ، ثم أمر فأذن للصلاة من فوق أحدها . وقد جمعت على هذا النحو عشرون ألف رأس ، وهو عدد يبدو بميداً عن المبالغة . ولكن الذى تطبعه المبالغة هو ما يقوله بعض الرواة المسلمين من أن يوسف قد أرسل من هذه الرؤوس عشرة آلاف إلى إشبيلية ، ومثلها إلى قرطبة ، ومثلها إلى بلنسية ، وعشرة آلاف إلى سرقسطة ومرسية ؛ وأرسل أربعين ألف رأس لتوزيعها على مدن المغرب ؛

(١) هذه رواية صاحب روض الفرج (ص ٩٦) .

(٢) راجع أقوال الرواية الإسلامية في هذا الموطن في روض الفرج (ص ٩٧) ، وابن الأثير (ج ١٠ ص ٥٣) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٤٨٤) ، والمراكمى (ص ٧٢) ؛ وأرجح الروايات فيما يظهر هو أن ملك قشتالة فر في بضع مائة من جنسده فقط قد يلفون ثلاثمائة أو خمسمائة ، وهي متفقة مع أقوال الرواية النصرانية (راجع أيضاً أقوال صاحب الروض المطار في نفح الطيب (ج ٢ ص ٥٣١) .

وذلك لكي تحتفظ جميع الحواضر بذكرى النصر العظيم^(١).

وذاع خبر هذه الموقعة الكبرى في جميع الأقطار وأمر يوسف فكتب عنها بلاغ أربيل إلى إفريقية وقرى في الساجد في جميع مدن المملكة ، وعقدت صلوات الشكر على جانبي المضيق في إفريقية والأندلس ابتهاجا بإتقاد الإسلام في أسبانيا : وفاض قريض الشعراء في الإشادة بمظايم يوم الزلاقة ؛ ونظم المتمد أمير إشبيلية الباسل — وقد أصيب في الموقعة بستة جروح — في الحال قصيدة يصف فيها الموقعة الرائعة كما شهداها^(٢) وكتب في نفس المساء إلى ولده الرشيد في إشبيلية يبشره بانتصار المسلمين وما أصاب النصارى من هزيمة ساحقة ، وحلت البشرى السارة حماسة كان قد حملها معه لإجراء المخاربة السريعة ، فطارت من بطليوس إلى إشبيلية في بضع دقائق^(٣) وأمر الأمير فقرئت البشرى على الناس في المسجد الجامع ، وعقدت صلوات الشكر وحفلات الابتهاج واقترنت بإضاءة المدينة وفقاً لتقاليد العصر ؛ وهكذا احتفل بالنصر في إشبيلية وهي على مسيرة أيام من الزلاقة في نفس الليلة قبل أن يغادر جيش المرابطين والأندلسيين ساحة الحرب الدامية . وقد ورد في بعض الروايات العربية والنصرانية أن يوسف تلقب عقب انتصاره في الزلاقة بأمر المؤمنين وهي رواية يشك في صحتها ولا تتفق مع ما تقدم من أنه اتخذ هذا اللقب من قبل^(٤).

(١) هذا هو ما تذكره الرواية العربية في الواقع بنصه وتفصيله ، وخصوصاً صاحب روض القرطاس (ص ٩٦) ، وراجع أيضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٣١ . بيد أن هذه التفاصيل تحمل فيما يبدو طابع المبالغة ويقدم إلينا في الحلال الموشية رواية أكثر اعتدالاً (ص ٤٤) .

(٢) راجع شعر المتمد بن عباد في يوم الزلاقة في قلائد المعيان (ص ١٣) .

(٣) أورد صاحب الروض المظار مضمون كتاب ابن عباد إلى ولده الرشيد (أو نصه) عن نبأ النصر العظيم (راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٣١) ، وأشار ابن خلكان إلى قصة الخيانة التي حلت بالبشرى في نفس اليوم (ج ٢ ص ٤٨٥) .

(٤) هذه هي رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس (ص ٨٨) ، ولكن سبق أن أشرنا إلى رواية ابن خلدون في ذلك ، وأن يوسف بن تاشفين اكتفى بلقب أمير المسلمين ، وأنه كان ينشئ تحت لواء الدعوة العباسية ، وأن الخليفة العباسي أجابه إلى ما طلب من إقراره على ولاية المغرب ، وأرسل إليه بالعهد والمخلع والتشريف (ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨) .

وقد كان حريا أن تترتب على هذا النصر الباهر الذى أحرزه المرابطون نتائج عظيمة لو أحسن استغلاله ، وكان ألفونسو أقل همة وعزما مما أبدى ؛ وكما حدث عقب موقعة شريش الفرتيرة من انهيار الملكة القوطية فى نحو عام ، فكذلك كان حريا أن تسحق الملكة النصرانية فى مثل هذا الوقت القصير لو أن الظافرين تابعوا سيرهم فى الحال ، كما فعل فاتحما الأندلس طارق وموسى ولم يترك للتصاوى وقت للنهوض من عثرتهم ؛ ولكن كان من حسن طالع أسبانيا النصرانية أنه لم يكن على رأسها يومئذ ملك ضعيف مثل لدريق (رودريك) بل كان على رأسها ملك بطل هو ألفونسو السادس . ولم تبعث المحنة بأسا إلى قلبه بل أخذ يجد فى حشد جيش جديد ، وعاونوه فى ذلك طرف موافق هو أن يوسف تانى عقب فوزه من إفريقية نبأ بوفاة ولده أبى بكر سير الذى خلفه أثناء غيابه على حكومة مراكش ، فمجل قبل كل شىء بالموود إلى إفريقية . ولما كان فى نيته أن يعود إلى الأندلس بعد تدبير شئون مراكش ليتابع فيها الحرب بنفسه ، فقد ولى أثناء غيابه قيادة الجيش المرابطى الذى فقد من جراء موقعة الزلاقة كثيرا من قوته قائده الشجاع سير بن أبى بكر ؛ ونفذ سير مع أمير بطليوس إلى أواسط البرتغال الحالية مما إلى نهر تاجه وأثنى فى تلك الأنحاء تخريبا ونهبيا ، وأسرا كل سكانها العزل ؛ وزحف المعتمد أمير إشبيلية فى قوة كبيرة من الفرسان على ولاية طليطلة واستولى على عدة مدن من بينها اقلش (أو اقليج) وقونقة ووبذى وغيرها ، ثم نفذ إلى أرض مرسية حيث كانت جموع كبيرة من الفرسان النصارى بقيادة الكنيطور (الكبيادور) تغير على المدن الإسلامية لحسابها الخاص ؛ وكانت قبل ذلك بقليل قد هاجمت صاحب المرية وضيق عليه ، حتى أنه لم يستطع أن يرسل قواته لمداونة جيش المرابطين قبل موقعة الزلاقة . واشتد المعتمد بما أصاب من الظفر ، ولم يابه لقوة الفرسان النصارى لكونها كانت تقل عن قوته عددا ، فاشتبك معهم دون تحوط فى معركة خسر فيها ثمار ظفره الأخير ، واضطر أن يركن إلى الفرار وهو يضطرم سخطا وغما ؛ ولم ينقذه من مطاردة أعدائه سوى

التجائه إلى قلعة لورقة لدى واليها صديقه محمد بن لبون ، ثم غادرها إلى قرطبة زيادة في التحوط لسلامته تاركا مرسية لمصيرها . أما الفرسان النصارى فقد انضمت إليهم قوة من القشتاليين أرسلها إليهم ألفونسو ، وأخذوا يهددون المدن الإسلامية في تلك الأنحاء ، خصوصا وقد كان لهم في حصن لبيط (أليدو)^(١) الواقع على مسيرة يوم من لورقة مقل أمين ؛ وكانوا ينطلقون منه فينقضون كالبرق الخاطف على الأراضي المجاورة ويمنون فيها عيثا وتخريرا .

وفي ذلك الحين استطاع ألفونسو بسرعة مذهشة أن يحمشد جيشا آخر ، ووفد عليه سبل من الفرسان والمخاريين الفرنسيين والنورمانيين ؛ وكانت روح الفروسية المعاصرة التي اضطرت بمدئذ بقليل في الحروب الصليبية قد دفعت إلى اسبانيا بالآلاف من فرنسا ومن جهات الألب لتشد هنالك أزر النصرانية في معركتها ضد الإسلام .

ولم يمض عام حتى كان ملك قشتالة قد استعد لمحاربة أعدائه . وقد كان عندئذ أقوى منهم . ذلك أن الثفرة التي حدثت في صفوفهم من جراء خسائهم في الزلاقة لم تمزحها بمد جنود جديدة من إفريقية ، وقد سحب أمراء الأندلس قواتهم من الجيش العام حين عودتهم إلى أراضيهم . وتؤكد الرواية النصرانية أن ألفونسو خرج للغزوة مرة أخرى في سنة ١٠٨٧ م ، وأنه وصل في غزوته إلى قرب إشبيلية . وسارت في الوقت نفسه قوة أخرى من القشتاليين بمؤازرة فرسان حصن لبيط فعانت في ولاية مرسية . هذا بينما شغلت سرقطة وبلنسية برد هجمات أمراء الأقاليم الجبلية فيما وراء البرنية .

ولم تك تجمع كلمة الأمراء الأندلسيين روابط الاتحاد القوية ، بل كانت تسودهم بالمعكس عواطف الأثرة والحسد . وهكذا فقد كان المعتمد يرى أنه غدا بعد الحوادث الأخيرة أشدهم خسارة من حيث الهيبة ، لأن الأمراء الذين كانوا

(١) تسمى الرواية العربية حصن Alédo بحصن لبيط أو لبيط ، (راجع معجم ياقوت ج ٧ ص ٣١٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٩ ، والاستقصاء ص ١١٩) ، ويسمى ابن الأثير بحصن ليط (ج ١٠ ص ٥٣) ، وكذلك المراكشي (ص ٧١) .

يخضعون له من قبل استردوا استقلالهم ، وكان يتطلع إلى استعادة سلطانه عليهم بل إلى تقويته وزيادته . وكان يعتمد في تحقيق غايته على معاونة الجيش المراتبي وبحاول أن يوجهه في سبيل مشاريعه . ومن ثم فقد سار إلى إفريقية لرؤية يوسف ابن تاشفين^(١) ، وبسط له ما يسود الأمراء المسلمين من عوامل التفرق ، وكيف غدا قائد المراتبين في الأندلس دون قوة ودون توفير ، ولم تنج بسبب ذلك فرصة للاستفادة من نصر يوم الزلاقة ، ثم طلب إليه نظرا لانتعاش قوى النصارى ، أن يمهّد إليه بقيادة الجيوش المراتبية ، وأن بكل إليه تدبير شؤون الأندلس ؛ وشد ما كانت دهشة المعتمد حينما علم بأن يوسف بدلا من أن يجيئه إلى طلبه ، رأى لكى يروض ما خسر الإسلام في الزلاقة ويحقق له ظفرا جديدا ، أن يمبر في جيش جديد إلى الأندلس وأن يتولى بنفسه تدبير كل شيء ، وهكذا عاد المعتمد إلى إشبيلية وهو عالم بهذا العزم .

وفي شهر يونيه سنة ١٠٨٨ الموافق شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ ، عبر يوسف بن تاشفين إلى الجزيرة الخضراء بجيش ضخم ، وأعد المعتمد ما يجب لاستقباله ؛ وفي هذه الغزوة الثانية لأسبانيا رأى يوسف أن يسير من مالقة إلى مرسية حيث كان المسلمون يومئذ في أشد المآزق من جراء غارات النصارى . وأمر يوسف جميع أمراء الأندلس أن يوافوه بقواتهم إلى إقليم مرسية عند حصن لبيط ليحتمموا هنالك بجيش المراتبين ، تخف الأمراء إلى دعوته ، وفي مقدمتهم المعتمد وتميم بن بلسكين وإلى مالقة وأخوه عبد الله بن بلسكين وإلى غرناطة ، وولاية بياسة وجيان ولورقة ومرسية ، وكانوا يعتبرون أنفسهم من الأمراء المستقلين لا من أتباع المعتمد . وظهر الجعشم أمير المرية بين فرسانه البيض في نوب مراتبي أسود فكان كما يصفه بعض الرواة العرب كالغراب الأسود بين الحمام الأبيض . ومع أن المدافعين عن حصن لبيط من النصارى لم يزد عددهم على ألف فارس واثنى عشر ألفا من المشاة ، فإن القوى الإسلامية المتحدة لم توفق إلى

(١) سبق أن أشرنا إلى زيارة ابن عباد للمغرب وما ورد فيها من مختلف الأقوال .

الاستيلاء عليه بالرغم من جهودها وكثرتها وآلات الحصار التي لجأت إليها . وعانى المسلمون خسائر فادحة من انقضاء المحصورين عليهم بين آونة وأخرى . ورأى يوسف والمعتد أخيرا عبث هذه المحاولة واعتزما أن يرفعا الحصار عن القلعة حتى لا يضيع الوقت في الحصار دون طائل ، وحتى لا يتمكن ألفونسو من المضى في أهبة . ولما أخطر المعتد في المجلس الذي عقد لهذه الغاية أمراء الأندلس بهذا القرار ، اعترض عليه أولئك الذين تقع مدنهم وعمالاتهم في مرسية ، ورأوا فيه نوعا من القدر بهم ، وثار أحدهم وهو عبد العزيز بن رشيق وهو من الولاة التابعين لإشبيلية ، حينما رماه المعتد بأنه متحالف سرا مع ألفونسو ، وشهر على المعتد سيفه ليطش به . فأمر يوسف بالقبض عليه وسلم إلى المعتد فشد في اعتقاله . وكان لهذه الواقعة أكبر أثر في سير الحوادث . ذلك أن جند مرسية ما كادوا يقفون على ما وقع لأمرهم حتى اجتمعوا ساخطين ، وأبوا — رغم كل نصيح — البقاء في محلة المرابطين ، وساروا بقيادة زعمائهم إلى حدود مرسية واعتصموا بشعب الجبال ، وعملوا على قطع المؤن عن الجيش المرابطي ، وسرعان ما حل به الضيق . هذا إلى أن بعض الولاة الآخرين الذين ضاقوا ذرعا بغطرسة المعتد آثروا مفادرة الميدان .

وهكذا أنقذ حصن لبيط . ولكن ألفونسو رأى نظرا لموقع الحصن في قلب بلاد الأعداء أنه لا يمكن الدفاع عنه دون حامية كبيرة ، فأمر عندئذ بتقويض أسواره وإخلائه ممن بقي فيه من النصاري وكانوا مائة فارس وألف راجل هم البقية الباقية من ثلاثة عشر ألف مقاتل ؛ ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم ، وقد ظفر بأجباط خطط أعدائه (سنة ١٠٩٠ م — ٤٨٣ هـ) (١) .

/

(١) تتفق معظم هذه التفاصيل التي يوردها المؤرخ عن حصار حصن لبيط وما إليه من المارك والوقائع مع ما أورده ابن زرع في روض القرطاس (ص ٩٩) ، وابن الخطيب في الحلال الموشية (ص ٤٩ و ٥٠) .

٢ — خضوع اسبانيا الجنوبية لسلطان المرابطين

كما أنه وجد بين النصارى وقت المحنة طائفة خانوا الوطن وتحالفوا عليه مع أعداء دينهم — ويذكر لنا التاريخ في مقدمة هؤلاء الكونت جارسيا أردونز — فكذلك تمحضت ظروف الأندلس المضطربة عن هذه الحقيقة ، وهي أن ذوى السلطان — تسيرهم عوامل الأثرة — حاولوا توطيد سلطانهم بأى الوسائل ولو على حساب الإسلام ذاته . أجل كان المرابطون فى نظر الأمراء الأندلسيين أشد وطأة عليهم من النصارى ، ولم يتورع بعضهم عن التحالف سرا مع الملك ألفونسو أملا فى التمكن بمعونته من طرد أولئك الإفريقيين الذين استدعواهم بأنفسهم من قبل .

وقف سلطان المرابطين على جنوح الأمراء الأندلسيين إلى هذا الاتجاه من فائده سير بن أبى بكر الذى عهد إليه أثناء غيبته بقيادة الجيش فى أسبانيا ، فلم يلبث سوى قليل فى إفريقية ، ثم عاد إلى اسبانيا دون أن يستدعيه أحد من الأمراء وهو يعترزم هذه المرة أن يقضى بآدى بذى بدء على سلطان الأمراء الأندلسيين ، مؤملا أن يتمكن بعد ذلك من محاربة النصارى بنجاح وظفر .

وعبر يوسف إلى اسبانيا دون أن يقف على نيته أحد متظاهراً بأنه يعترزم محاربة النصارى بكل ما وسع ، وسير قواه الضخمة التى عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ، إلى مختلف الأنحاء الداخلية . ولم يطلب هذه المرة من الأمراء المسلمين جنداً لمعونته ، ولم يعرضوا عليه هم معونتهم ، وقد كانوا يومئذ يرقبون حركات المرابطين جزعين أشد الجزع على سلامتهم . وسار يوسف على رأس جيشه العام إلى طليطلة ، وبعد أن عاث فيها ونفذ حتى ظاهر عاصمة قشتالة ، ارتد فجأة نحو الأندلس ، وسير فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن ، وسار بنفسه إلى مدينة غرناطة .

وكان يوسف أشد ما يكون ارتياباً فى أمير غرناطة عبد الله بن بلكين بن

باديس . وكان يتهم بالتحالف سرا مع ألفونسو ومماوته بالمال . فلما اقترب الراباطون من المدينة تردد عبد الله بين إغلاقها في وجوههم ، وبين الخروج إلى لقاء سلطان الراباطين واتقاء الماصفة الوشيكة باستقبال ودى . وكان وانحما من حركات الجند القادمين أن يوسف لم يكن ينوى بالمدينة خيراً . وتختلف الروايات العربية في كيفية استيلاء يوسف على غرناطة . ولكن أرجحها فيما يظهر هو أنه استولى عليها بطريق الحيلة والخديعة . ذلك أنه أخفى مقاصده واستقبله عبد الله بترحاب . وما كاد جنده يدخلون المدينة حتى أسر عبد الله وأرسل مع أهله سجيناً إلى أغمت بالقرب من مراکش^(١) . وأذيع تطميناً لباقي الأمراء أن عبد الله نزل عن المدينة مختاراً وعوض عنها بأملك واسعة في إفريقية . وأرسل أميراً إشبيلية وبطليوس كل منهما سفيراً إلى غرناطة ينتحل لسفارته عذراً ، ولكنهما ذهبا في الواقع ليستوضحا حقيقة الأمر في شأن غرناطة فلقيا من يوسف كل إغراض ومهانة ، حتى أنه لم يبقا بهما بنفسه ، فعادا إلى أميريهما يضطربان جزعاً وسخطاً^(٢) . وكانت حركات يوسف التالية تفصح بوضوح وجلاء إلى أى حد كان مصير عبد الله عبرة لباقي أمراء الأندلس . وقد أخفق يوسف في القبض على أبي مروان عبيد الله عز الدولة ولد أمير الريّة الذي أوفده والده إلى غرناطة لثقل المهمة التي قدم من أجلها سفيراً إشبيلية وبطليوس ، لأنه استطاع أن يفر متنكراً ولكنه قبض على نعيم بن بلكين والى مالقة ، وبعث به سجيناً إلى إفريقية ليشاطر مصير أخيه عبد الله واستولى الراباطون على مدينته .

(١) تختلف الرواية الإسلامية في كيفية استيلاء الراباطين على غرناطة ، فالبعض يقول باستيلاء الراباطين عليها بطريق القدر والحيلة (راجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣) ، والبعض يقول بأنهم استولوا عليها عنوة ، (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧) ، وفي روض القرطاس أن يوسف استولى عليها بالأمان بعد أن حاصرها شهرين (ص ١٠٠) ، وفي الحلال الوشيبة أن صاحب غرناطة هو الذي سلمها من تلقاء نفسه (ص ٥١) .

(٢) جاء في الحلال الوشيبة أن المتمد بن عباد والأفطس هما اللذان قصدا إلى غرناطة لرؤية يوسف وتهنئته فلقيا منه إغراضاً (ص ٥١) .

ثم عبر يوسف إلى سبتة لكي يبعث إرسال الجند منها إلى الأندلس ، وترك قائده سير بن أبي بكر في غرناطة على رأس الجيش المرابطي .

وسير يوسف إلى الأندلس أربعة جيوش في وقت واحد ، كل منها تحت إمرة قائد خاص لقتال أسراء الأندلس ، ولتحول دون اجتماع قواهم في أى مكان ولتقضى على سلطانهم بأسرع وقت . وتقرر أن تصوب الضربة الأولى إلى أقواهم وأشدّهم بأساً ، وهو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرمونة واستجة وقرطبة وبقاع أخرى في مرسية ، فيفرض سقوطه حتماً إلى سقوط الآخرين . وتذهب المرابطون لذلك خير أهبة ، فسار إلى إشبيلية جيش بقيادة سير بن أبي بكر ليأخذها ، ثم ينقض بمدن على بطليوس . وزحف جيش ثان بقيادة أبي عبد الله ابن الحاج إلى قرطبة ، وكان واليها ولد المعتمد الفتح أبو ناصر (المأمون) ، وسار جيش ثالث بقيادة جرور المتوفى إلى أرض رندة وفيها ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضى بالله . وزحف الجيش الرابع والآخر بقيادة أبي زكريا بن واسنو على المريّة وفيها المعتمد بن صامح صديق المعتمد الحميم ؛ وبقي يوسف في سبتة على رأس جيش احتياطي لكي يقوم عند الحاجة بإيجاد هذا الجيش أو ذاك^(١) . وكانت هذه الأهبة واضحة الدلالة في كونها أعدت لسحق الأسراء الأندلسيين ، وذلك بالرغم من أن القواد المرابطين حاولوا نزولاً على أمر يوسف ، إخواناً مقاصدهم العدائية مدى حين . وما كاد سير بن أبي بكر يجوز إلى أرض إشبيلية حتى ألقي المعتمد متأهباً لقتاله ، وكان قد لح نذير العاصفة ، وبذا سقط قناع الصداقة ؛ وقاد المعتمد جنده لمقاومة المرابطين في الميدان بالرغم من تفوقهم عليه ؛ ومع أنه حرص على ألا يشتبك معهم في معركة حاسمة فإنه اشتبك معهم في عدة معارك صغيرة مؤملاً بذلك أن ينهك قوى خصومه ، وأن يطاوهم مدى حين ؛ ولكن المرابطين كانوا في وفرة من المدد وكانوا يقاتلون في عدة أماكن ، فلم يفد المعتمد

(١) هذه التفاصيل في توزيع الجيوش المرابطية نطابق ما ورد في الحلال المشقة

إلا قليلاً أو لم يفد شيئاً من كفاحه . وسارت قوة من المرابطين إلى جيان وانترعتها عنوة ثم انضمت إلى الجيش الذى يقوده جرور ، وكان قد هزم أمام أسوار قرطبة . ولم يبق عندئذ فى وسع عاصمة الأندلس القديمة أن تصمد أمام هذا الجيش الزاخر ، ومن ثم فقد آثرت قرطبة أن تصنى إلى ما وعدت به من تأمين للنفس والمال إذا بادرت بالتسليم على دفاع مشكوك فى عواقبه ؛ ولكن جرور الإفريقى لم يعرف إزاء الأندلسيين قدس العهد ، كما لم يعرفه مواطنه هانيبال إزاء الرومان من قبل ، فقتل كثير من أهل قرطبة ، وأمنن الغزاة فيها نهياً وسلباً ؛ وكان بين القتلى ولد المتمدد الباسل فتح المأمون ، وكان فتى فى عنفوانه وكان معقد الآمال (صفر سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م) . وقتل فى نفس الوقت ولد آخر للمتمدد هو يزيد الراضى بالله والى رندة ، وكان مقتله عقب أخذها انتها كما لكل ذمام وإنسانية بعد أن قطعت لتأمين حياته أوثق المهود .

وهكذا اقتصر سلطان المتمدد على مدينتين هما إشبيلية وقرمونة ؛ وكان المرابطون قد وصلوا فى زحفهم إلى مدن الحدود مما يلي ولاية طليطلة وأخذت سراياهم تهدد الأراضى النصرانية ؛ ثم حاصروا قلعة رباح واستولوا عليها ؛ وبذا فتحت أمامهم طريق قشتالة . فى تلك الآونة العصيبة استغاث أمير إشبيلية ألفونسو السادس ، ونسى ألفونسو عداؤه القديم ، وعقد الخطر المشترك بينهما أواصر الصداقة ؛ ومن المحتمل أن يكون ألفونسو توثيقاً للروابط المشتركة قد تزوج عندئذ بسيدة ابنة المتمدد وهى التى تسمت بعد تنصرها باسم ماريأ أو كما يقول البعض باسم اليزابيث أو اتخذها حظية فى بلاطه^(١) وقد كان بعض ملوك النصارى يقلدون أسراء المسلمين يومئذ فى اتخاذ الحظايا وكان ذلك مثار سخف رجال الدين .

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير (فى ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ — ١٠٩١ م).

(١) سبق أن أوضحنا سقم هذه الرواية وسخفها ، والرواية الإسلامية لا تشير إليها بكلمة قط ؛ ولو صحت لأضيفت إلى ثبت التهم الشنيعة الأخرى التى تنسبها الروايات الخصبية للمتمدد وهى لم تنجم عن اتهامه فى دينه ورميه بالإلحاد .

وكان يظن أنها لا تؤخذ لنعتها ، فلم يبق أمام أمير إشبيلية إلا الاعتماد على أمداد النصارى . وقد سارت هذه الأمداد بقيادة الكونت جومز وعدتها أريمون ألب راجل وعشرون ألف فارس^(١) ووصلت إلى مقربة من قرطبة وهناك لقيهم قائد الرابطين إبراهيم بن إسحاق في جنده الشجعان ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية أصاب فيها الرابطون بالرغم من خسارتهم الفادحة نصراً مبنياً ، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة الرابطين ؛ وكانوا قد ضربوا حولها الحصار وكان سير بن أبي بكر يقود الجيش المحاصر . ولما وقف المعتمد على هزيمة النصارى غاض منه كل أمل في رفع الحصار ، وتقول بعض الرويات إنه استمر في المقاومة حتى أخذت المدينة عنوة ، وهو قول غير محتمل . والأرجح أنه سلم المدينة إلى الرابطين بعد أن قطعوا له عهداً بتأمينه وآله وشعبه في النفس والمال ، وكان سقوطها في رجب سنة ٤٨٤ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٠٩١ م^(٢) .

كانت خاتمة محمد بن عباد المعتمد مأساة ألمية ، وكانت عبرة لتقلب الدهر والجدود . ذلك أن الرجل الذي لبث زهاء ربع قرن يقبض بيديه على مصائر أسبانيا ، والذي كان يحكم سواد النصف الجنوبي لشبه الجزيرة ، والذي يرجع الفضل إليه في استيلاء ألفونسو على طليطلة ، والذي استدعى الرابطين إلى الأندلس ،

(١) تسمى الرواية الإسلامية قائد الفشتالين في هذا الموطن « بالفريش » ، وهو فيما يظهر تحريف لاسم « جومز » ، وتتفق مع الرواية النصرانية في عدد النصارى (روض القرطاس ص ١٠٠) . ويقول دوزي إن قائد الفشتالين عندئذ كان « الفارفانيس » Alvar Fanes (وهو بالبرية البرهانس) معتمداً على الرواية النصرانية ، (راجع ج ٣ ص ١٤٩ والهامش) .

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن الرابطين استولوا على إشبيلية عنوة ، وأن المعتمد بن عباد استمر في المقاومة حتى آخر لحظة ، وتووه كلها بفاثق شجاعته وبسالته ، (راجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ ، والمراكشي ص ٧٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٥٣) . وللمعتمد نفسه شعر شهير في هذه الموقعة بصف فيه كيف لقي أعداءه يوم الصراع الأخير ، راجع فلانده المقيان ص ٢١ و ٢٢ ، والمراكشي ص ٧٧) ، ويأخذ دوزي بهذه الرواية ويترجم شعر المعتمد (ج ٣ ص ١٤٩ و ١٥٠) ، وينفرد صاحب روض القرطاس بالقول بأن المعتمد سلم المدينة بالأمان (ص ١٠١) ، ورددها ابن الأثير فقط (ج ١٠ ص ٦٥) .

اختتم حياته الباهرة في غمر البؤس والحزن وظلام السجن . ولما أخذت إشبيلية قبض عليه وعلى نسائه وأبنائه وبناته ، وقد كان له من الولد نحو مائة ، وأرسلوا إلى إفريقية . ولما سارت السفين التي حملوا عليها ضجوا بالبكاء والنجيب في مناظر لا توصف حينما رأوا مشارف « القصر » البديع ومناظر المساجد تفيض أمامهم كما تفيض ذكريات حلم مجد ذاهب ؛ وعامل يوسف الأسرة المنكودة دون أية مراعاة أو تقدير لسابق حالها ، فنقل المعتمد إلى أغمت على مقربة من مراياكس ، وأتى به إلى غيابة سجن مرووع ، ليلقى فيه موت الشهيد بيطه ؛ وهناك في البرج الذي زج إليه مع أسرته ، رأى المعتمد وقلبه يذوب حسرة ووجدوا زوجته النابهة الباردة اعتمادا الرمكية تموت غملا أصاب زوجها من محنة وبؤس وأسى . وحلت الفاقة بنات المعتمد على أن يشتغلن بالنزل وهن في ثياب خلقة ، لكي يعملن والاهن . وكان منظرهن يذكي في قلوب المنكودين جذوة الأمل والشجن ؛ ومع ذلك فإن المعتمد لم يطأطى الرأس تحت غمر المحنة والبؤس ولم ينس مجده الذاهب ، بل عرف بالرغم من ثيابه الخلقة أن يحتفظ بهيبة الجلال السابق وخلالها ، فكان يشع منه الجلال كما يشع ضوء الشمس إذا أهدق بها الغمام القاتم ؛ وكان عزراؤه الوحيد أو غذاؤه الروحي في محنته ، نظم القريض الذي لم يفارقه شغفه قط . وقد بلغ من شغفه به أنه وهو في طريقه إلى الاعتقال وهب الشاعر أبا الحسن الحمصى ستة وثلاثين مثقالا لقصيدة قالها في مديحه ، فكانت آخر ما استطاع أن يبذل من الصلات اللوكية^(١) وقد أكثر من رثاء محنته ؛ وذاعت قصائده الرثائية لروعتها أعظم ذيوع ، حتى كان يحفظها كل إنسان ؛ ثم جاء الموت فأنفذه من أغلاله بعد أن عانى في معتقله أربعة أعوام (سنة ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م) وحكم المعتمد وهو آخر أمراء بني عباد إشبيلية ثلاثة وعشرين عاما ؛ وتفرق أبنائه بعد وفاته في أنحاء إفريقية يغمرهم البؤس الطاحن ، ولا يقدم إلينا التاريخ من ذلك الحين عنهم أو عن عقبهم شيئا^(٢) .

(١) راجع المراكسى ص ٨٥ .

(٢) كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة مروعة مؤثرة ، وما زالت محنة هذا الأمير =

وفي نفس الوقت الذي سقطت فيه إشبيلية افتتح الراباطون ثمر الرية بإمرة قائدهم داود ابن عائشة الذي امتاز وحده بين الرابطين بالإلسانية وحفظ المهسد ، وكان يحكم الرية يومئذ أبو يحيى محمد بن صامح التجيبي الملقب بالمتصم والرائق بالله — وأصله من وشقة — وولده ممر الدولة . وكان منذ أربعين عاما قوام حكومة رشيدة عادلة يفرها الشعب بحبه وتقديره . وقد اشتهر في جميع أنحاء الجزيرة بمحبته للعلوم والفنون والآداب ، وكان ينافس في هذا المضمار أعظم العلماء والعلماء والأسماء في عصره . وأما في الحرب فقد كان حتى بالنسبة لأعدائه الذين يقومون في قبضته يفيض إنسانية ورحمة . ومن ثم فقد أبدى أهل الأندلس بل أبدى النصارى أنفسهم كثيرا من العطف والأسف حينما زحف الراباطون على الرية وأنزلوا بالمتصم ما أنزلوا بصديقه المتمد . ومع أن المتصم كان عضد الرابطين في كل فرصة ومناسبة وخصوصا في حصار حصن لبيط ، حيث ارتدى رداء الرابطين الأسود فإنه لم يستطع بجانب المصير الذي قضى به يوسف على جميع الأسماء الأندلسيين دون استثناء . فحوصرت الرية من البر والبحر أحكم حصار وأشده . ولم ير الأمير الشيخ أمامه رجاء في الثوث ولم ير سوى شبح الأمر والمهانة فتوفى أمسى وغما أو توفى مسموما^(١) ، خلفه في الحال ولده

== الشاعر تحتفظ إلى يومنا بالرغم من كرم المصور بكثير من ألوانها المؤسسية المنجية ، وقد أنارت عذب الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف والتأثر بنوع خاص في روايات مؤرخي الأندلس والمشرق ، ومنها ما يشدد الحجة على يوسف بن تاشفين ، ويصنعه بأقوى الصفات (مثال ذلك ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥) ، وأذكت محنة بني عباد في الوقت نفسه دولة الشعر ، فنظم المتمد في رثاء نفسه ، ونظم أكابر الشعراء في عمره جلة من القصائد الرائعة المؤثرة التي ما زالت تحتفظ إلى اليوم بكل روعتها وحياتها . وقد أسبغت قسوة يوسف نحو المتمد ونحو باقي أمراء الأندلس على يديه وعلى خلاله سحبا لم تعدها جميع الأعذار التي انتحلت لتبرير عمله . راجع في سيرة المتمد ومحنته وقصائد رثائه ، فلانثد المقيان (ص ٤ وما بعدها) ، والمراكشي (ص ٧٦ — ٨٩) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٣٦ — ٤٥) ، ونفع الطيب (ج ٢ ص ٤٥١ وما بعدها) .

(١) راجع في ترجمة المتصم ووفاته ابن خلكان ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها ، وابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٧٢ وما بعدها ، والمراكشي ص ٧٣ و ٧٤ ، وفلانثد المقيان ص ٤٧ وما بعدها .

أحمد أبو مروان ممز الدولة ، وكان يشاطره أعباء الحكم أثناء حياته ، (وذلك في ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ) . بيد أن حكمه لم يطل سوى شهر واحد . ذلك أنه لما وقف على سقوط إشبيلية ولم يبق له أمل في الإنقاذ ، واشتد به الضيق والجوع من جراء الحصار أخذ يفاوض في تسليم المدينة ، ومع أنه لم يثق بوعود المرابطين لما كان يعلمه من مواقف غدرهم ، فإنه استطاع أن يحقق ما قصده بالمفاوضة وهو حمل العدو على تخفيف وطأة الحصار من ناحية البحر . وانتهز الفرصة السانحة ففر مع أسرته وأمواله في سفين سارت به إلى شمال شرق إفريقيا (٢) ، ولم تمض أيام قلائل حتى استولى المرابطون على المرية دون مقاومة ، واستولوا في الوقت نفسه على جميع المدن والحصون التابعة لها . وهكذا افتتح المرابطون ولايات الأندلس كلها — غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية — في وقت قصير لم يجاوز ثمانية عشر شهرا .

ولم يعمل داود ابن عائشة جنده بل سار توا إلى ولاية مرسية حتى لا يترك للأندلسيين فرصة للاحتشاد ضد المرابطين ، وزحف على دانية وشاطبة واستولى عليهما وأخذ يهدد مريبطر وبلنسية وشتنمية الشرق (البراسين) . ومع أن أمراء هذه النواحي قد اتحدوا جميعا وتوثق حلفهم ، ومع أنهم قاوموا من مدتهم الحصينة أشد مقاومة ، وعاونهم النصارى مرارا ولاسيما السيد الكنييطور وفرسانه ، فإن ذلك لم يفهم شيئا أمام طالع المرابطين وأمام تفوقهم ، وسقطت هذه المدن في يد المرابطين واحدة بعد الأخرى . وانتهت بسقوط بلنسية عاصمة الولاية ، وكان بها الأمير يحيى بن ذى النون القادر يتولى الدفاع عنها . وبالرغم من أنه كان ينضوى تحت حماية ملك قشتالة ، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة من النصارى وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر ، فإن الدفاع لم يطل أمده ، ووقعت خيانة عجلت بسقوط القلعة ، كذلك غادر النصارى المدينة

(١) راجع ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٧٤ — ١٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٠١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

حينما رأوا استحالة الاحتفاظ بها وشقوا لهم بين الأعداء طريقا ، وفتحت أبواب المدينة للمرابطين بطريق الخيانة على يد القاضي أحمد بن جحاف الماعري ، فقتلحموها شاهري السيوف وهم يقتلون كل من لقوا في طريقهم ؛ وهنا تختلف الرواية العربية في مصير القادر فيقول البعض إنه سقط عندئذ بين جنده مدافعا ، ويقول البعض إنه قتل قبل ذلك بقليل في هجوم قام به خارج المدينة ، ويقول آخرون إن ولده وسميه القادر هو الذي كان يدافع عن أنقاض ملك بني ذى النون ، وأنه قتل وقت سقوط المدينة في المقتلة العامة . وعلى أى حال فإن المحقق هو أن سلطان بني ذى النون الذى سيطر من قبل في طليطلة ، ثم استقر بعد ذلك في بلنسية لثى يومئذ مصرعه وخاتمته (سنة ٤٨٥ هـ — ١٠٩٢ م) ، واختار المرابطون القانى النحاش أحمد بن جحاف واليا لبلنسية^(١).

وبينما كان داود ابن عائشة يفتتح شرقى اسبانيا ، كان سير بن أبى بكر يقتحم « الغرب » ظافراً ، فبعد أن استولى على إشبيلية زحف على ولاية بطليوس وأميرها يومئذ محمد بن الأفطس الملقب بالمتوكل ، واستولى على شلب ويابرة بعد مقاومة قصيرة . وسرعان ما ظهر فى صروج بطليوس — وقد كانت ما تزال غاصة بعظام النصارى الذين سقطوا فى الزلافة وتركوا فى العراء — جيش من المرابطين ، بيد أنه لم يقدم كما قدم من قبل لغوث مسلمى الأندلس ، بل كان عنيداً أشد خطراً عليهم من أعدائهم النصارى .

وكان الأمير المتوكل وأولاده يقاتلون على رأس جندهم بشجاعة فؤقة لكن ذلك لم يغنهم شيئاً . ذلك أن الشعب كانت تروعه نبوءة خلاصتها أن الأمراء الأندلسيين يقهرهم فاتح من إفريقية ، ومن ثم فقد انحاز إلى المرابطين مؤثراً ألا يناهض القدر بمركبة لا خير فيها ، بل لقد كان الشعب عامة يؤثر تغيير الحكومة فى بعض الحواضر نظراً لأن نفقات البلاط فى الممالك الصغيرة كانت حقا ثماون فى نمو التجارة ولكنها كانت تزيد فى المكوس زيادة كبيرة . كذلك لم يكن ثمة

(١) . راجع الحلة السراء ص ١٨٩ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ .

أمل في دفع عادية النصارى نظراً لما انتهى إليه الأمراء من التفرق والانحلال . هذا فضلاً عن أن يوسف بن تاشفين كان يخص الأمراء وحدهم بقسوته . وقد استطاع أن يجد الوسيلة لكي يفرق بين الشعب وبين حكامه بسرعة . ذلك أن التناقض بين مصلحة الشعب والأمراء كان واضحاً ، فقد كان الشعب يطلب الاتحاد وكان الأمراء يؤثرون التفرق والخلاف .

ولما هزم جند « الغرب » في المعركة التي نشبت وأسر الفضل والعباس ولدا التوكل لم يبق أمام الفاتحين سوى بطليوس التي امتنع بها أميرها ؛ وكان التوكل يعتزم الدفاع عنها غاية جهده ، ولكن أهلها لم يشاطروه هذا الرأي وحملوه على أن يفاوض الرابطين في تسليمها . وهنا أيضاً يبدو غدر الرابطين في أشنع مظاهره ؛ ذلك أن قائد الرابطين سير بن أبي بكر قطع على نفسه العهد بأن يترك الأمير وآله أحراراً في الخروج بأموالهم ومتاعهم إلى حيث شاءوا (إلى أراضي النصارى فيما يظهر) . ولكن هذا العهد انتهك انتهاكاً صارخاً ، فأكاد التوكل يقادر المدينة مع آله ويحتلها سير بجنده ، حتى أرسل الأمير في طلبه سرية من الفرسان فأدركته وأسرته ؛ وبعد أن جُلد التوكل وولده بالسياط ، وبعد أن بانّت القسوة ذروتها بقتل الفضل والعباس أمام عيني والدهما المحزون ، أخذ التوكل وقطعت رأسه . أما ولده الأصغر نعيم الدولة وإلى شنترين فقد أُمِر وزج إلى اعتقال طويل الأمد . وهكذا انتهى سلطان بني الألفطس في بطليوس في شهر صفر سنة ٤٨٧ هـ الموافق أوائل مارس سنة ١٠٩٤ (١) .

وقد نظم أعيان شعراء العصر في مصر ع عمر وآله كثيراً من المراثي المؤثرة وفيها يتمون قلب الجذود في هذه الدنيا حسباً يصوره مصير بني الألفطس ، وكان أبدعها جيماً مرثية عبد المجيد بن عبدون وزير الأمير القتيل (٢) ، ولم يكن عمر

(١) راجع في أخبار التوكل وخلاله ومحنه المراكشي ص ٤١ وما بعدها ، وفلائد المقيان ص ٣٦ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ .

(٢) راجع مرثية ابن عبدون المشار إليها في المراكشي ص ٤٢ — ٤٦ .

التوكل عالماً كبيراً ونصيراً عظيماً للعلوم وشاعراً مجيداً فحسب ، ولكنه كان أيضاً يشغف بقضاء معظم أوقاته في مجالسة العلماء والشعراء . وترك في معظم الأحيان ما عداها من الشؤون . وكان معظم وزرائه من أكابر العلماء ، ومن ثم كان طبيعياً أن تعتبر دولة التفكير والثقافة موته خسارة فادحة للعلوم والذنون .

وفي نفس الوقت الذي سقطت فيه بطليوس افتتحت سفن المراكبين الجزائريين الشرقية (البليار) ، وكان واليها يومئذ من بنى شهيد أتباع أمراء بالنسية ودانية من قبل فلم يستطع لضعفه أية مقاومة ، وهكذا سقطت أسبانيا المسماة كلها ما عدا ولاية سرقسطة في يد المراكبين في النصف الأول من سنة ١٠٩٤ م — ٤٨٧ هـ .

٣ — ولاية سرقسطة

كان أبو جعفر أحمد بن هود المستعين بالله هو الذي استطاع وحده من أمراء الأندلس أن يفيد من نجدة المراكبين دون أن يفقد من جرائها سلطانه . ذلك أن سرقسطة التي كان يحاصرها جنود ألفونسو السادس حين عبور يوسف بن تاشفين الأول إلى أسبانيا ، أنقذت من الحصار عندئذ . ولما هزم النصارى في موقعة الزلاقة عاد سلطان بني هود فتوطد في أنحاء سرقسطة ولاردة وبرشلونة ووشقة ، وطرطوشة ، وقلعة أيوب ، وتطيلة ، وأفراغة ، وقلعة دروكة ، ومدينة سالم ، ووادي الحجارة ، وما إليها من الأراضي . ولكن سرعان ما عادت السحب والمواسف تحديق كرة أخرى بمدن الحدود في ولاية سرقسطة . ذلك أن الملك سانشو راميريز (ابن ردمير) صاحب أراجون الذي استطاع كما قدمنا أن يقوى نفسه بالاستيلاء على جزء من نافارا (بلاد البشكنس) وباستقدام عدة كبيرة من المرتزقة الفرنسيين ، سار غزانياً من الجبال البرينية إلى نهر الأيبرو (أبرة) وقد قيل إن الفارس الأسباني السيد الكنتيكتور (السد الكميادور) الذي نفاه سيده ملك قشتالة كان يحارب يومئذ إلى جانب أمير سرقسطة ضد إخوانه في الدين ويعرقل ظفرهم ؛ بيد أنه ليس من اليسر أن نتحقق من صحة هذه الرواية نظراً لأن تاريخ السيد كما

انتهى إلينا من الروايات والقصص النصرانية فياض بالأساطير والخرافات^(١) ، وسار جيش سانشو وقوامه زهاء عشرين ألف مقاتل فالتقى في ظاهر وشقة بجيش المستعين وهو في مثل عدده تقريبا ، واجتمع النصارى للقتال على نفخ القرون والمزمار ، واجتمع المسلمون على قرع الطبول ، ودار القتال سجالا مدى حين ، ولكن الفرسان النصارى استطاعوا في النهاية في فيض من الشجاعة والحاسة هزيمة المسلمين المتعبين وإرغامهم على الفرار . ولجأ الجيش المهزم إلى قلعة وشقة ، وأخذ بذلك من سحق شامل . وفي الحال نصب النصارى آلات الحصار حول وشقة ، ولكن المدينة المحصورة استطاعت نظرا لمنعتها الطبيعية والفنية ، أن تقاومهم بشدة ؛ وعانى الجيش المحاصر خسائر فادحة من جراء انقضاء المحصورين عليه بين آونة وأخرى . ولما رأى المستعين بن هود أن النصارى مضوا في سيرهم الظفر واستولوا على أفراده ، وشددوا الحصار على وشقة خبت شجاعته ، وأيقن أنه لا يستطيع الوقوف أمام هذا السيل دون معاونة من الخارج . ولكنه بمد أن اتجه في البداية نحو ألفونسو ملك قشتالة ، وقد كان ينظر إلى فتوح سانشو بعين الحسد ، ووعده بأن يقوم بدفع الجزية نظير حمايته من اعتداء أراجون ، عاد فنبذ هذا الميثاق إذ رأى ألفونسو نفسه يواجه خطر المرابطين وليس في وسعه أن يحول جيوشه ضد أراجون ؛ هذا إلى أن المستعين كان يؤمل بمد وفاة ملك أراجون أن تميل كفة النصر إلى جانبه ؛ ذلك أن سانشو راميرز ركب ذات يوم لرؤية قلعة وشقة التي حالت مناعة موقعها دون سقوطها وأمر جنده بمهاجمتها من نقطة لاح لها أنها أقل مناعة من غيرها . ولكن المسلمين خرجوا في الوقت نفسه لمهاجمة النصارى وأصيب ملك أراجون خلال المعركة بجرح مميت من جراء سهم أصابه . فاستدعى في الحال كبراء جيشه مؤثراً أن يفكر في مصير مملكته على تفكيره في نفسه . وبعد أن طلب إليهم أن يقطعوا عهد الولاء والطاعة لولده

(١) تؤيد الرواية الإسلامية استخدام بنى هود للسيد الكنيطور في حروبهم ضد خصومهم من المسلمين أو النصارى ، وقد أشار ابن بام في الذخيرة إلى ذلك بشيء من التفصيل ، ونقل دوزي هذه النبذة بنصها العربي في كتابه عن « السيد » .

الأكبر الدون بيدرو ، طلب إلى ولده أن يقطع العهد على نفسه بأن يعضى في حصار وشقة حتى سقوطها ، وقطع ولده الثانى ألفونسو أمامه مثل هذا العهد . ولما اطمأن إلى مصير الحصار صارح الحضور بأنه يشمر بدنو أجله ، ثم انتزع السهم من جرحه ومات وهو موقن بأنه قاد شعبه إلى الظفر كما مات إبا منونداس زعيم طيبة (٦ يولييه سنة ١٠٩٣) (١) .

ولبث المستعين بن هود حينئذ يساوره التردد وهو يرى جيوش النصارى تشدد الضغط عليه ، وتروعه فتوح المرابطين فى جنوبى اسبانيا وفى شرقها . على أنه اضطر أن يعزم أمره ، وقد آثر أخيراً محالفة إخوانه فى الدين ، أعنى المرابطين ، وكانوا يومئذ قد افتتحوا بلفسية والجزائر الشرقية ؛ وقد كان حرياً بيوسف بن تاشفين نفسه أن يدرك أن أمير سرقسطة نظراً لاعتماده على وعورة أرضه ، ومنعة قلاعها ، وإخلاص رعاياه ، يستطيع إذا ما هاجم أرضه مهاجم أن يعقد الحلف مع النصارى ، ومن ثم فقد رأى يوسف أن يستجيب إلى ما عرضه للمستعين ، من أن يعقد معه محالفة دفاعية ؛ وأرسل المستعين وقد كان يحرز بتجارته مع مصر والشام ثروات طائلة ، إلى المغرب تحفكاً وهدايا جلييلة ، كان فى وسع يوسف أن يعتبرها بمثابة الجزية ودليل الطاعة ، كما أرسل ولده عماد الدولة عبد الملك إلى مراکش ليعقد التحالف المنشود (٢) ، واستطاع عبد الملك بحسن سعيه وتصويره للخطر الذى تتعرض إليه وشقة أن يحمل يوسف على أن يعد حليفه الجديد بستة آلاف راجل وألف فارس من المرابطين كمنجدة أولى مع الوعد بإرسال منجذات أخرى أوفر عدداً ، وإخطار ولاية دانية وشاطبة والمهله ، (شتيمرية الشرق) بالمبادرة إلى غوث المستعين . على أنه بالرغم من هذه القوى الضخمة التى انضم إليها أيضاً الكونت جارسيا أردوتز فى جنده ، وقد كان إلى جانب المرابطين من قبل ؛

(١) هو من زعماء اليونان القديمة وقادتها ، قاد بلده طيبة إلى النصر مراراً ، وتوفى قتيلاً فى معركة ماتينا سنة ٣٦٢ ق . م التى ظفرت فيها طيبة بالرغم من مقتله .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه السفارة وفى أحوال المستعين الحلل الموشية من ٥٣ — ٥٥ ، والحلة السبراء ص ٢٢٥ .

وبالرغم من أن المستعين استطاع فيما يظهر أن يقوم ببعض الفتوح في البداية فإن قوى المسلمين لم تستطع أن تناهض جيش النصارى الذى يقوده الدون بيدرو ملك أراجون . ورفع الدون بيدرو حصار وشقة ، وسار إلى لقاء المسلمين وهزمهم هزيمة حاسمة في « الكرازة » ، وعلى أثر ذلك سقطت وشقة في يد النصارى (أواخر سنة ١٠٩٦ م)^(١) واتخذ ملك أراجون مقامه في وشقة ، وصير مسجدها الجامع في الحال كنيسة تلا فيها الأرجونيون أدعية الشكر لربهم لما أولاهم من نصر باهر في « الكرازة » ، ونسبوا الفضل إلى حاميتهم القديس جورج ، وعندئذ فقط دفن الملك القتيل سانشو ، وكان ابنه بيدرو قد آثر أن يقوم بهذا الواجب النبوى بعد الاستيلاء على وشقة وفاء للمهد الذى قطع .

وكان لسقوط وشقة بالنسبة لشمال شرق اسبانيا ، أعنى بالنسبة لأراجون من الأهمية مثلما كان لسقوط طليطلة قبل ذلك بأحد عشر عاماً بالنسبة لقشتالة . ذلك أنه ترتب على ذلك سقوط هذين المعقلين النيمين لسلطان الإسلام في اسبانيا أن فُتح طريق الأرجونيين إلى مرقسطة ، كما فتح طريق القشتاليين إلى الأندلس . بيد أن الفتوح التى كان واجباً أن تتم عقب الاستيلاء على هذين الحصنين النيمين أُرجئت إلى حين لما بذله المسلمون من عظيم جهد في الدفاع ، ولما أصاب الأمراء النصارى من عوامل التفرق والخلاف .

ونعمة معقل هام ثالث يمكن أن يهدد منه جميع الشاطئ الشرقى لاسبانيا المسلمة ، على أن افتتاحه لم يكن إلا ظفراً خلباً^(٢) . هذا فضلاً عن أنه لم يترتب عليه ما كان متوقفاً من الآمال الكبيرة . وليس من المستطاع أن تتحقق مما انتهى إلينا في شأن هذا الفتح من الروايات النصرانية والعربية ما إذا كان قد وقع قبل سقوط وشقة أو بعده . فإذا كان الدون بيدرو قد افتتح وشقة سنة ١٠٩٤ م كما

(١) يشيران خلدون إلى هذه الموقعة بأنها موقعة وشقة ، ويضع تاريخها سنة ١٠٩٦ م —

١٠٩٦ م (ج ٤ ص ١٦٣) .

(٢) يريد المؤلف هنا افتتاح بالنسبة .

يقول البعض ، فن الواضح أن استيلاء « السيد » على بلنسية كان بعد هذا التاريخ . بيد أنه يوجد لدينا من الأسباب القوية ما يجعل على الاعتقاد بأن افتتاح وشقة كان في أواخر سنة ١٠٩٦ م ، ومن ثم فإن بلنسية تكون قد سقطت قبل ذلك في يد النصارى ، والظاهر أن سقوطها كان في النصف الأخير من سنة ١٠٩٤ م .

٤ — فتح السيد لبلنسية

لم يقع فتح بلنسية على يد أحد من أمراء أسبانيا النصرانية ، ولكنه وقع على يد فارس جعل منه الشعب الأسباني بطله الأمثل . ذلك هو الكونت رودريجو دياز دى بيثار ، المعروف بالسيد الكمبيادور (السيد الكنبيطور) . وإذا كان البحث التاريخي المحقق لأعمال السيد قبل هذا الفتح يقضى بوضعها في عداد القصص الشعرى ، وأن معظمها يناقض المصادر التاريخية ، فإنه ينبغي لبطل أسبانيا عمله الباهر ، أعنى فتح بلنسية دون نزاع .

وترجع سيرة السيد وأعماله الأولى — حتى مع التسليم بأن الشعر والروايات المنمقة اللاحقة تقص الحقيقة ، في معظمها — إلى الحياة الخاصة أكثر مما ترجع إلى تاريخ أسبانيا العام . بيد أن ما يروى من أعماله في الأندلس مثل قتاله إلى جانب إشبيلية ضد غرناطة ، ومعاوته لسلمى سرقسطة ضد كونت برشلونة ، والملك سانشو راميرز وبيدرو ملك أراجون والأغلب صاحب دانيية ، يناقض المصادر التاريخية في كثير من الأحيان ، ويحيط به كثير من الريب ، ومن ثم فإنه يحسن أن نمرسه في فصل خاص .

كان ذلك في أواخر حكم فرديناند حينما ظهر رودريجو ولد دياجو أو (دياز) لأول مرة في المارك التي نشبت ضد الأرجونيين والسلمين . ولما قسم فرديناند مملكته بين أولاده الثلاثة ، انتظم الكونت رودريجو بين أكبر فشتالة وانضوى تحت لواء سانشو فقدمه على جميع الفرسان الآخرين وعينه قائداً لجيشه . وخاض

رودريجو جميع الحروب التي شهرها سانشو على أخويه وعاون في كسبها، وطرد
الأخوان من أرضهما ، والظاهر أنه أطلق عليه يومئذ لقب الكمبيادور
Campeador أو الكمبيدكتوس Campidoctus أعني « القائد الكبير » (١) .
ولما سقط سانشو صريع الفيلة أمام أسوار سمورة (زامورا) واستولى أخوه
ألفونسو الذي كان يعيش منفيا في « طليطلة » على جميع مملكة أبيه ، أبي القشتاليون
أن يعترفوا به ملكا عليهم حتى يقسم بأنه برىء من كل تبعة في مقتل سانشو ،
ولم يجزأ أحد من أكابر قشتالة على أن يلقن صيغة اليمين للملك إلا الكونت
رودريجو ، فقد تقدم لأداء المهمة ، ولقن الملك صيغة اليمين مرتين ؛ وإلى هذا
السبب ينسب غضب ألفونسو المستمر على الكمبيادور ، وكونه كان يقبل على
سماع وشايات خصومه .

والظاهر أن المصادر العربية تلتقي ضوءاً على القول بأن الملك ألفونسو أرسل
رودريجو إلى إشبيلية سفيراً إلى المتمدل ابن عباد (٢) . بيد أن التاريخ الذي تنسب
إليه هذه الواقعة هو نفس التاريخ الذي تقول الرواية النصرانية إن رودريجو نفي
فيه من قشتالة . أما لماذا نفي الفارس ، وأين كان يقيم أثناء نفيه الطويل ، وهل
قاتل حقاً في ذلك الحين إلى جانب أمير مرقسطة ضد برشلونة وأراجون ودانية ،
ومتى عاد إلى قشتالة ؟ ثم لماذا نفي للمرة الثانية والثالثة من وطنه ؛ وهل حارب
عندئذ إلى جانب كونت برشلونة ؛ وماذا فعل ضد المسلمين في بلنسية ودانية ؛ فهذه
كلها أمور تقصر سير حياته عن إيضاحها بصورة كافية ، متى قورنت بالمصادر
التاريخية . بيد أن شيئاً واحداً يبدو محققاً هو أن رودريجو كان رجلاً وافر

(١) تسمى الرواية العربية السيد الكمبيادور Cid il Campeador وذريق الكنيطور
أو الكنيطور . وتقول لنا إن الكنيطور معناها صاحب الفحص (راجع ابن الأبار في الحلة
السراء ص ١٨٩ ، وتقع الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥) .
(٢) كان سفير ألفونسو إلى المتمدل حسبنا فيما تقدم هو قائده الفارقانيس المعروف
في الرواية العربية بالبرهانس . ولكن المؤلف لم يفتن إلى هذه المطابقة في الاسم ، وظن أن
البرهانس أو « البرهان » إنما هو شخص آخر ، وسرى فيما بعد أنه يعتقد خطأ أنه هو الاسم
الذي تطلقت الرواية العربية على « الد » .

الكبرياء والصلف يؤثر أن يخوض الحرب لحسابه على أن يخوضها تحت إمرة
ملكه الذي لم يكن يحاسنه ولم يرح إليه ؛ فغادر قشتالة مختاراً . ولما كان قائداً
مبرزاً ، وفارساً بارعاً ، ذائع الصيت في جميع أسبانيا ، فقد اجتمع تحت لوائه
أولئك الذين يقودهم إلى السلب والفتح ، وكل من شغفه حب القتال من النصارى
أو المسلمين ؛ ومن أحرز قصب السبق في إثابة الفارس ومكافأته ظفر بمعونه وعون
عصبة . ويستوى في ذلك أن يكون الطلب من أمير نصراني أو أمير مسلم . وقد
قدم الأمراء الذين يحكمون فيما بين الأيبرو والبرنيه أنفسهم أمثلة من ذلك ؛
فليس غريباً أن يتقدم فارس مبعد من وطنه على رأس سرية من الشجعان لبيع
معونته دون تفريق بين أمير نصراني وأمير مسلم . ولقد خلقت الملائق التي كانت
تربط الشعب الأسباني في هذا العصر — بالرغم مما كان يسوده من تعصب ديني في
هذا المقام — نوعاً من التناضى عن الاعتبارات الدينية ، مادام الأمر يتعلق بتحقيق
السلطان والمجد والتوسع . وقد كان ثمة « كيبادور » آخر خصم للكونت رودريجو
هو الكونت جارسيا أردوتز الذي تقع أراضيه في أعلى الأيبرو ، وقد باع فرسانه
للمرابطين وحارب معهم ضد النصارى . ولما حاصر الملك بيدرو وشقة بعد ذلك
جاء الكونت جارسيا أردوتز موقفاً من قبل المرابطين لمعاونة أمير مرسطة ، بل
يلوح أيضاً أنه حارب ضد الكونت رودريجو نفسه .

وقاتل رودريجو في جنده النصارى والمسلمين مراراً في شرق أسبانيا فيما بين
نهر إيبرو ونهر شقر ، وخاض معارك شديدة ضد النصارى والمسلمين ، ولقب في
تلك الفترة لأول مرة « بالسد » (أى السيد) ، ولقب من أعدائه بنوع خاص
« بالبرهانس » (أى الطاغية) ^(١) . ونستطيع لأول مرة حينما افتتح المرابطون
دانية وبلنسية (سنة ١٠٩٢ م) أن نمث في المصادر التاريخية الحقبة بمادة أوثق عن
أعمال السد . فبعد أن حصن السد في بلنسية عدة قلاع شاهقة في الجبال ،

(١) هذا تحريف سبق أن أشرنا إليه ، والواقع أن « البرهانس » الذى تشير إليه
الرواية العربية إنما هو « الفارغانيس » قائد الملك ألفونسو السادس ؛ والظاهر أن المؤلف
ذهب إلى هذا التفسير من عبارة مضطربة وردت في ذلك في ابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٢) .

وزودها بحاميات قوية ، وعقد حلفاً مع أمراء السهلة وشاطبة ودانية ومريبعار المسلمين ، وهم من ألد خصوم الرابطين ؛ اعترم أن يحاول انتزاع بلنسية من الرابطين ، فحاصرها بجيش كبير من النصارى والمسلمين تعاونوا فيما يظهر قوة من القشتاليين أرسلها الملك ألفونسو ؛ وبالف السد في التضييق على المدينة حتى أن سكانها الذين كانوا فوق ذلك يثنون من حكم الرابطين عمدوا إلى إرغام وإلى المدينة وهو القاضي أحمد بن جحاف على أن يفتح أبوابها للجيش المحاصر ، خصوصاً وقد غاض كل أمل في الفوث السريع الذى التمسوه ، واتَّفَق على تسليم المدينة على أن يؤمن القاضي ابن جحاف وأسرته وكل سكان المدينة تأميناً تاماً مطلقاً ؛ فلا يصيبهم في النفس أو المال أى ضرر ، وأن يبقى القاضي على ولايته ، وبذا دخل السد وحلفاؤه ثمر بلنسية في جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (مايو سنة ١٠٩٤ م) (١).

وحافظ الظافر بادى ذى بدء على عهده ، ولكنه لما طلب إلى ابن جحاف أموال أمير بلنسية السابق يحيى القادر بن ذى النون ، وقرر القاضي أنها ليست لديه ولا يعرف مخبأها ، أمر بالقبض عليه وعلى أسرته ، ولما لم ينجح في حمله على الاعتراف وعد ولا وعيد ولا تمذيب ، أقيمت في ساحة السوق بالمدينة محرقة كبيرة لكي يحرق فيها ابن جحاف وأسرته . ولما وقفت الجموع المتشددة من المسلمين والنصارى على الخبر صاحت وأنت حسرة على مصير النساء والأطفال ، والتهمت إلى السد أن يفر الأبرياء على الأقل ؛ فنزل في النهاية عند رجائهم ، واقتيد القاضي في أغلاله وألقى في حفرة إلى وسطه . وأضرمت النار من حوله وأتى عليه اللب في الحال . وكانت هذه الواقعة لعام من سقوط بلنسية .

وكان يشترك مع السد في حكم بلنسية حليفه الأمير أبو مروان عبد الملك صاحب السهلة ، وفوض إليه السد أن يختار لها والياً هو لبون بن عبد العزيز ، وكان قيام والى مسلم بالحكم باسم الفريقين مما يخفف على البلنسيين وطأة نير

(١) راجع في استيلاء السيد على بلنسية البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ ، وابن الأبار في الحلة السراء ص ١٨٩ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ .

النصارى . ذلك أنه كان من الواضح أن ألفونسو ملك قشتالة وهو صاحب الجزية على السد هو أيضاً سيد بلنسية . وفي ذلك أيضاً ما يفسر كون بعض الروايات العربية تنسب افتتاح بلنسية إلى الملك ألفونسو وإيس إلى السد ، وأن الروايات النصرانية تصف سقوط بلنسية عقب وفاة السد بأنه انتقاص لأراضي مملكة قشتالة .

وقد حبّطت كل محاولات المرابطين لاستعادة بلنسية ما عاش السد . بيد أن كل ما يروى بعد ذلك عن أعمال الكمبيادور (الكنبيطور) وسيرة حياته تحيق به نفس الريب التي تحيق بسيرته قبل افتتاح بلنسية ، ومن ذلك ما قيل عن تحالفه مع بيدرو ملك أراجون ضد المرابطين وعن الموقعة العظيمة التي خاضها معاً ضد قائد المرابطين سير بن أبي بكر فاتح الجزائر الشرقية (البليار) . هذا بينما توجد رواية تناقض هذه تمام المناقضة ، مفادها أن السد أسر الملك بيدرو هذا ؛ ومن ذلك أيضاً ما قيل عن افتتاح السد لمربيطر ، وقد كان أميرها حليف السد ؛ وعن اشتراك الكونت ريموند رينجار الثالث صاحب برشلونة — وكان لا يزال يومئذ قاصراً — في الدفاع عن مربيطر ضد السد ، وما ورد في بعض الروايات السقيمة المتأخرة عن تعيين هيروني موس أسقفاً بلنسية بموافقة أوربان الثاني ، وهي رواية باطلة . أما القليل الذي يؤيده التاريخ الحق ، فهو أن السد استمر في حكم بلنسية حتى توفي على مقربة منها في سنة ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) ، وأنه بعد وفاته بثلاثة أعوام اضطر ألفونسو ملك قشتالة بعد حصار طويل الأمد ومعارك دموية عديدة ، أن يتخلى عن بلنسية للمرابطين وذلك في سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) .

ونريد هنا أن نختتم تاريخ السد بأن نقول كلمتنا فيه حسبما نوهنا من قبل في فرصة سابقة . وإن الباحث ليتساءل لماذا انفرد السد دون سائر أبطال إسبانيا بأن يحرز مثل هذه الشهرة البعيدة ؛ هذا بينما نرى أعمال سادة قشتالة السابقين وغيرهم من أكابر المجاهدين في سبيل الوطن بدلا من أن يذكرها الشعب الأسباني ويحيطها بعرفانه يكاد ينفرد بها النسيان المطبق ؛ فيسفر بحثه عن أن السد مدين

بتخليد ذكره وإحراز مركزه الرفيع بين الأبطال الأسبانيين بالأخص إلى ظروف عصره . والأمر لا يرجع هنا إلى الخلال ذاتها ، وإنما يرجع بنوع خاص إلى تقدير أهل العصر وعطفهم ، فهم الذين يتوجون هامات الأبطال كما يتوجون هامات الشعراء بأكليل الغار ، ويضمون بذلك دعامة الشهرة لجميع المصور . وقد خلدت ذكرى السد كما خلدت ذكرى أخيليس^(١) على يد الرواة والنشدين . وقد عاش السد في ذلك العصر العاصف الذي بدأت فيه الحرب الصليبية الأولى . ولما أُنْبِى البابا على النصارى الأسبان أن يشتركوا في افتتاح الأرض المقدسة ، عمد سيد حانق على مليكه إلى حشد المجاهدين من قشتالة وأراجون ليقوم بحملة ضد بلنسية في نفس الوقت الذي سار فيه جودفروا دي بويون^(٢) على رأس الجيش الفرنجى الذاهب لافتتاح القبر المقدس . وإذا كان السد أقرب إلى تحقيق غايته ، فقد استطاع أن يستولى على بلنسية قبل أن يسير الصليبيون بعيداً في طريقهم .

وفي نفس العام الذي توفى فيه السد وهو ما يزال سيد المدينة المفتوحة ، فتح بيت المقدس . وتقدم إلينا معظم الروايات الأسبانية منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر الحادئين جنباً إلى جنب ؛ وأحياناً تضع لهما تواريخ مصطنعة لتحملنا بذلك على الاعتقاد بأنه توجد بينهما رابطة ؛ ذلك أنه ما كاد نبأ الاستيلاء على بيت المقدس يذاع بسرعة مدهشة في جميع أنحاء أوروبا ، وتتردد أسماء الأبطال الصليبيين الأوائل على جميع الألسن ، حتى حفز ذلك الشعب الأسباني المجاهد الذي أبعد عن الاشتراك في الحرب الصليبية أن يقدم جلائل أعمال أبطاله المائلة ، إلى جميع المجتمع النصراني المعاصر ، وإلى الأجيال اللاحقة في القصائد والأشيد . وقد كانت هذه الأعمال تعتبر إلى ذلك الحين حوادث طبيعية نظراً لظروف اسبانيا النصرانية إزاء المملكة الإسلامية ، ولذا لم تكن

(١) هو بطل الإلياذة هوميروس ، ونصوره الإلياذة أشجع جندي يوناني في حروب تروادة .

(٢) هو من أمراء الفرنج وقائد أول حملة صليبية سارت لافتتاح بيت المقدس وانتحتها في سنة ١٠٩٩ م ، وكان أول ملوكها من الصليبيين ، وتوفى بعد عام من افتتاحها في سنة ١١٠٠ م .

الرواية ولم يعن القريض بالإشادة بها . وأقرب ما يتبادر إلى الذهن عن فتح بلنسية هو أنه شبيه بفتح بيت المقدس إذ قام به الفرسان ، ولم يقم به ملك ما . ومن ثم فقد اعتبر السد البطل الأمثل في الشعر الأسباني . واسمه يمثل الفروسية الأسبانية ، ويعتبر عنواناً لثل أعلى من الشجاعة المقرونة بالتقوى والجود والنبيل والفروسية . وإذاً فلا غرو أن يمتزج الشعر بالحقيقة أتم امتزاج ، حتى أنه في فاتحة القرن الثالث عشر أعنى لمائة عام بعد وفاة السد لم يبق من الميسور بعد أن يفرق بين الحقيقة والخيال .

٥ — الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين

لما أخضعت أسبانيا المسلمة كلها لصولة المرابطين — وقد فقد بنو هود في سرقسطة استقلالهم في الواقع — عبر سلطان إفريقية الشيخ إلى اسبانيا مرة أخرى لكي يعنى بتنظيم شؤونها قبل وفاته . وكان ذلك سنة ١١٠٣ م بعد استرداد بلنسية بقليل حينما عبر يوسف إلى شبه الجزيرة للمرة الرابعة ، ولم يكن عبوره هذه المرة لمحاربة مسلمي الأندلس ، بل كانت تحدوه عندئذ بالنسبة إليهم عواطف ونيات سامية بعد أن غدوا من رعاياه ؛ واستصحب معه ولديه تيمنا وأبا الطاهر وعلياً أبا الحسن . ومع أن علياً كان أصغر من أخيه فقد اختاره يوسف لولاية عهده إذ كان يتفوق على أخيه تفوقاً كبيراً في المواهب والخلال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة .

وسرعان ما كشف يوسف عن قصده في العبور إلى الجزيرة . ذلك أنه بعد أن وقف على حسن سير الإدارة في الولايات ، وشكر القادة والولاة على غيرتهم في تنفيذ أوامره ؛ دعا القادة والولاة إلى الاجتماع في قرطبة ، وكانت قد عادت يومئذ قاعدة الحكم في اسبانيا المسلمة ؛ ودعى إلى هذا الاجتماع الحافل أيضاً كبار الأندلس في مختلف الولايات ، وكذلك زعماء القبائل المغربية التي تدين بالطاعة ليوسف ؛ وأفضى يوسف إلى الجماعة بعزمه في تعيين ولده الأصغر على لولاية الحكم من بعده وأمرهم أن يؤدوا إليه يمين الولاء والطاعة باعتباره أميرهم المستقبل ؛ وعهد يوسف

إلى كاتبه بوضع وثيقة تتضمن نزع النقط الأساسية المتعلقة بولي العهد وما يسند إليه من قسط في الحكم ؛ وأهم ما جاء فيها هو أن أمير المسلمين نصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بعد أن أنعم النظر والتدبر في كل شيء ألقى ابنه الأصغر أبا الحسن علياً أكثر أهلية وصلاحيه للاضطلاع بمجمل الأمور وخطيرها ، ورآه أكثر اقتداراً على تلقى أعباء الحكم ، ومن ثم فقد آثره واصطفاه وعينه ورفعته إلى مقام المُلْك ، وأولاه المرش وذلك بعد أن تشاور من قبل مع أعلم الناس وأعقلهم وأقدرهم في كافة أنحاء المملكة ، وبعد أن اتفقوا جميعاً مع زعماء المملكة وقادتها على الاعتراف بملء حريتهم دون إكراه ما ، بأنهم راضون عن هذا الأمير النابه وأنهم يقبلونه ويبايعونه مختارين ، مادام والده قد اعترف بذلك وأقره ، وهم يقبلون علياً ويقرونه على هذا الشرط دون سواء ؛ وهو أن يكون والده أمير المسلمين قد اختاره حقاً ورآه أهلاً لتبوء الملك^(١) .

وبعد أن أقسم الأمير أمام الجماعة لوالده بالتزام الشروط التي يبيع بمقتضاها

(١) لا بأس مع هذا التلخيص الحسن الذي يورده المؤلف لعهد التولية أن نورد نص العهد ذاته منقولاً عن الجمل الموشية ، وهو من إنشاء القاه أبي محمد بن عبد القادر ، وهذا نصه بعد الديباجة :

« أما بعد فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه ، كتب تركه مهلاً لم يستلب فيه سواء . وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجماعها من أوكاد الأشياء السكرية ، كيف في هذه الأمور ، العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور . وإن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من النظر في هذه الأمور الدنيوية الشرعية ، قد أعز الله رماحه ، وأخذ سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتباطاً إلى العالي وأهلاً ، وأكرمها سجيةً وأنفسها اعتزازاً ، فاستنابه فيما استعمر ، ودعاه لما كان إليه دعي ، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والتأني ، فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلاً أن يستعمر في ما استرعاه ، فأحضره مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المقروط ، فقبل ورضى ، وأجاب حين دعي ؛ بعد استغارة الله التي بيده الخيرة ، والاستعانة بحول الله الذي من آمن به وشكره ؛ وبعد ذلك مواعظ ووصية ، بلغت من النصيحة مرامي قصبة ، يقول في خاتمة شروطها ، وتوثيق ربهولها ، كتب شهادته على النساب والمستنيب ، من رضى إمامتهما على البعيد والقريب ، وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب ، وذلك في عام خمسة وتسعين وأربعمائة ، (ص ٥٦ و ٥٧) .

وضع الكاتب وثيقة أخرى جاء فيها أن الجماعة كلها أقرت هذا وشهد على ذلك الحضور بالأصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن الغائبين ، وبعد أن أقر الأمير الشروط الموضوع لولاية العهد وقبلها أمضى له الكاتب إسهاداً بذلك . وكان إعلان هذه البيعة في شهر ذي الحجة سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) .

وأما فيما يختص بالأندلس فقد أمر يوسف ولده علياً بما يأتي : ألا يعين في مناصب الحكام والقضاة في الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لتونة ، وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين قوامه سبعة عشر ألف فارس يطعمون في المدن بلا مقابل وينوزعون كما يأتي : أربعة آلاف في ولاية سرقسطة وسبعة آلاف في إشبيلية وثلاثة آلاف في غرناطة وألف في قرطبة والباقي وقدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية^(١) ويحسن أن يعهد إلى مسلمي الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى فهم أكثر خبرة ودربة على مقاتلة النصارى من المغاربة . ويجب لا يذكرهم الأنديسيين أن يكافأ المتفوقون في الحرب منهم بالتحليل والسلاح والثياب والمال .

ونصح يوسف أخيراً أن يعامل أهل قرطبة المعروفين بالكبر وحب الشعب باللين والرفق ، وأن توثق أواصر الصداقة مع بني هود أمراء سرقسطة وهم طليعة الأنديسيين في محاربة النصارى^(٢) .

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس عاد إلى إفريقية حيث تولى الحكم بضعة أعوام أخرى وذلك بالرغم من سنه المتقدمة وضعفه المتزايد ؛ وأخيراً بلغ به ضعف الشيخوخة مبلغه . فتوفي في قصره بمراكش في المحرم سنة ١١٠٦ (سبتمبر سنة ١١٠٦) وقد بلغ من العمر نحو مائة عام بعد حياة طويلة وحكم حافل بجلال الأعمال^(٣) .

(١) يشير في الحلل الموشية إلى ذلك مع خلاف يسير في توزيع القوى (س ٥٧) .

(٢) راجع الحلل الموشية س ٦٠ .

(٣) راجع في أعوام يوسف الأخيرة ووفاته ابن خلكان ج ٢ س ٤٨٨ وما بعدها .

وروض القرطاس س ١٠١ و ١٠٢ ، والحلل الموشية س ٥٥ وما بعدها .

ويوسف بن ناشقين أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذين يلوح أن القدر قد اصطفاهم لتغيير وجهة سير الحوادث في التاريخ ؛ فهو الذي جعل من إفريقية الممزقة شرمزق ، مملكة عظيمة موحدة ؛ وهو الذي بث بما استحدث من نظم وأساليب روحا قوية في القبائل والشموب التي يحكمها ، وقد أفضت هذه الروح إلى تحقيق المعجائب . أجل لم يكن هو الذي غرس بذور هذا الانقلاب العظيم في إفريقية ، ولكنه هو الذي سيطر بذهنه الرفيع على تطورات موريتانيا (المغرب الأقصى) التي هيئت أسبابها ، وأتمها وفقا لمزمه ورأيه . وقد وهب المملكة الجديدة عاصمة جديدة هي سراكنش ، وأضاف بحروبه في اسبانيا ضد النصارى — ولا سيما بانتصاره في موقعة الزلاقة — إلى شهرته كفاتح ، شهرته كمجاهد في سبيل الإسلام ؛ وقد كان الإسلام يومئذ على وشك الانهيار في شبه الجزيرة ، فبث إليه بعونه وتدخله روحا وقوى جديدة . أجل أبدى يوسف في إخضاع الأندلس لسلطانه كثيرا من الدهاء والنف ، وأبدى قسوة في معاملة الأمراء ؛ بيد أنه لما كان أولئك الأمراء هم الذين أحدثوا بأثرهم ما كان يمانيه مسلمو الأندلس من سوء الحال فإن جمهرة الأمم الإسلامية لم ترف في يوسف فاتحا متغلبا ؛ بل رأت فيه منقذا واعتبرته يد القدر في مناقبة الأمراء الباغين . وفي مملكة المرابطين الشاسعة الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى مقربة من مصر ، ومن البحر الأبيض إلى حدود بلاد النيجر مشتملة على الصحراء الكبرى التي كانت تحترقها قوافل المرابطين ، وفي أسبانيا من نهر أيبرو إلى مصب الوادي الكبير ، وفي مضيق جبل طارق لم تفرض ثمة في عهد يوسف قط مكوس أو ضرائب أو رسوم لا في المدن ولا في القرى ؛ وكان دخل الدولة يتكون فقط من التبرعات ومن الأعشار ومن أخماس الغنائم التي تحقق في الحرب . وقد كانت تجبي منها بلا ريب مقادير طائلة . ذلك أن يوسف ترك ثروة عظيمة من الذهب والفضة تقدر بملايين عديدة ، ومن المحقق أن اليهود ساهموا في هذه الثروة بقسط وافر ، فقد كان يفرض عليهم الإسلام فرضا ، فلا يستردون حريتهم إلا إذا دفعوا مبالغ طائلة^(١) .

(١) هذا مطابق لما أوردته صاحب روض القرطاس (ص ٨٨) .

ومنذ ظفر الزلافة العظيم غير يوسف نقش السكة ، ونقش في أحد وجهيها ما يأتي : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وتحت « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، وكتب في الدائرة المباركة الآتية : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، ونقش على الوجه الآخر ما يفيد الاعتراف بسلطة الخلافة العباسية الروحية ونصه : « الأمير عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي » ، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته^(١).

كذلك امتدح يوسف لما تور عدله ؛ فانه ألغى حكم الإعدام وجعل السجن المؤبد أقصى عقاب يمكن توقيعه على مذنب^(٢). وقد عمل على تبسيط الإجراءات القضائية ، وكان يطوف بولايات مملكته من وقت إلى آخر لكي يشرف على تنفيذ أوامره ، ثم لكي يقف بالأخص على مبلغ رفاة الشعب ورضاه ، وعلى ظلاماته وآلامه .

٦ — ولاية على العرش وحكمه حتى موقعة إقلش

ونودي في الجبال عقب وفاة يوسف بولده أبي الحسن على في مراكنش أميراً للمسلمين ؛ ودعى له في الصلاة في ألوف المساجد في مختلف أنحاء مملكته الشاسعة ؛ ولكن أهل فاس حيث كانت الولاية لابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف أبوا الاعتراف بسلطانه ؛ فسار على^٣ إلى فاس وأرغم الخوارج عليه بالسيف على الخضوع لصولته . وكان سلطان المرابطين الجديد في الواقع فتى في عنفوانه ، ولم يكن قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومع ذلك فقد أبدى في حكمه كثيراً من الحكمة والعدالة ؛ وكان يمتاض في ذلك عما يعوزه من الخبرة والتجارب بنصح أعقل رجال بطائنه وأكثرهم نضجاً ، وكان إلى جانب وسامته يتمتع بكثير من اللطال التي أكسبته محبة الشعب وتقديره ؛ فقد كان وافر الجود كثير ، العطف والبر

(١) راجع روض القرطاس ص ٨٨ .

(٢) راجع الحلال الموشية ص ٥٩ .

بالفقراء والمساكين ، يحرص على مظاهر الجد والوقار في المناسبات العامة مع الابتعاد عن مظاهر الكبرياء والصلف ؛ وكان أول أمير مسلم في إفريقية استخدم النصارى في بلاطه ، فجعل منهم فرسانا في حرسه الخاص وأولاهم مناصب القصر ، ولم يكن هذا الميل إلى الاستمانة بالنصارى يرجع فقط إلى أن والده على « رميكة » كانت نصرانية ^(١) ؛ بل كان يرجع بالأخص إلى الثقة بولاء النصارى وكونهم أقل عرضة للإغراء بتبديل المؤامرات من الأهلين ؛ بيد أن وجود النصارى في بطانته لم يحل دون مضيئه في محاربة النصارى في أسبانيا .

وعبر على كآبئه إلى أسبانيا عدة مرات فزارها لأول مرة عقب ولاية العرش ، وذلك لكي يتلقى البيعة في الجزيرة الخضراء ، ولكي يقر الولاية والقضاة في مناصبهم أو يعين بدلا من المزعولين منهم ، ثم عاد إلى إفريقية دون أن يقوم في شبه الجزيرة بأمر ذي شأن ^(٢) .

وفي العام التالي في سنة ١١٠٧ م أو فاتحة سنة ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى ؛ بيد أنه كان ينوى عندئذ أن يشهر الحرب على النصارى الأسبان بكل ما وسع من عزم وقوة ، وعهد بالقيادة العليا إلى أخيه الأكبر تميم أبي الطاهر الذي عين واليا لإشبيلية ؛ فخرج تميم من غرناطة على رأس جيش ضخم متجهما نحو حدود النصارى ، وكان يضطرم رغبة في أن يدلل في الحرب على أنه لم يكن أقل صلاحية لولاية العرش من أخيه لو شاء ذلك أبوه ؛ وحالت دون تقدمه في قلب قشتالة قلعة إقليش أو (إقليج) المنيعة فضرب حولها الحصار في الحال ؛ ولما وقف الملك الشيخ ألفونسو السادس على ذلك وعلم بما حاق بالمدينة المحصورة من الضيق اشتد به الألم والحزن ؛ إذ كان ضعف الشيخوخة يحول دون سيره على رأس جيشه لمحاربة أعداء دينه ؛ ولكنه رأى نزولا على رأى زوجه لكي يثير

(١) كانت أم علي بن يوسف بن تاشفين أم ولد نصرانية تدعى « قرا » ، وليس « رميكة » كما يوردها المؤلف واسمها العربي « فاض الحسن » (راجع روض القرطاس ص ١٠٢ والحلل الموشية ص ٦١) .
(٢) الحلل الموشية ص ٦٢ .

حماسة جنده أن يرسل إلى ميدان الحرب ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من « سيدة » ابنة المتمدن بن عباد أمير إشبيلية السابق^(١) ، مع أنه لم يكن يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وأمر مؤدبه الكونت جارسيا دى كبرا (قبره) وكذلك جميع القادة أن يحرسوا كل الحرص على حياة ولده ورفاقته .

فلما رأى أبو الطاهر نعيم اقتراب قوات العدو من إقليش أراد أن يرفع الحصار وأن يرتد أدراجه ، ولكن أكابر القادة المرابطين استطاعوا بعد عناء إقناعه بخوض المعركة ، وكانت حال الجيش المرابطى مع ذلك تدعو إلى التوجس واليأس لأنه إذا لم يوفق إلى الظفر فقد سدت في وجهه جميع سبل الفرار .

وعند الفجر هجم المسلمون على القشتاليين في فيض من الشجاعة والعنف ، ولم يستطع النصارى أن يصمدوا لهجوم يحدوه اليأس ، فاضطروا إلى الارتداد رغم شجاعتهم ورباط جأشهم ؛ ومن سوء الطالع أن ازدلف الأمير الفتى سانشو إلى قلب المعركة فبادر إليه الأعداء متحمسين ، وتقدم الكونت جارسيا مليكه يدرأ عنه الخطر بدرعه ويحاول إنقاذه بكل ماوسع ، فلم يثن دفاعه شيئاً وسقط الكونت ضحية واجبه ، وسقط إلى جانبه وريث مملكة قشتالة ؛ وما كاد يذاع بين النصارى أن سانشو قد سقط حتى ركنوا إلى الفرار أشتاتاً ، وقتل الظافرون منهم مقتلة عظيمة ، وانتهزوا فرصة الروع السائد فاستولوا على إقليش عنوة ، وسقط في ميدان الحرب عشرون ألفاً من النصارى وسبعة من كونتات قشتالة ؛ بيد أن المسلمين لم يحرزوا النصر دون خسارة فادحة ، وهذا ما يفسر كونهم لم يتابعوا ظفرهم بالتوغل في ولاية طليطلة ، ولم يستولوا إلا على بعض المدن

(١) سبق أن أشرنا إلى ستم الرواية النصرانية بشأن زواج ابنة المتمدن من ألفونسو السادس ، ومع أن الرواية الإسلامية تشبه هنا إلى نصح زوجه إليه في أن يرسل ولده إلى ميدان الحرب ، فإنها لم تصر بكلمة قط إلى أصلها الإسلامى (راجع روض القرطاس ص ١٠٤) ، ويؤيد ابن خلدون على ذلك تفاصيل عن زوجة ألفونسو السادس تؤيد بطلان الرواية النصرانية وأخصها أنها أفلت بعد موته بأسر الجلائفة ، فهل كان يقر النصارى ذلك لو أنها كانت تمت بصلة ما إلى الإسلام والمسلمين (راجع ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٢) .

الواقعة على مقربة من إقليش مثل قونقة وأمستريجو ووبذه وأوريواله وأقونيه وقونسويجرا^(١).

ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين في إقليش في ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م ذروة سلطانهم في اسبانيا ومن ذلك التاريخ تنحدر قوتهم في اسبانيا عاما بعد عام ، وتمصف روح الخروج والثورة بسلطانهم في إفريقية والأندلس ، ويفقدو سقوطهم القريب أمرا محتوما .

(١) راجع في تفاصيل موقعة إقليش روض الفرجات من ١٠٣ و ١٠٤ .

الفصل الثامن

تاريخ الدول الأسبانية الداخلى

فى عهد ألفونسو السادس

١ - الشؤون الكنسية

تحدثنا فيما تقدم عن الأعوام الأولى لحكم ألفونسو السادس ، وحروبه مع أخويه سانشو وجارسيا ، وفتوحه فى قشتالة ، واستيلائه على طليطلة ، ثم عن حروبه ضد المرابطين . وسنتحدث هنا عن أحوال الكنيسة الأسبانية ، وعن نظم الدولة والتشريع فى عهد هذا الملك القشتالى العظيم ، ثم عن تاريخ إمارة برشلونة حتى خضوعها لتأدية الجزية لقشتالة .

ولقد كان النصارى الأسبان — ما خلا أهل الثغر الأسبانى — أو الأراضى الواقعة بين نهر إيبرو والجبال البرينية ، وهم الذين كانوا منذ أيام كارل الأكبر (شارلمان) ينتمون إلى المملكة النصرانية العامة — حتى القرن الحادى عشر — كأنما يفصلهم سد مانع عن باقى أوروبا النصرانية ، ولم يتح لهم بسبب معاركهم المستمرة مع المسلمين — وهى معارك كانت تستغرق كل قواهم وتهدد كياناتهم أحيانا — أن يساهموا فى الحوادث الأوروبية الكبرى ؛ بل إنه ليس من المحقق أنهم كانوا يعترفون برياسة البابا الروحية لأمر الغرب النصرانية ، وإن كانت توجد ثمة وثائق مشكوك فى صحتها تؤيد وجود الملائق بين أسبانيا والكرسى الرسولى ؛ ولكن تغير ذلك كله فى أوائل القرن الحادى عشر . ذلك أن الآباء البندكتيين^(١) افتتحوا

(١) الآباء البندكتيون هيئة دينية نصرانية أسسها القديس بندكت سنة ٥٢٨ م و =

كل هذه المسالك المنقطة إلى ممالك قشتالة وليون وجليقية واشتوريش ؛ إذ استقدمتهم الأسرة النافارية اللوكية التي كانت تحكم جميع الممالك النصرانية في شبه الجزيرة ، ودفعت بهم إلى جميع أديار أسبانيا ، ثم رفعوا بعد ذلك إلى أسمى المناصب الكنسية ، وعملوا عندئذ على توطيد السيادة البابوية .

وبعث البابا اسكندر الثاني إلى أراجون سفيراً هو هوجو كنديدوس ليعمل على إلغاء الصلاة القوطية التي قررت منذ بميد ، فاستقبله ملكها سانشو راميريز بحفاوة ونزل على كل رغبات البابا ، وبذلت عندئذ (سنة ١٠٧١م) أول محاولة لتقرير الصلاة الرومانية ، وسن عقوبات رادعة ضد شراء المناصب الكنسية ، وشد في تحريم استعمال الوسائل السحرية والاعتقاد في مقدرة الأفراد الخارقة ، ووضع الملك كل أديار مملكته تحت سلطة البابا ورفع عنها سلطة الأسقف ، وحصل من البابا نظير ذلك على إذن بأن يستعمل في محاربة المسلمين دخل الكنائس الواقعة في مناطق كانت تابعة للمسلمين ؛ ولم تكن هذه مزية ذات شأن ، ومع ذلك فقد تمهد الملك بأن يدفع للكرسي الرسولي خمسمائة مثقال من الذهب كل عام . واعتبر البابا جريجورى السابع — الذى حاول فضلاً عن رئاسة الكنيسة النصرانية أن يخضع السلطة الزمنية للسلطة الروحية — هذه الهبة كما نواة يجب أن تؤديها أراجون ، وأقر في مقابل ذلك الامتيازات التي منحت إليها من سلفه ، ومنها أن يستعمل دخل الكنائس التي كانت في مناطق تابعة للمسلمين في نشر الدين المسيحي ؛ ولكن سانشو رفض هذه العروض في مؤتمر « رودا » الكنسي الذي عقد في سنة ١٠٨٨ واحتج بشدة على دعاوى البابا .

ولم يقصر جريجورى دعواه على أراجون ، ولكنه جعلها شاملة لجميع أسبانيا ، فكتب إلى جميع أمراء الجزيرة النصرانية يطلب إليهم الاعتراف به كسيدهم الأعلى وألا يقوموا دون إذنه بفتوح ما . ذلك لأن الجزيرة الأسبانية كانت كلها قبل

دير مونتى كاسينى بإيطاليا ، ثم انتشرت بعد ذلك في أنحاء أوروبا ؛ وامتاز الكثير من رجالها بالعلم حتى أصبحت كلمة « بندكتى » تطلق على العلماء التجبرين .

الفتح الإسلامى تابعة للكرسى الرسولى ، وأنه لا يعترف بهم ملوكا شرعيين للممالك الأسبانية ولا يأذن لهم فى القيام بفتوح جديدة إلا إذا دفعوا الجزية لرومة ، ونعمدوا بأن يحكموا الأراضى التى ينتزعونها من المسلمين على أنها تؤدي إليه الجزية ؛ ومع أن الملوك الأسبانيين لم يكونوا على علم راسخ بتاريخ وطنهم لى بقدر ما مدى الدعاوى البابوية فإنهم استاءوا والرسالة البابا أيماء استياء ، حتى أن السفير هوجو الذى عاد فأرسله البابا لتنظيم الشؤون الأسبانية نصح إليه بالرفق والاعتدال . وعاد جريجورى فأرسل بعد قليل (سنة ١٠٧٥ م) إلى اسبانيا سفيراً آخر هو أمارتوس لى يحدد دعاوى البابوية على الأراضى الأسبانية ، ويطلب بالنساء الصلاة القوطية والتشديد فى تحريم زواج رجال الدين ، وإقرار حق البابا فى تعيين الأساقفة وهو حق كان يزاوله الملك . ولم يوفق البابا إلى تحقيق شئ فى سبيل المطلب الأول ، ولكنه وفق إلى تحقيق المطالب الأخرى ولا سيما إلغاء الصلاة القوطية . وإذا كان الأمراء قد اعترضوا على دعاوى الجزية فإنهم لم يشددوا المعارضة فى تقرير الصلاة الرومانية . فقررت فى ناغار وأراجون وقطلانية وقشتالة فى آماذ متقاربة ، وكانت قشتالة أشدها معارضة فى تقزيرها ؛ ولكن ملكها ألفونسو السادس مال إلى تأييد البابوية فى مطلبها نظير وعد بمصادقة البابا على طلاقه من زوجه الملكة أجنيثس ثم زواجه بعد ذلك مرة أخرى . ومع أن الشعب والفرسان ورجال الدين عارضوا المشروع بشدة فقد انتهى الملك بتقرير الصلاة الرومانية فى ليون ، وتليت فى كنيسة الكبرى ؛ وحصل الملك على إذن بطلاق زوجه أجنيثس وتزوج من بعدها بالأميرة كونستانس ابنة أحد دوقات برجونيه الذين ينتمون إلى آل كاييه (ملوك فرنسا) وغدت ملكة لقشتالة (سنة ١٠٧٩ أو سنة ١٠٨٠ م) .

واعترم الكرسى الرسولى حين رأى أن رجال الدين الأسبان هم أشد معارضيه أن ينظم فى اسبانيا « رجال دين » (أكليروسا) ينتمون إليه ، وقدم إليه الآباء البندكتيون الذين وفدوا من فرنسا فى هذا السبيل أجل الخدمات ، ومنهم اقتخب

معظم الأساقفة الأسبان فيما بعد . وأبدى دير ساهاجون البندكتي غير خاصة في تحقيق مقاصد البابا ولا سيما على يد رئيسه برنار الفرنسى وهو رجل وافر الذكاء والبراعة اشتهر قبل انتظامه في سلك الكهنوت بشجاعته في الحرب كفارس ؛ وحصل برنار أثناء زيارته لرومة على مرسوم بتولى الدير للقضاء الكنسى الأعلى ، ووضع مباحرة تحت رئاسة رومة وحصل من الملك ألفونسو على امتيازات ذات شأن للدير .

ولما انتزع ألفونسو مدينة طليطلة من يد المسلمين واتخذ مقامه في عاصمة القوط القديمة ، دعا — نزولا على تقاليد المصور السالفة — مجلساً نيابياً أو اجتماعاً كنسياً إلى الانمقاد . ومع أننا لم نتلق تفاصيل ما دار في هذا الاجتماع الذى عقد في ديسمبر سنة ١٠٨٦ فإنه من الثابت أن الراهب برنار رئيس دير ساهاجون قد انتخب فيه مطراناً لطيطة . كذلك تباحث الملك في هذا الاجتماع مع كبراء دولته فيما يجب إجراؤه لتدارك ما أحدثته هزيمة الزلاقة التى وقعت قبل ذلك بقليل ، وذلك بإعداد معدات الحرب السريعة ضد المسلمين . ومن الحق أن الكونت هنرى والكونت ريمون البورجنين قريبي الملكة كونستانس كانا يومئذ في أسبانيا ، وإليهما وإلى وساطة المطران برنار يرجع الفضل في وفود جماعات كبيرة من المحاربين الفرنسيين إلى أسبانيا . وهنا يمكن القول بأن ذلك كان أول بدء للحروب الصليبية .

ولم يمض على تقلد برنار لمنصبه الرفيع عام واحد حتى كشف عن عميق تمصبه . ذلك أنه انتهر فرصة غياب الملك عن طليطلة فافتحم بموافقة الملكة — وهى امرأة شديدة التمسب — مسجد المسلمين الذى اشترط في المعاهدة التى عقدت عند تسليم المدينة أن يبقى مفتوحاً لإجراء الشعائر . ولم يقدر الحبر التمسب عهد مليكه وشرفه ، ولا تأثير هذا التكت فى سكان طليطلة المسلمين وهم جبهة كبيرة ، وبعث العمال بالليل فأقاموا بالمسجد هياكل ، وزتبوا فيه أجراساً ، وقلبوه كنيسة للتصارى . وفى صباح اليوم التالى عقد قداساً حافلاً إيماناً بتحويله رسمياً إلى

كنيسة ؛ فهاج المسلمون في طليطلة وماجوا ، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة في المدينة لاستحال هياجمهم إلى ثورة صريحة . وفي الحال بعثوا منهم وفداً إلى الملك ليناقشوه الحساب في أحكام المعاهدة المقودة . وما كاد ألفونسو يقف على تفاصيل الحادث حتى استشاط غضباً من الأسقف ومن زوجه ، وأدرك لفوره ما يمكن أن يترتب على مثل هذا النكث . ذلك أن الجيش كان يضم آلافاً من المسلمين ، وكان المسلمون أغلبية في ولاية طليطلة . وكان التسامح الديني ، والزام الدقة في تنفيذ أحكام المعاهدة التي عقدت ، مما يجعلهم ينسون أنهم خاضعون لأمر نصراني . وكان يجد فيهم عضداً قويا في حروبه ضد الأندلسيين والمرابطين الذين كانوا يومئذ يهددون الأراضي النصرانية بجموعهم الزاخرة . وكان عمل الأسقف الطائش الشير حرياً بأن يحمل المسلمين على الخروج على ألفونسو ؛ وكانت قوى ملك قشتالة قد نقصت منذ هزيمة الزلاقة ، بحيث كانت كل زيادة في قوى أعدائه تجعله عاجزاً عن الاحتفاظ بما وراء نهر التاجه ؛ ومن ثم فقد وصل به الغضب من فعلة المطران والملكة إلى حد أنه أمر حال وقوفه على الخبر بحرقهما لما أنارا بفعلتهما من مأزق حرج . ولعل رسل المسلمين رأوا أنهم لن يكسبوا شيئاً من توقيع مثل هذه العقوبة ، لأن رجال الدين وهم جبهة متمصية سينتهون بإحراز الفوز ؛ أو لعلهم أملوا أن يستعيدوا مسجدهم إذا سوى الشكل بسلام ، فكانوا أول من التمس من الملك أن يهدى من غضبه وأن يصفح عن مثيरी الفتنة . وليس من الواضح لماذا بقي المسجد بعد ذلك منزوعاً من أصحابه ؛ بيد أن في ذلك على الأقل ما يدل على أن رجال الدين كانت لهم اليد العليا . أما ما يزعمه أحد مطارنة طليطلة^(١) بعد ذلك من أن المسلمين هم الذين أحلوا عندئذ ملك قشتالة طوعاً من جميع اليهود التي قطعت في المعاهدة فظاهر أنه تبرير فقط لنكث النصارى . وعلى أى حال ففي ٢٥ أكتوبر سنة ١٠٨٧ حول مسجد طليطلة الجامع إلى كنيسة جامعة في حفل رسمي (شعبان سنة ٤٨٠ هـ).

(١) هو رودريك الطليطلي ، وقد عاش في القرن الثالث عشر ووضع باللاتينية تاريخاً لأسبانيا .

وفي العام التالي أراد برنار السفر إلى رومة ليحصل على ثوبه الكهنوتي ، ولكنه ما كاد يعتمد عن طليطلة حتى يادر رجال الدين الأسبان إلى الغمل لخلعه باعتباره أجنبيا لا محل لتفضيله ؛ وعلم برنار بهذه الحركة من بعض أصدقائه فارتد مسرعا إلى طليطلة وفشت الحركة وأبمد زعماؤها أو عزلوا عن مناصبهم ، وعين برنار مكانهم رهبانا من مواطنيه الفرنسيين ، ولا سيما من دير ساهاجون ؛ ثم سافر بمدن إلى رومة ، وحصل من البابا أوربان الثاني على الثوب الكهنوتي ، وعلى مرسوم بتعيينه رئيسا للكنيسة الأسبانية . ورأى لسكى يقضى على معارضة رجال الدين الأسبان أن يضع على رأس الأسقفيات الهامة في أوسمه وبراجا وسيجوزا وطليلة وبلنسية وسمورة وفلمرية رهبانا من مواطنيه . ومع أن البابا حصل على حق تعيين الأساقفة فإن ملك قشتالة لم يستمع دائما إلى رغبات البابا ؛ بيد أنه سمح للسفير البابوي بأن يعقد اجتماعا كنسيا عاما بعد أن كن ذلك من حق الملك وحده ، لأن كل اجتماع كنسي كان يعتبر مجاسا نيابيا ؛ وكان عقده في هوسليوس بالقرب من پالانسيا^(١) Palencia (سنة ١٠٨٩) وفيه حصل الملك على موافقة الأبحار باستمرار اعتقال الأسقف بلازديجو ، وهو الذى اتهم بتدبير مؤامرة لماونة ولیم الفاتح على فتح جليقية . ولكن أوربان الثاني قضى بطلان هذا الاجتماع ، وأرسل إلى أسبانيا سفيراً آخر لينظم شؤونها الكنسية وفق رغباته ، هو الكردبنال رزيوس ، وعقدت بدعوته جمعية كنسية أخرى في ليون سنة ١٠٩١ ، وشهدا الملك وكبراء المملكة وتقرر فيها الإفراج عن الأسقف ديجو ، ونفذت أوامر البابا في تعيين بعض الأساقفة وعزل البعض الآخر . وكان من أهم ما قرر فيها أيضاً إنشاء الكتابة الطليطلية ، وهى كتابة لم تكن قوطية ، ولكنها كانت تختلف عن الكتابة الرومانية اختلافا كبيرا ، وأحات مكانها الكتابة الرومانية ، كما تقرر إدخال الطقوس الدينية الرومانية .

ولما عقد أوربان مؤتمر كليرمون ، وأذكى حماسة الأمم النصرانية كلها لخوض

(١) م غير بلنسية ، وم من مدن قشتالة القديمة ونفع على مقربة من بلد الوليد .

الحروب الصليبية ، أراد برنار وعدة من الأساقفة الأسبان السفر على رأس الصفوف إلى القبر المقدس ؛ ولكن أوربان حرم على الأسبان أن يشاركوا في الحرب الصليبية في المشرق ، لأن أعداء النصرانية (المسلمين) يهددونهم في عقر دارهم ، وكفى النصارى الأسبان نفراً أن يقاتلوا المسلمين في القرب . واستمر أوربان يعمل في تمكين سلطانه على الكنيسة الأسبانية ؛ ومع أن الفونسو كان ملكاً قوياً فإنه كان يحل البابا كرئيس أعلى للكنيسة ، إلى حد أنه لم يفكر في مناصبته المداء جهاراً مثلما كان يفعل القيصر الروماني وغيره من الأمراء يومئذ ، ومن ثم فقد أعفى من عقوبة الحرمان الكنسي ، وذلك بالرغم من أنه كان كثيراً ما يعارض الأمانى البابوية ؛ وثار بينه وبين أوربان خلاف حاد بخصوص تعيين أسقف لكبرى شنت ياقب ، وتمسك كل منهما بمرشحه ، ولم تحسم المسألة إلا بعد وفاة أوربان حيث وافق خلفه على اختيار مرشح الملك .

وقد أضر نفوذ الآباء البندكتيين بنمو القومية الأسبانية ؛ ولكنهم من جهة أخرى أدوا خدمات جليلة إلى اسبانيا التي كانت متخلفة في مضمار الثقافة عن غيرها من الأمم الأوروبية ، ولطفوا من حدة النزعات الحربية العنيفة . ذلك أن الكفاح المستمر ضد المسلمين قد أسبغ على الشعب كله دون استثناء لرجال الدين لوناً حربياً عميقاً ، حتى أن الرجل لم يكن ليحظى بالتقدير والاحترام إلا إذا أبدى شجاعته على رأس الجند في محاربة أعداء الدين . ولذا لم يك ثمة كبير فارق بين الأساقفة والنبلاء وحكام الولايات . فالأساقفة كانوا كهولاء يحكمون باعتبارهم أتباع الملك في المدن والأقاليم ، وكانوا عند الحرب يدعون إلى مرافقة الجيش ، ولم يكن من النادر أن نرى الأساقفة في المواقع على رأس السرايا ، أو نراهم يقودون الحملات أو يحاصرون المدن ؛ وكان برنار رئيس الكنيسة الأسبانية يضطرم رغبة في أن يساهم في الحرب الصليبية بالرغم من تحريم البابا ، وقد حشد بالفعل فرقة من الفرسان وسار على رأسها ، ولكنه حينما وصل إلى رومة أمره البابا بالموء فوراً حرصاً على مصالح الكنيسة ، وأصدر مرسوماً

جديداً بتشديد التحريم على رجال الدين والفرسان الأسبان أن يساهموا في الحروب الصليبية ، لأن محاربة المسلمين في أسبانيا لا تقل أهمية وقدراً عن المحاربة في المشرق ؛ وترتب على ذلك أن هرع كثير من الفرسان النصارى من مختلف الأمم إلى أسبانيا ليساهموا في حربها الصليبية وهي أمنية أقرب وأيسر مثلاً ، وكان لذلك أثره أيضاً في تقوية جانب ملوك اسبانيا النصرانية ضد المسلمين .

ولم يكن نفوذ البابا مقتصراً على ممالك اسبانيا النصرانية ، ولكنه كان يتناول أيضاً النصارى الماهدين تحت حكم المسلمين^(١) ، وكان له رأى في تعيين أساقفة المناطق الإسلامية ؛ ومع أن مصائر الكنيسة الأسبانية كانت تجتمع في يد رئيسها الأعلى فإن معظم المؤتمرات الكنسية كانت تعقد على يد سفراء البابا ، وذلك حرصاً من رومة على ألا يستخدم رئيس الكنيسة الأسبانية استقلاله في إنشاء كنيسة مستقلة كما حدث في قسطنطينية .

٢ — نظم الدولة والتشريع

كانت نظم الدولة في الممالك النصرانية الأسبانية حتى القرن الحادى عشر فيما يظهر ، مماثلة للنظم التى كانت قائمة فى أواخر عهد القوط . وكان الملك وراثياً فى قشتالة فقط ، ولكن فى باقى الإمارات الأخرى ، فى جليقية وليون واشتوريش ونافار وأراجون كان الملك ينتخب بواسطة الكبراء . بيد أنهم اجتناباً لاجتراب الأهلية كانوا ينتخبون من كان بمولده أحق الناس بالعرش . وكان الملك يجتمع بين يديه أكبر سلطة فى الحرب وفى السلم ، وقيادة الجيوش العليا وحكم القضاء الأعلى . وكان بطانة الملك الذين يعاونونه فى الحكم يدعون « رجال الخاص » Palatini . وكانت أسماء المناصب والمناصب نفسها مشتقة من النظم القوطية . بيد أنه كان ثمة تقليد مشتق من النظم الفرنجية ، وهو أن الوزير الأول كان يسمى « محافظ القصر » Majordomus ، وذلك دون أن يتمتع بسلطات خاصة فى الحكم ، لأن ملوك اسبانيا كانوا يتولون الحكم بأنفسهم ؛ وكان وزير الحرب يسمى « حامل السلاح »

(١) ويطلق عليهم بالأفريقية Mozarabes ، والظاهر أنها تحريف لكلمة « مستعرب »

Armiger ، وقاضى الجنايات الأعلى يسمى «المرجع الأعلى» Majorinus Palatii . وكان يدير الشؤون المالية المشرفون على الاقتصاد Oeconomi Palatii ؛ ويتولى إعداد المراسيم والوثائق السجلون المكليون Notarii ، وكانوا فى الغالب من رجال الدين ؛ ويعنى بخدمة الملك وتدير شؤون القصر طائفة خاصة من الحشم ؛ وكان يخدم الملك على المائدة يوم توليه العرش أربعة من أكرم نبلاء المملكة ، وهو تقليد كان موجوداً فى الأمم الجرمانية منذ المصور القديمة .

وقد تكونت نظم الأقطاع مثلاً حدث فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا عقب عصر كارل الأكبر (شارلمان) وأدخلت لأول مرة فى قشتالة حين تبوأ ملوك نافار المارفون بالنظم الفرنجية عرش المملكة الأسبانية . بيد أننا لا نستطيع أن نقطع بأن النظم الأقطاعية لم تعرف قبل ذلك فى شبه الجزيرة (وقد كانت فى الثغر الأسباني منذ القرن التاسع) ، وكل ما هنالك أنها لم تطبق بنفس الصورة التى طبقت بها فى أمم أوروبا الوسطى ؛ ثم إن ظروف العصر كلها تدل على أنه لم يكن ثمة بد من أن ينتقل غرس الأقطاع إلى قشتالة ، وكان سبيل ذلك العلم بنظم الدول الإسلامية التى كانت تعرف الأقطاع .

وكان رمز الخضوع الظاهر لأحكام الإقطاع اليمين التى يؤدىها صاحب الأقطاع إلى الأمير ضماناً بإخلاصه واعترافه بأنه يضع أرضه وأتباعه تحت تصرف الأمير ؛ وفى أثناء الحرب ينتظم فى الجيش مع أتباعه ، وفى السلم يمثل فى البلاط متى دعاه الملك . كذلك يجب عليه أن يؤدى للأمير جزية معينة . فإذا لم يحافظ التابع على عهده جاز للملك أن يقضى عليه بفقد إقطاعه . والظاهر أن الإقطاع كان فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر وراثياً . وقد كان يقوم على فكرة المنصب (Honor) وكون الأمير يستطيع أن يهب المناصب وفق مشيئته وأن يستردها . فإذا تولت أسرة معينة المنصب طويلاً فإنها تطالب نظير إخلاصها فى الخدمة بالمنصب وما يتماق به من أرزاق تستمد من الأرض ؛ وكان الملك فى أحيان كثيرة يضطر بالرغم منه إلى ترك الإقطاع للأسرة .

وكان مجتمع الإقطاع ينقسم إلى مراتب متعددة فالدوق أو الوالى (Consul) هو التابع الذى يُقطع ولاية برمتها مثل جليقية أو اشتورية أو ألبه أو البرتغال ، وكان هؤلاء الولاة فى الغالب يعملون على استقلالهم وتأسيس دولة جديدة ؛ ويليهِ الكونت أو القومس (Comes)^(١) وهو الذى يقطع منطقة ، فأصحاب المنح الصغيرة وهم البارونات (Barones) وهم الملاك من أتباع الكونت . ولما كان هذا النظام عسكرياً فى جوهره فقد كانت هذه المراتب يحتفظ بها فى الحرب تحت أسماء أخرى ، فالدوق أو الوالى يقود جيش الولاية ويسمى قائداً ، ويقود الكونت فرقته ويمتبر قائداً محلياً وتتكون قواته من البارونات الذين يسمون عندئذ بالفرسان ؛ والفارس أدنى مراتب النبيل وهو الشخص الذى يستطيع أن يقتنى جواداً وسلاحاً ؛ وكان الفرسان قوام الجيش وعليهم تتوقف مصاير الحرب ، ويتكون الجند المشاة من أتباع البارونات ومن حشم الدوقات والقوامس .

وكان الملك فى منازعات ومعارك دائمة مع الدوقات والقوامس ، ولم يكن يستطيع الحد من خروج الأتباع وانتهابهم للقوانين إلا بعمالة رجال الدين الأقوياء ، والشعب والمخلصين من أصحاب الإقطاع ، وأصحاب المناصب الذين يؤجر خدماتهم بأثمان فادحة ؛ وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى عقد المهادت مع الخوارج أو مهادنتهم أو النزول عند مطالبهم على حساب أصحاب الإقطاع المخلصين ، وبهذه الوسيلة تنتزع منه المناصب والولايات والرياسات .

وكان كبار الملاك أو الأتباع يقطعون الأحرار الأقل منهم أجزاء من أراضيهم لزراعتها على أن يؤدوا إليهم نصف الدخل أو ثلثه على الأقل . ولم تكن هذه المنح تحدد بوقت معين ؛ بل كان المزارع يعتبر نفسه مالك الأرض يزرعها ، ثم تؤول من بعده إلى ولده ؛ ولكنه كان ملزماً بالإقامة فيها ؛ فإذا غادرها إلى منطقة أخرى فقد الحق فى امتلاكها ؛ وقد فرض ألفونسو السادس ضريبة سنوية قدرها مثقالان إسبانيان على كل صاحب حقل به منزل ، فإذا قسم الحقل بعد موته على

(١) وتسميه الرواية العربية بالقمط أو القومس معربة عن اللاتينية .

أولاده وجب على كل منهم أن يؤدي نفس الضريبة ؛ ومن ملك منزلا خاصا في حقل صاحب الإقطاع وجب أن يؤدي إليه في كل عام مقادير معينة من المحصول ، وأن يقدم إليه جياذه وماشيته تعمل لديه عدة أيام بلا أجر . فإذا شاء أن يبيع منزله وعمله إلى السيد أو بعارة أخرى إذا شاء أن يفدو من حشمه ومماليكه قام بتقدير الثمن أربعة خبراء اثنان من النصرارى واثنان من اليهود .

ولا بد أن عدد الأرقاء في اسبانيا النصرانية كان عظيما جدا . ذلك أن جميع الأسرى في المعارك المستمرة التي كانت تنشب ضد المسلمين كان يقضى عليهم بالرق ، وكانوا يكلفون بأشق الأعمال ، وكانوا يمنحون الحرية أحيانا ولكن دائما بشرط اعتناقهم النصرانية . ذلك أنه كان يسوغ للنصارى فقط في الممالك النصرانية الأسبانية أن يكونوا أحراراً .

وإن ألفونسو السادس يستحق أعظم الثناء لما وفق إليه من أن ياتى « حق القوة » ^(١) في جميع أنحاء مملكته في عصر ساد فيه حكم القوة في جميع أوربا . وقد عنى بتنظيم العدالة الصارمة ، وفرض على الدوقات والقوامس ونوابهم أن يعاقبوا مرتكبي الجرائم والجنح بحزم ودون تمييز ؛ وكان من جراء هذه السياسة الحكيمة أن كانت قشتالة هي البلد الوحيد في أوربا الذى يستطيع التجار والنساء والعزل جوبه دون التعرض لأذى الفرسان الناهبين أو القتل والصوص ، حتى ولو كانوا يحملون مالا ونفائس ظاهرة . وكذلك عنى ملك قشتالة بتحسين الطرق الكبرى وإنشاء القناطر على الأنهار .

ومع أن الملك كان يتمتع أثناء الحرب بسلطات لا حد لها ، وفي السلم كان يتمتع بأسمى السلطات القضائية ، فإنه كان يشترك معه في وضع القوانين عظام المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف ، وكان هؤلاء يسبغون باجتماعهم النيابية (الكورتيز) Cortes تحت رئاسة الملك على تصرفاته لون الشرعية المطلقة . ولم

(١) المقصود ما كان سائدا في المصدر الوسطى في معظم الأمم الأوروبية ولا سيما في عصر الفروسية من الانتهاب إلى القوة والعنف في تحصيل الحقوق واغتصابها ؛ وتغليب الأقوى ، بصرف النظر عن الحق أو العدالة .

تكن الطبقة الوسطى تمثل في هذه المجالس لأنها لم تكن بعد ذات أهمية تذكر . ولما كانت هذه المجالس تعنى بتنظيم شؤون الدولة والكنيسة معاً نظراً لأن الأمير كان حتى القرن الحادى عشر يعتبر ملاذاً أعلى لكنيسة مملكته ، فإنها كانت من هذه الناحية ذات أهمية مزدوجة . وكانت مسائل الكنيسة تبحث بادىً ذى بدء دون أن يشترك فى بحثها ممثلو الهيئات الزمنية ، ثم تبحث بعد ذلك مسائل الدولة . وكان الملك يدعو المجلس (الكورتيز) إلى الاجتماع كلما دعت الظروف إلى عقده ، وتوقع قراراته من المجتمعين وفى مقدمتهم الملك والملسكة ، وكان حضورها ضرورياً فى هذه المجالس .

وقد اشتقت ممالك اسبانيا النصرانية شرائعها من القانون القوطى وقوانين مجلس طليطلة ؛ وكان القضاة يتبعون أحكام القانون القوطى ما لم تتعارض مع قرارات المجلس النيابى ، ومع القوانين الجديدة التى يصدرها الملك بالاستناد إلى المرف وبصادق عليها المجلس (الكورتيز) وهى المسماة (Buenos Fueros) . وكانت هذه القوانين تلتى نظائرها من القوانين القوطية إلغاء جزئياً فقط ، وكانت فى الواقع قوانين بلدية وامتيازات خاصة لمدن أو أماكن معينة تطابق بعضى الزمن فى الولاية كلها . وقد نشأت بادىً ذى بدء فى قشتالة حينما كانت ولاية يحكمها القوامس الخارجون على مملكة ليون ، وكانت تمنح إلى المدن كامتياز يوطد ولاءها نحو سادتها الجدد . وإذا لم يكن الكونت سانشو جارسيا هو أول من منح مدن قشتالة هذه الامتيازات (سنة ١٠١٢ م) ، فهو فيما يبدو أول من عمم تطبيقها فى جميع أنحاء الولاية ؛ وهذا ألفونسو الخامس ملك ليون فى ذلك حذو قوامس قشتالة فسن لشعبه شريعة شاملة Fuero على يد مجلس ليون (سنة ١٠٢٠ م) . ولما وحد فرديناند الأول بين مملكتى ليون وقشتالة صادق على شريعتيهما فى مجلس كوايزا (سنة ١٠٥٠ م) وحذا حذوه ألفونسو السادس فأصدر مثل هذه المصادقة فى مجلس طليطلة (سنة ١٠٨٦ م) .

وكان قومس المدينة يباشر القضاء المدنى والجنايى ، وماونه نواب قضائيون

وخبراء ؛ ويتولى تنفيذ الأحكام الجنائية وكلاء سموا فيما بعد Alguaciles ولهم رئيس Majorino يقضى فى المواد الجنائية وينفذ أوامر الملك .
وكل إنسان حر فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء وله أن يختار محامياً أو
وكيلاً للدفاع عنه . أما اليهود فلم يكن يحق لهم الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم وفقاً
لقانون أصدره ألفونسو السادس .

وكان يتولى أعمال الإشهاد مسجلون أغلبهم من رجال الدين ، ويتولى الإشهاد
على الأوامر الملكية مسجل خاص للبلاط .

وكانت الإجراءات القضائية بسيطة سرية . وكانت محاولة التأثير على القاضى
بالرشوة تماقب بشدة وتجعل الحكم باطلا ؛ وكان لا بد لسقوط الحق من مضى
خمسین عاماً فى بعض الأحوال وثلاثین فى البعض الآخر . ولكن رجال الدين
حصلوا من فرديناند الأول على امتياز يقضى بعدم سقوط حقوقهم بمضى المدة .

وأما وسائل الإثبات القضائية فكانت الكتابة والبيئة ؛ واليمين إذا لم يوجد .
وفى قانون أصدره ألفونسو السادس كان يكفي لإثبات جريمة القتل على القاتل أن
يذكر الكاهن الذى تلقى أقوال القاتل قبيل وفاته اسم قاتله حسبما سمعه منه ؛ فإذا
عدمت الأدلة استعمل التعذيب ، ولكن فى أحوال نادرة جداً ، أو استعملت
بعض الإجراءات الدينية الخرافية التى تعرف « بحكم الله » كان يؤمر المتهم مثلاً
بأن يستخرج بذراعه العارية عدداً من الحصى من وعاء به ماء يغلى ثم تربط ذراعه
ويختتم عليها ، وترك ثلاثة أيام ، فإذا ظهرت بعلها فى ذراعه حروق اعتبر مذنباً ،
وإذا لم تنصب الذراع بشئ اعتبر بريئاً . وفى قانون أصدره ألفونسو السادس كان
يسمح للمتهم بالقتل فى حالة الإنكار أن يرى نفسه باليمين ، ثم يجب عليه بعد
ذلك أن يبارز منتهزاً ، فإذا غلبه ذلك وجبت عليه دية مالية معينة .

وكانت العقوبات تختلف من الإعدام إلى جز الشعر دلالة على العار ، ثم بتر
الأطراف وسمل الأعين والجلد والغرامة والمصادرة ، وكان أندرها الحبس . وفى
قطلوניה كان القاتل يماقب بالنفى إلى إفريقية ، وفى قشتالة كان القتل يُفتدى بالدية ،

وفى ليون كان القانون يقضى بأن القاتل إذا استطاع الفرار والاحتجاب عن أعين مطارديه تسعة أيام ترك وشأنه ، فإذا قبض عليه قبل ذلك وكان ذا مال غرم مبلغاً يتراوح بين مائة وخمسة مئة مثقال يأخذ الملك ثلثه ، ويمطى الثلثان إلى أقارب القاتل ؛ وتراد الغرامة إذا وقع القتل بالليل ، أو بطريق الغيلة ، أو كان المجنى عليه من الحكام . وكانت اليمين الكاذبة وشهادة الزور تعاقب بالغرامة ، وتهدم دار الكاذب في يمينه ، ولا يسمح له بعد ذلك بالشهادة ؛ ويُفقدى الجرح والضرب بالمال إذا شكا المجنى عليه ، ويعاقب بالغرامة أيضاً النش في الكيل والوزن ، أو بيع المواد الغذائية التالفة ؛ وكانت عقوبة الجلد نادرة جداً ، ولا يجلد سوى العبيد .

وأما في الميراث فكان يطبق القانون القوطى وهو ينص على توريث البنين من الذكور والإناث على قاعدة المساواة . بيد أنه يسمح للوالدين أن يتصرفا في الخمس بالوصية للنير لغاية دينية أو غيرها ، وفى خمس آخر لصالح الولد الأكبر أو الولد الأصغر .

وبالرغم من الحروب المستمرة بين النصارى الأسبان والمسلمين ، فإن التجارة ازدهرت لدى النصارى ؛ وكانت قطلونية نظراً لموقعها الجغرافى تتمتع بمزايا تجارية حسنة ، وكانت أيضاً تحظى بأكبر قسط من الثروات ، وكانت ترتبط بجمهورية بيزا وجنوه البحرىتين وبولايات الرون بأوثق الصلات ، وكانت سفنها تحمل المحاصيل والمصنوعات الأسبانية وفواكه الجنوب والحرير والصوف والأقمشة والجلد إلى إيطاليا واليونان ، ثم إلى مصر وسوريا ؛ وكانت أسواق قطلونية التى كانت تعقد عادة أيام الأعياد الكنسية وتستمر أسابيع عديدة ، أشهر أسواق أوروبا وأروجهها ، نظراً لتنوع أصنافها وجودة بضائرها .

وكانت تعقد أيضاً فى ليون أسواق دورية عظيمة ، وكانت تقرر أثمان الحاجات الضرورية طوال العام ، ولكن أثمان السلع الكمالية كانت تترك دون تحديد ، وكان يحق لسكان ضواحي المدينة أن يأتوا بسلهم فى كل وقت دون

مكوس أو رسوم ، ولكنهم كانوا يكفون مقابل ذلك وقت الحرب بالدفاع عن المدينة والمساهمة في أعمال التحصين .

وكانت المكوس تاتي أثناء الأسواق العامة والدورية ، وكانت رهبان ساهاجون يتمتعون بحق احتكار بيع النبيذ والأقمشة والأسماك والأخشاب ، فلا ينافسهم في بيعها في هذه المنطقة أحد ، وبما يقابل المخالفون بالمصادرة والغرامة .

٣ — تنظيم ألفونسو السادس لوراثة العرش

تزوج ألفونسو السادس ملك قشتالة عدة نساء ، ولكنه لم يترك ولدا يرث العرش من بعده . وكانت أولى نساؤه أجات ابنة وليم الفاتح ملك إنكلترا ، خطبها بطريق الوكالة وهو ملك على ليون ، ولكنها مرضت وتوفيت أثناء سفرها من إنكلترا إلى اسبانيا ولم يتم زواجه بها . وأولى نساؤه في الواقع هي اجنيس ابنة جيمس السادس دوق جويانه وبواتيه ، وقد طلقها لأعوام من زواجه بها (سنة ١٠٨٠) بموافقة البابا جريجوري السابع دون أن يعقب منها . ثم تزوج من بعدها كونستانس ابنة روبر الأول دوق بورجونيه من أسرة كابيه اللوكية ورزق منها بابنة هي الدونا أوراكا التي زوجت وهي في الدائرة من عمرها بالسكوت ريموند البورجونى عند مقدمه إلى اسبانيا . وكانت كونستانس امرأة شديدة التعصب ، وإلى نفوذها المترتب على تأثير البابا يرجع إلغاء الصلاة القوطية والخط الطليطلى ، وانضواء الكنيسة الاسبانية تحت لواء البابا ؛ ثم توفيت سنة ١٠٩٢ ، واقرن ألفونسو عقب وفاتها بأميرة تدعى برتا يختلف المزارعون في نسبتها وتوفيت دون عقب . ولم يعقب ألفونسو من زوجه التالية وهي اليزابيث ابنة لويس ملك فرنسا ذكورا ، ولكنه رزق منها بابنتين هما سانشا التي اقرنت بالكونت رودريك ، والقيرا التي اقرنت بـ (روجر) ملك صقلية . وتزوج ألفونسو مرة أخرى قبيل وفاته بقليل ، وذلك عقب واقعة اقلش التي هلك فيها ولده غير الشرعى سانشو أملا في أن يرزق بوارث لعرشه ، وكانت هذه الزوجة

الخامسة والأخيرة هي ياتريس ابنة أمير أوستا وتوسكانا ، ولكنه لم يزق منها بمقب .

ولم تكن تقاليد المسلمين وأساليب حياتهم — وإن تبرأ النصارى منها — دون تأثير في حياة الأمراء النصارى ، فقد كان عدة من ملوك ليون وقشتالة فضلا عن الزوجة الشرعية يحتفظون بسر من الخطايا (الحریم) ، ومع أن هؤلاء الخطايا لم يبلغن من الكثرة مبلغهن عند الأمراء المسلمين ، فقد كن يعاملن معاملة الزوجات تقريبا ، وكان أولادهن بالرغم من حرمانهم من الإرث الشرعى يرثون أحيانا بعض الأراضى . وكان آثر خطايا ألفونسو لديه اثنتان هما كميننا نوفيتر الجليقية ، وسيدة ابنة المتمد أمير إشبيلية . وقد رزق من الأولى بابنتين هما تريزيا والقيرا التى اقترنت بالكونت ريموند دى تولوز وصحبته فى الحملة الصليبية إلى بيت المقدس . أما تريزيا فقد اقترنت بهنرى دى بيزانسون ، وأقطعها ألفونسو لقاء شجاعته فى محاربة المسلمين أرضا بين نهر دويره ونهر تاجه ، وأسس منها له ولعقبه إمارة خاصة عرفت فيما بعد بامارة « البرتغال » .

أما سيدة ابنة أمير إشبيلية ، أو ماريا اليزابث كما عرفت باسمها النصرانى فتقول الرواية النصرانية إن ألفونسو تزوجها فى سنة ١٠٩٦ ، ولكن هنالك ما يدل على أنه اقترن بها قبل ذلك ، لأن أباه المتمد كان عندئذ قد فقد سلطانه وزج إلى الأسر فى إفريقية منذ أعوام . والمحقق أن المتمد قدسها زوجة لألفونسو سنة ١٠٩١ وذلك لى يوثق روابط التحالف المقود بينهما . ولم يكن فى اتخاذ ألفونسو إياها خليفة فقط ، ما يؤذى الأمير وهو نفسه يحتفظ بعدد كبير من الخطايا . ثم ألم يعمد الملوك النصارى قبل ذلك بمصير إلى إعطاء بناتهم للأمراء المسلمين بالرغم من تحريم دينهم لذلك ؟ فلماذا يتأذى أمير مسلم من تقليد تبجحه شريعته . (كذا) ، هذا إلى أن سيدة كانت هى الوحيدة بين نساء ألفونسو التى ولدت له ولدا هو سانشو . وكان ألفونسو يحب ولده غير الشرعى حبا جما ، حتى انه اختاره لولاية عهده ، ولا سيما لما بدا من نجابته وشجاعته . ولكنه هلك

في موقعة إقليش ، وهلك معه مؤدبه الكونت كابرًا مدافعاً عنه ؛ وهناك من يشك في أن كبراء قشتالة لم يمنوا بالمحافظة على سلامته عناية كافية ، وأنهم عرضوه للخطر لكي يهلك في الموقعة فلا يرث العرش ولد غير شرعي . كذلك عقد الأسراء التابعون لألفونسو مع صهره ريموند وهنرى حلفاً سرياً ضد اختيار سانشو لولاية العهد يقضى بأن يتعاون الحلفاء عند وفاة ألفونسو على القاع ، وأن يفتسموا المملكة والأموال والذخائر ؛ ولكن هذا المشروع انتهى بوفاة ريموند ، ثم يقتل سانشو وتصرفات ألفونسو الأخيرة لتنظيم وراثته العرش .

وحزن الملك الشيخ لوفاة ولده المحبوب أيما حزن ، وأثقلته السنون والأوصاب ، فعول على أن يترك المملكة لابنته أوراكا أرملة الكونت ريموند . ولكنه رأى من الضرورة أن تقبض على الحكم يد حازمة ، وأن تُحمى الأرمل من عواقب التسرع والشطط . ولما كان ألفونسو يرى عظمة المملكة في سعة الأراضي المحكومة ، ويبحث في الوقت نفسه بأمنية عزيزة هي أن يوحد بين الممالك النصرانية تحت عرش واحد ، فقد وقع اختياره على ألفونسو الأول ملك أراجون ونافار ، وكان يومئذ أعزب ، ليكون زوجاً لابنته ، وكان ملكاً هاماً شجاعاً . واستدعى ملك قشتالة قبل عقد الزواج نواب المملكة للاجتماع في ليون (الكورتيز) ، فاجتمع الأساقفة والقوامس ، وحكام الولايات ، ورجال الدين والأشراف والفرسان ، ونواب الطبقة الوسطى ، وكان اجتماعاً شعبياً بكل معنى الكلمة ؛ وأصدر هذا المجلس قراراته بشأن وراثته العرش ، وخلصتها : أن تكون أوراكا واثرة مملكة ليون وقشتالة واشتوريش ، وأن يمنح ولدا ألفونسو ريمونديز مملكة جليقية مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتاج لعرش قشتالة ؛ فإذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون فإن المملكة جميعها تؤول إلى ولدا ألفونسو ريمونديز ، أعني إلى حفيد ألفونسو السادس ؛ وعهد بتربية الطفل إلى عمه أسقف فيين (وهو البابا كالكستوس الثاني فيما بعد) والكونت ترافا ، ومنح إمارة جليقية

في الحال تحت وصايتها ، على أن تبقى له دون نقض أو رجوع .
وما كاد الملك الشيخ الذي أشرف على الثمانين وأوهن المرض قواه ينتهي من
تنظيم هذه الشؤون حتى أدركه الموت وذلك في ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م ، فخرن
الشعب قاطبة لوفاته . وقد أسس ألفونسو خلال أربعة وأربعين عاما من حكم قوى
مستغبر مجد قشتالة إلى قرون ؛ ولم توهنه بعد ذلك حرب أهلية ولا تقسيم ؛ وكان
تقيا ، كريما ، عاقلا ، عادلا ، رقيقا ، جهم التواضع . وكان في الحرب جديرا بقيادة
فرسان اسبانيا الشجعان في عصره ؛ وأعظم فتوحه استيلاؤه على طليطلة التي
سميت بحق قلب اسبانيا ، والتي يمكن منها غزو أى جزء من الجزيرة بنجاح ؛
ولولا تدفق سيل المرابطين على الجزيرة في وقت بلغوا فيه أوج قوتهم لفقد المسلمون
يومئذ كل سيادة في اسبانيا ؛ وقد ألقى فاتح إفريقيا^(١) نهاية فتوحه حينما كان
جيش ألفونسو الباسل ، واستحق ملك قشتالة في تسع وثلاثين موقعة خاضها
لقب « نور اسبانيا ودرعها » وكان يلقب نفسه في الوثائق والمراسلات « بالقيصر » .
ومذ حاول قيصر الدولة الرومانية هنرى الثالث أن يستعيد السيادة العامة
التي كانت لكارل الأكبر على ملوك النصرانية ، وأن يعتبر كل ملوك الغرب
المنصراني أتباعا له ، وطلب إلى معظمهم الاعتراف بطاعته ، ظهر لقب القيصر
بين ملوك قشتالة ، فتلقب به فرديناند الأول معاصر هنرى الثالث ، ثم تلقب به
ألفونسو السادس ، وذلك لكي يعز نفسه بالأخص عن باقي ملوك اسبانيا
النصرانية . والواقع أنه فضلا عن بسطه لسلطانه على الإمارات المسلمة التي
افتتحها ، والإمارات النصرانية التي كانت تابعة لمملكته ، كان يعتبر ضمن
أتباعه أمراء قطلونية وملوك أراجون ، وذلك بالرغم من أن أراجون لم تكن
تعترف بمثل هذه الدعوى ، وكان لها باتحادها مع نافار من القوة ما يكفي لتدعيم
استقلالها ؛ أما إمارة برشلونة فكانت من الضعف بحيث كانت تغتبط بحماية
قشتالة لها .

(١) يشير هنا إلى يوسف بن تاشفين .

٤ — إمارة قطلونية

(من سنة ١٠٧٦ — ١١٠٦ م)

أوصى ريموند برنجار الأول الذى أتينا على سيرته فيما تقدم عند وفاته (سنة ١٠٧٦ م) بالحكم المشترك لولديه برنجار وريموند . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بين الأخوين ، وسوى بادي ذى بدء على يد كبراء الولاية ، واتفق على أن يتسمى كل من الأخوين بكونت برشلونة ، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر . ثم قتل ريموند الثانى غيلة فى سنة ١٠٨٢ ، واتجهت الشبهة فى قتله إلى أخيه برنجار ، وفى بعض الروايات أنه هو الذى دبر بالفعل مصرعه . وقام برنجار بحكم الولاية وحده ، وكذلك بصفته وصيا على ولد أخيه القاصر ريموند الثالث . وإذا صدقنا ما يرويه « ريسكو » فى تاريخه « السيد الكنيطور » فإن « السيد » هو الذى حال دون انتصار أمراء برشلونة على المسلمين ، إذ كان يومئذ فى خدمة بنى هود أمراء سرقسطة ؛ وتقول هذه الرواية إن الكنيطور انتصر بادي ذى بدء على الكونت برنجار فى موقعة « المنارة » سنة ١٠٨٣ ، ثم رده بعدئذ عن حصار بلنسية فى سنة ١٠٨٩ ؛ ولما هاجم السيد أمير دانية ، وخف برنجار لإنجاده هزمه السيد وأسرهم مع بضع آلاف من جنده ، ثم أفرج عنه بعد ذلك ، وانتقل العداء بينهما إلى صداقة ، وعقدت خطبة ماريا ابنة « السيد » على ابن أخى برنجار ريموند . ولما سافر برنجار إلى المشرق حاجا فى سنة ١٠٩٢ ترك الولاية كلها لابن أخيه الصبي ريموند الثالث ، تحت حماية « السيد » معتقداً أنه لن يعود إلى اسبانيا .

والروايات القطلونية عن هذا العصر موجزة وغامضة ، وعلاقة السيد بتاريخ قطلونية تثير أعظم شك ، بل إن هذا التاريخ لا يذكر اسم السيد على الإطلاق ؛ ومما يزيدنا شكاً فيما ينسب إلى السيد من محاربة أمير برشلونة أن الكونت برنجار ريموند كان يومئذ يرتبط مع ألفونسو السادس ملك قشتالة برابطة التحالف ، وكان يعمل تحت حمايته وإشرافه لتوسيع أملاكه . وقد اشترك فى

الحلف الذى عقد بين ألفونسو السادس والمعتمد أمير إشبيلية لافتتاح طليطلة ، فلما انقلب المعتمد بعد سقوط طليطلة إلى خصومة ملك قشتالة بمثل ألفونسو برنجار ريموند الذى تسميه الرواية العربية « القرمط البرهانس »^(١) سفيراً إلى إشبيلية يطالب أميرها بالخضوع وتأدية الجزية ، وكان الكونت برنجار من شهود موقعة الزلاقة التى دارت فيها الدائرة على النصارى ، ولم يمض على ذلك عامان أو ثلاثة حتى سار الكونت فى قواته إلى بلنسية ، ولكنه لم يستطع افتتاحها . ولما سافر عقب ذلك إلى المشرق حاجباً ترك الولاية لابن أخيه الصبي ريموند الثالث يحكمها تحت حماية ألفونسو السادس ، وأبدى هذا الأمير الفتى شجاعة فى محاربة المرابطين خصوصاً بعد أن كثر عيشتهم فى أراضى قطلونية منذ سنة ١٠١٦ م^(٢) .

(١) سبق أن أشرنا إلى ما فى هذا القول من تحريف ، وأوضحنا أن « البرهانس » الذى تشير إليه الرواية العربية إنما هو القار فانيز Alvar Fanez قائد ألفونسو السادس ، (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ، والحلل الموشية ص ٢٣) .
(٢) نرى أن تشير إلى أننا رأينا من المستحسن أن تتصرف فى ترجمة بعض أجزاء هذا الفصل أحياناً بالتلخيص وأحياناً بالحذف اليسير .

الفصل الثالث

ألفونسو المحارب وعصره

(من سنة ١١٠٥ - ١١٣٤ م)

١ - حروب النصارى الاسبان والمسلمين

منذ موقعة اقلش حتى عود ألفونسو من الأندلس

لم يحكم ملك من ملوك اسبانيا منذ عهد بلاجيوس (بلايو)^(١) من أقطار شبه الجزيرة مثل ما حكم ألفونسو الأول الأرجوني من حيث سعة الملك وخصامته ، فقد ضم عقب وفاة حميه (ألفونسو السادس) إلى مملكته الأصلية ، وهي أراجون ونافارا (نبرة) ميراث زوجته أوركا المستمل على ممالك ليون وقشتالة واشتوريش ، وعلى إمارتين جديدتين تؤديان الجزية هما جليقية والبرتغال . ولو ضمت إليه إمارة برشلونة لشمك حكمه جميع اسبانيا النصرانية ، أعنى النصف الشمالى الأكبر من شبه الجزيرة . وكان قد خلف أخاه « بيدرو » على عرش أراجون فى سنة ١١٠٥ بعد أن توفى وحيداً وسميه حديثاً . وكان بيدرو

(١) : بلاجيوس ، (وفى الرواية العربية بلاى أو بلايو) ، هو زعيم من زعماء القوط لهم الفتح الإسلامى لاسبانيا ، التجأ إلى مفاوز جليقية الوعرة والتفت حوله شرادم قليلة من النصارى ، ولكنه استطاع أن يقاوم المسلمين وأن يردم غير مرة عن تلك المائل الجبابية التى نسيها الرواية الإسلامية « بالصخرة » . وتركه الملوك لما رأوا ضآلة شأنه ووعورة هذه الهضاب ، فقوى أمره ، واشتد ساعده ، وأعلنه الجليقيون ملكاً عليهم . وكان هذا منشأ مملكة جليقية التى نمت فيما بعد واشتد بأسها (راجع أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٢٨ ، وفتح الطيب ج ١ ص ١١٠ ، وج ٢ ص ٥٧) .

قد أبدى خلال حكمه الذى دام عشرة أعوام فروسية وتقى ، واستطاع بفتحه لخصى بربشتر ووشقة التميمين أن يمهّد الطريق إلى افتتاح تطيلة وسرقسطة ؛ وقام بغزوة حتى ظاهر بلنسية أبدى فيها شجاعة وبراعة . وكان يقيم فى المدن المفتوحة كنائس وأديارا ، ويفدق صلاته على الكنيسة ؛ ومنح النصارى فى المدن الإسلامية المفتوحة امتيازات خاصة لتشجيع الزراعة ؛ ولما كانوا ملزمين بالخدمة العسكرية وقت الخطر نظراً لقربهم من بلاد العدو ، فقد ترتب على ذلك أن نهضت الطبقة الوسطى حتى كانت على قدم المساواة مع النبلاء تقريبا ، وتغلغل نفوذها فى شؤون الدولة كلها فى وقت لم يكن لها فى باقى البلاد الأوربية شأن يذكر .

ولما أسفرت الحرب الصليبية الأولى عن النجاح ، وفاز الصليبيون بافتتاح بيت المقدس ، أعلن البابا (باسكال الثانى) الحرب الصليبية فى إسبانيا ضد المسلمين . وإذ كان النصارى الأسبان قد منعوا من مرافقة الصليبيين إلى بيت المقدس فقد رأى بيدرو وكثير من رعاياه أن يشهروا الحرب الصليبية فى إسبانيا ذاتها ضد « أعداء الدين » ، وحاصر بيدرو سرقسطة لمدى قصير (سنة ١١٠١ م) ، ولكن الفرصة لم تكن سانحة لتحقيق هذا المشروع ، لأن الرابطين استعادوا بلنسية بعد ذلك بقليل ؛ وغدوا فى مركز يسمح لهم بمعاونة المستعين بن هود معاونة قوية ، ومن ثم فقد اضطر النصارى إلى ترك الحصار .

وسار ألفونسو بعد وفاة أخيه بيدرو فى أثر أسلافه بوسائل أعظم وخلال أربع . وغدا بزواجه بأورا كا ابنة ملك قشتالة سيد إسبانيا النصرانية ، يسيطر على قوى حربية زاخرة رأى أن يخصصها قبل كل شيء لافتتاح سرقسطة . وكان الرابطون قد احتلوا هذه القلعة المنيعه على كره من أميرها المستعين (سنة ١١٠٨ م) واتخذوها قاعدة للإغارة على قطلونية وأراجون^(١) . بيد أنهم كانوا

(١) دخل الرابطون بقيادة أمير عبد الله بن الحاج مدينة سرقسطة لأول مرة =

يتكبدون الخسائر أحيانا ، إذ كان ألفونسو بطاردهم عند العودة ، بل لقد هزم الراباطون بقيادة ابن الحاج وحليفهم أبو بكر بن ابراهيم والى مرسية في معركة دموية حطمت قواهم ، واستطاع ألفونسو أن يضرب الحصار حول تطيلة . وقدر المستعين أمير سرقسطة أهمية تطيلة نجف إلى إنقاذها في جيشه ، ولكن الأمير الباسل هزم في الموقعة التي نشبت . بيد أنه لم يمش ليشهد عار الهزيمة ، إذ سقط في الميدان وهو يقاتل قتال الأبطال . وعلى أثر هذا النصر المجيد الذي أحرزته الأرجونيون سقطت تطيلة في أيديهم في فبراير سنة ١١١٠ م (رجب سنة ٥٠٣ هـ) .

وما كاد نبأ مصرع المستعين يعرف في سرقسطة حتى تولى الأمر من بعده ولده أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن هود الملقب بعماد الدولة ، وكان أميراً شجاعاً ولكنه لم يكن مثل أبيه ذكاء وفطنة ، ولم يستطع مثله أن يوطد لنفسه نوعاً من الاستقلال في تلك الآونة العصيبة وإزاء جيرانه الأقوياء^(١) .

ولكن أمرين أنقذا سرقسطة مع ذلك إلى أعوام أخرى ، بل مهدا السبيل لعود تطيلة إلى أيدي المسلمين^(٢) ، ففي ذلك الوقت نشبت بين ألفونسو وبين زوجه أورাকা حرب ذميمة استغرقت قواه مدى حين ، وعبرت قوى المرابطين الزاخرة من إفريقية إلى إسبانيا ؛ وتقدر قوى المرابطين التي عبرت عندئذ بمائة ألف فارس وثلاثة آلاف راجل ، وهو تقدير فيه مبالغة شديدة . وبينما كان ألفونسو مشغولاً بمحاربة ملكة قشتالة ، مشغولاً في نفس الوقت بحماية حدود أراجون من غزوات المسلمين ، سار على بن يوسف بن تاشفين في نخبة جنده المرابطين إلى

= سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) ثم دخلوها للمرة الثانية بعد أشهر فلال بقيادة محمد بن الحاج (سنة ٥٠٢ هـ) واستولوا عليها وأخرجوا منها بني هود (روض القرطاس ص ١٠٣ و ١٠٤) وفي رواية ابن الأبار أن أهل سرقسطة استدعوا محمد بن الحاج المشرقي والى بلنسية ، فدخلها في ذي القعدة سنة ٥٠٣ هـ (الحلة السراء ص ٢٢٥) .

(١) راجع ابن الأبار في الحلة السراء (ص ٢٢٤ و ٢٢٥) .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٦

ولاية طليطلة ، واستولى على عدد كبير من القلاع والحصون الصغيرة ، وانتسف الحقول ، واسترق السكان ، وبث الدعر والروع حتى أبواب عاصمة اسبانيا النصرانية . أجل كانت طليطلة يحميها موقعها فوق الآكام ، وأسوارها المنيعة ، وحاميتها الكبيرة من اقتحام العدو لها . ولكن مدريد (مجرط) ووادي الحجارة وطلبيرة وغيرها أخذت عنوة وقتل سكانها الذين اجترأوا على المقاومة^(١) وعندئذ فقط رأى سلطان المرابطين أنه يستطيع العودة إلى قرطبة مكلا بفار الفخر فارتد تاركا وراءه آثاراً مروعة من التخريب ، وبمد أن عهد إلى قائده مزدلى بتكرار هذه الغزوات المخربة عاد إلى إفريقية حتى لا يطول غيابه عن مراكش عاصمته ومركز مملكته الشاسعة .

وفي نفس الوقت الذي كان على يهدد فيه طليطلة ، سار جيش آخر من المرابطين بقيادة الأمير سير بن أبي بكر إلى البرتغال لمقاتلة أميرها الكونت هنري ، وافتتح شنتره وبطليوس وباريه (أو يافورة) وشترين وأشبونة . وهدد قلدية عاصمة الولاية^(٢) ، وسار جيش ثالث بقيادة والي مرسية ، فاخترق سرقسطة ، وحاصر برشلونة مدى عشرين يوماً ، ولم يرفع المسلمون الحصار إلا عند ما زحف عليهم ألفونسو في جيش زاخر من الأرجونيين والقطلونيين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية أثخن فيها كل منهما في الآخر دون أن يحرز أحدهما نصراً حاسماً ، وغادر المسلمون برشلونة وقد عاثوا فيها (سنة ١١١١ م - ٥٠٤ هـ)^(٣) .

وكان المرابطون يكررون هذا الميث في أراضي النصارى كل عام تقريباً ويعودون غالباً بننائم عظيمة وكثير من الأسرى . وفي سنة ١١١٣ م (٥٠٦ هـ)

(١) هذا هو الجواز الثاني لملئ بن تاشفين إلى اسبانيا ، وقد وقع في سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ويقدر صاحب روض القرطاس جيش المرابطين يومئذ بأكثر من مائة ألف فارس ويفصل لنا أخبار هذه الغزوة (ص ١٠٥) والتقدير مبالغ فيه بلا ريب . راجع أيضاً الحلل المشية ص ٦٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠٤ .

سار مزدلى إلى طليطلة وحاصرها ثمانية أيام ولكنه لم يوفق فى منـروعـه ، إذ أـحـرقـ النـصـارى آـلات الحـصار . يـسـد أنه اسـتـطاع بالرغم من مقاومة قوامس جليقية وإسراع ألفونسو بالقدوم فى جيش ضخـم ، أن يستولى على قورية بمـالـة بعض النصارى الناقمين ؛ ولكن برلانية أنقذت بعد أن حوصرت حيناً^(١) .

وفى العام التالى (سنة ١١١٤ م) غزا مزدلى قشتالة مرة أخرى وقفل ظافراً . واسكنه حين العودة هاجمه الكونت رودريجو نونيز صاحب وادى الحجارة فـكـر عليه ببراعة ورد النصارى بخسارة فادحة . وغره هذا الظفر فارتد إلى قشتالة غازياً فى قوة صغيرة واشتبك دون تحوط مع قوة كبيرة من النصارى فاستشهد وكثير من أصحابه ؛ وخلفه فى الولاية والقيادة ولده محمد بن مزدلى ، وكان مثله فى الجرأة والشجاعة^(٢) وفى نفس هذا الوقت تقريباً (أوائل سنة ١١١٥ م) نقد المـرابـطون الجزائر الشرقية (البليار) ثم استردوها . وكان القطلونيين قد استولوا على جزيرة ميورقة بمعاونة البروقنسيين والبيزيين الذين أمدوهم بالسفن ، ولكنهم وصموا نصرهم بقتل أهلها المسلمين ؛ وسرعان ما حلت ساعة الانتقام ، ذلك أن المـرابـطين خشوا أن تنبذ الجزيرة قاعدة لمهاجمة أملاكهم فى بلنسية وفى إفريقية ، فسيروا أسطولاً إلى ميورقة واستردوها وانتقموا للمسلمين بقتل جميع سكانها النصارى .

ورأى المـرابـطون الانتفاع بأسطولهم المجهز فى أعمال الغزو ، فسيروا بعض سفنهم إلى شواطئ اشتوريش وجليقية ، وكان النصارى اعتماداً منهم على أن هذه الأنحاء بمأمن من الأعداء قد تركوا حصونها خراباً . فأنار نزول المسلمين الفجائى أيماروع بين سكان شمال غربى اسبانيا ، خصوصاً وقد انضم إليهم بعض القرصان الإنكليز . ولكن أسقف شانت ياقب استطاع أن يواجه الخطر بحكمة وروية ، فحشد سكان الريف فى المدن حماية لهم ، وطارده سرايا الأعداء التى تفرقت هنا

(١) يضع صاحب روض القرطاس تاريخ هذه النزوة فى سنة ٥٠٧ هـ (سنة ١١١٤ م)

(ص ١٠٥) .

(٢) يشهر صاحب روض القرطاس إلى هذه النزوة ، ويسمى رودريجو نونيز « بالزند

غريسيس » ، ولكنه يقول لنا إن الأمير مزدلى توفى فى العام التالى (سنة ٥٠٨ هـ) .

وهناك ، وهذا روع السكان بإنشاء عدة سفن قام على بنائها صناع مهرة من جنوه ويزا .

وكان من أثر انتصاف الحقول في اسبانيا الوسطى خلال الحروب المتواصلة ، ونقص المحصول المترتب على سوء الأحوال الجوية : أن عصف بشبه الجزيرة الاسبانية في سنة ١١١٧ م حط شديد ، ذهب في سبيله من الأرواح ما لم يذهب من قبل بالحرب والسيف .

وإذا كانت غزوات المسلمين في أراضى قشتالة لم تقمع يومئذ بأشد مما قعت ، فذلك بسبب الحروب التي كانت تضطرم بين الملكة أوراكا وزوجها الملك ألفونسو ، وكانا يؤثران أحيانا أن يحطم كل منهما قوى الآخر على رد المسلمين عن أراضى الملكة ؛ وكان الشعب القشتالي نفسه منقسما على نفسه ، يؤيد هذا الفريق أو ذاك .

ولما رأى ألفونسو أن فريقا من الشعب القشتالي لا يؤيده ، حاول أن يوطد مركزه بوضع حاميات وثيقة في الحصون ، وعمد إلى استخدام قواته الباقية في توسيع مملكته الأصلية ، أعنى نافارا وأراجون . وفي سنة ١١١٤ م (٥٠٨ هـ) سار الكونت برش إلى تطيلة في قوة من الفرسان الفرنسيين والإنكليز ، وكان هؤلاء يهرعون إلى مقاتلة المسلمين لبواعث دينية ولتحقيق المغنم الدنيوية ، واستولى عليها بالخدعة ، وأقطعه الملك إياها على الجزية . ورغب النصراري في سكنائها بمنحهم بعض الامتيازات ، فوفد عليها كثير منهم في وقت قصير .

وهنا اتجهت أبصار ألفونسو إلى سرقسطة ، وكان استيلاؤه على هذه القامة الهامة ضروريا لتأمين مملكته ، والسيطرة على طريق الملاحه في نهر أيبرو . وكان يرى أمنيته في افتتاحها تدنو شيئا فشيئا ، وذلك بالرغم من أن الرابطين لم يدخروا وسما في معاونة أميرها عبد الملك بن هود . وكان قائد الرابطين الشجاع أبو محمد عبد الله بن مزدلي قد رد ألفونسو عنها مدى حين ؛ ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الرابطين وبين أمير سرقسطة ، فكان ذلك معجلا بسقوطها ؛ ذلك أن

عبد الملك بن هود ساءه مسلك الرابطين في محاولة السيطرة على المدينة ، فانشق عليهم وغادروها مع أسرته إلى حصن روطلة النيع ، وعقد مع ألفونسو محالفة ضمت بها قواته إلى جيش قشتالة . ولم يستطع المرابطون مغالبة القوى المتحدة ، فهزموها هزيمة شديدة ، واضطروا إلى الانسحاب من لاردة وسرقسطة . سنة ١١١٧ م (٥١١ هـ) (١) .

وحاول المرابطون استرداد ما خسروا ، فسار الأمير الشجاع تميم بن يوسف (أخو علي) إلى التزو على رأس جيش ضخم ، ولكن الحملة منيت بالفشل الطبق . لما أبدى ألفونسو من البراعة واليقظة . ذلك أن حرس الحدود أخطروه في الوقت الملائم بإقتراب العدو ، ومع أنه أخطر في الوقت نفسه بكثرة عدده فإنه لم يبدأ من خوض المعركة التي أرادها تميم ، وهنا غلبت مهارة القيادة مرة أخرى على ضخامة العدد ، فهزم تميم وفر في عشرة آلاف من جنده — هي بقية جيشه الممزق — صوب بلنسية ، واحتفل الحلفاء بالنصر في جميع أنحاء المنطقة التي حررت من العدو .

وإذا كان التفاهم قد استمر إلى ذلك الحين بين ألفونسو وأمير سرقسطة فإنه ما لبث أن اضطرب مذ زال خطر العدو المشترك ، وطالب ملك أراجون بتسليم سرقسطة ، فأبى عبد الملك إياه قاطما ، ولم يدخر وسعاً في الاستعداد لرد دعاوى الأراجونيين بقوة السيف . بيد أنه قبل أن يتمكن من تزويد المدينة بالقوات الكافية قدم جيش أراجوني فأحرق بها ، وكانت تماونه سرايات كبيرة من الفرسان الفرنسيين قدمت في طلب الغنيمة والكسب . وقاوم أهل سرقسطة المحاصرين في البداية مقاومة عنيفة ، ولكنهم ما لبثوا أن شعروا بنقص وسائلهم وأهليتهم ، إذ نفذت المؤن والأقوات بسرعة ، ولم يك ثمة أمل في الثوث والإنقاذ . ولم يك أمامهم سوى قتال يأس لا طائل تحته . عندئذ عولوا على المفاوضة ، وقبل ألفونسو أن يفاوضهم لكي يعجل بالاستيلاء على المدينة الهامة .

واتُفق على أن يؤمن أهل سرقسطة في النفس والمال ، وأن يكونوا أحراراً في مزاولة شعائر دينهم ، والاحتكام إلى قضائهم وشرائعهم ، وأن يترك لهم الخيار في البقاء والهجرة بأموالهم . وبعد أن قطع ألفونسو على نفسه هذه المهود ففتح له سرقسطة أبوابها ، فدخلها في ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ م (رمضان سنة ٥١٢ هـ) . وسار عبد الملك بأمواله وأسرته وحرسه إلى حصن روضة الشاهق ، وصحبه نفر من أهل سرقسطة . وهاجر كثير منهم إلى مرسية وبلنسية مؤثرين مغادرة الوطن حيث كانت وطأة النصارى تشتد على المسلمين يوماً بعد يوم (١) .

وانهار بسقوط سرقسطة ثاني معقل للمسلمين في اسبانيا ، بعد أن لبث في قبضتهم أربعين عاماً . واتخذ ملك أراجون سرقسطة عاصمة للملك ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وجعل منها مركزاً لأسقفية ، ومنح سكانها (النصارى) حقوق الأشراف الأصغر وامتيازاتهم ، وكافأ الفرسان الفرنسيين الذين استمروا في معاونته حتى أخذ المدينة ، ولأسيا الكونت جاستون دي بيارن فقد أقطعه حي سرقسطة الذي كان يقطنه النصارى المماهدون من قبل ، وأنعم عليه بلقب « سيد سرقسطة » .

وكان المسلمون ما زالوا يملكون على مقربة من سرقسطة عدة مدن هامة تجمل مواقعها الجبلية الوعرة وحصونها القوية من الصنب حصارها ، فانهز ألفونسو فرصة الروع الذي بثه سقوط العاصمة ، وسار بعد أن نظم شؤون سرقسطة ، إلى جبال سيارا مولينا التي تفصل بين أراجون وقشتالة ، وكان للمسلمين بها عدة نقط دفاعية منيعة ، واستولى خلال ثلاثة أعوام على طر كونة وقلعة أيوب ، ودروقة وعدة أخرى من الحصون القريبة ، وأعاد في طر كونة مركز الأسقفية القديمة . وكان أبو الطاهر تميم أخو علي بن تاشفين قد خف لإنجاد قلعة أيوب بجيش قوى ونشبت بينه وبين النصارى في كوتاندا موقعة

(١) راجع في سقوط سرقسطة روض القرطاس ص ١٠٦ ، والحلة السراء ص ٢٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، ونفع الطيب ٢ ص ٥٨٥ .

دموية هزم فيها ، وقتل من جنده عشرون ألفاً ، وسقطت القلعة على أثر ذلك في أيدي النصارى (ربيع الثانى سنة ٥١٤هـ - ١١٢٠ م)^(١) ، وأنشأ ألفونسو على مقربة من هذه المدينة ، فى بسيط قفر ، قلعة جديدة سميت قلعة « مونريال » Monreat لتكون منزلاً للجمعية الجديدة من الفرسان أسست لحماية الدين .

وجاز على بن تاشفين بنفسه إلى اسبانيا فى سنة ١١٢١ م ، وهو يضطرم ألا لهذه الحن ؛ وغزا أراضي طليطلة والبرتغال ، وأثنى فيها واستولى على قلعة قلعية الهامة ، وأتى على جميع سكانها النصارى قتلاً وأسراً^(٢) ، وهى واقعة لم تشر إليها الرواية النصرانية . بيد أن ذلك كله لم يكن إلا تمويصاً زهيداً لما أصاب الإسلام . ثم عاد إلى قرطبة ومنها إلى إفريقية بعد أن عهد إلى أخيه تميم بالنظر فى شؤون الأندلس . ومن ذلك الحين يغرب طالع المرابطين شيئاً فشيئاً . وثارت فى قرطبة حيث كانت الحامية المرابطية ترهق السكان بكل صنوف الاضطهاد والظلم ، ثورة شديدة فاضطر على أن يهرب من إفريقية إلى الأندلس بجيش ضخم ؛ وقاومه الثوار فى البداية مقاومة شديدة ، فضيق الحصار على المدينة حتى خضع أعيانها واشتروا سلامتهم لقاء مبلغ كبير من المال^(٣) وما كاد على ينتهى من إخماد هذه الثورة حتى اضطرت فى إفريقية ثورة أخطر وأبعد أثراً ، واستغرقت كل اهتمامه وقواه ، فلم يتح له أن يولى شؤون الأندلس كثيراً من عنايته . وكان ذلك بدء نهوض الوحديين الذى انتهى بسقوط دولة المرابطين ، وهو سقوط عجلى به أحوال الأندلس واضطرابها الذى ظهرت بوادره منذ شغل المرابطون بحروب إفريقية .

وشجع ظفر الجيوش النصرانية التى استطاعت فى مدى قصير أن تفتتح قاعدتين من أهم القواعد الإسلامية ، النصارى المعاهدين Mozarabes^(٤) ، وهم

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ وهو يصف جواز على بن يوسف هذه المرة إلى الأندلس بأنه الجواز الثانى ؛ ولكن صاحب الحلال الموشية يصفه بأنه الجواز الثالث (ص ٦٢) .

(٣) يقدم إلينا ابن الخطيب فى الحلال الموشية تفصيلاً حسناً لثورة قرطبة على المرابطين (ص ٦٣) .

(٤) النصارى المعاهدون ، أو المعاهدون فقط ، هم نصارى الأندلس الذين كانوا =

جمهرة كبيرة في الأندلس ، على الأمل بأن انشغال على بحروب إفريقية واضطراب سلطانه في شبه الجزيرة ، سوف يؤديان إلى تحطيم النير الذي فرضه الاسلام على النصرانية في اسبانيا منذ أربعة قرون ؛ وقد كان مركزهم في الواقع لا بأس به ، إذ كانوا أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية ، والاحتكام إلى قضائهم وفقاً للشرائع القوطية . ولكن هل تستطيع أمة كانت حرة مستقلة أن تشمر بالسعادة مهما بلغت من رفاهة العيش إذا استحالت من سيده حاكمة إلى مسودة مستذلة لأمة أخرى تبنفصها من أجل الدين ؟ هذا إلى ما كان يسود جميع الأمم الأوربية في ذلك العصر من اضطراب يرجع إلى تلك الحروب التي شهت على الاسلام في سبيل نصرة الدين (الحروب الصليبية) .

ولم يكن في وسع النصارى المباحدين أن يقوموا في الأندلس بشيء دون معاونة من الخارج ؛ ذلك أن القلاع كلها كانت في يد المسلمين ، هذا فضلاً عن تفرقهم في مختلف الأنحاء ؛ ولم يكن في وسعهم أن يتحدوا إلا إذا شغل المسلمون بحرب تقع في الداخل ، ومن ثم فقد أرسلوا رسلهم إلى ألفونسو ملك أراجون الذي ارتفع صيته إلى الذروة بالاستيلاء على مرقسطة ، فشرحو له أحوال الأندلس وأحوال قلاعها شرخاً ضاقياً ، ورجوه أن يجهز حملة إليها ، وتمهدوا أن يماونوه بالتصح والعمل كمرشدين ومحاربين . فلما أبدى ألفونسو تردداً في قبول المشروع نظراً لبعده المكان وعدم الاطمئنان إلى الوعود المقطوعة ، كرر النصارى المهادنون السعي والرجاء ، ووعدوه بأن يحشدوا لمعونه في الحال اثني عشر ألف مقاتل ، وبأن ينضم جميع النصارى في جنوب اسبانيا إلى جيشه حال ظهوره ؛ وأنهم سوف يتعبطون جميعاً باعتباره سيدهم ومليكهم ، وأنه سوف يتم بإفتاح الأندلس أجل وأخصب وأسمد بقاع اسبانيا^(١) .

== يعيشون في الأراضي الإسلامية ويخضعون للحكم الإسلامي ، ويسمون بالافرنجية Mozarabes بالاشتقاق من كلمة « مستعربين » على ما يظهر . وأما للمسلمون الأندلسيون الذين كانوا يعيشون في الأراضي النصرانية ، ويخضعون لملوك النصارى فيقال لهم « اللدجنون » ومقابلها الافرنجي كلمة Mudifares .

(١) راجع الحلل للرشية من ٦٦ حيث يفصل تصرفات النصارى للمهادنين .

قلب هذا الإغراء في نفس الملك على ما كان يتصوره من صعوبة الشروع ، وما يحق من ضرور التماسه . ولم يفكر في أن القلاع الاسلانية المتعددة في ولايتي بلنسية ومرسية سوف تقدم حلاً على طمته من الورداء متى دخل ولاية غرناطة ، وأنه ليست هناك أية قاعدة ثابتة ، وليس أمامه سوى وعود النصارى المعاهدين ، وهي وعود لا يعول عليها . ومع ذلك فقد كان في روح المعصر ما يسمح باتخاذ القرارات السريعة الرشيحة ، وهي روح تربت على الثقة في عون الله على تنليل الصواب مهما عظمت . وكان فتح بيت المقدس يبدو للنصارى في كل مكان مثلاً سامعاً لهذا العون .

في يولييه سنة ١١٢٥ (شعبان سنة ٥١٩ هـ) خرج ألفونسو في جميع فرسانه ، أو حشداً تقول الرواية العربية في أربعة آلاف فارس أقسموا أن ينتصروا أو يموتوا^(١) ، ووقاه النصارى المعاهدون إلى بلنسية ، ولكنه لم يقف لحصارها ، بل اخترق الولايات الإسلامية وهو يشحن فيها ويتسلف حقوقها ، حتى وصل إلى مقربة من غرناطة تاركا وراءه شقراً وداية ومرسية وبياسة وحيثان وغيرها من الأماكن التيمة دون اقتراح ، وحيشه يتصخم يوماً بعد يوم بانضمام النصارى المعاهدين إليه ، ويقعدو على المسلمين أشد شكاية وضراً . ولو نجح ألفونسو في الاستيلاء على غرناطة وبها كثير من النصارى اللوالين له لانتحلت الحرب وجهة خطيرة على سلطان المرابطين ، ولكن وإلى غرناطة كان رجالاً واقراً المزم ، فاستطاع بالرغم من ضعف الحماية أن يهرب نصارى غرناطة ، وأن يحاول بما اتخذه من الاجراءات القوية دون ثورتهم ، وأن يشدد الرقابة عليهم دون أن يندفعهم بالطاردة والاضطهاد إلى الهياج ، واستقدم الجند من الأندلس المجاورة إلى المدينة بسرعة وانتظر مقدم النصارى . وكان الجيش النصراني قد بلغ عتقته رهاء حين ألف مقاتل ، فضرب الحصار حول غرناطة شاعراً بقوة وقوته ، ولكن رداء الطقس وما اقترن بها من الظر والمواصف الضخمية حالت دون القيام

(١) هذا ما ورد في الحلال اللوثة ص ٦٧ .

بمحاصر ناجع ، واضطر النصرارى إلى إضاءة بضعة أساييح لم يوفقوا فيها إلى شىء . وفى تلك الأثناء هدا روع أهل غرناطة ، واقترب وصول الأمداد التى قدم بها أبو الطاهر تميم ، فاضطر ألفونسو أن يرفع الحصار عن غرناطة ؛ ولكنه لما رأى المؤن تنهال عليه من المعادين من كل صوب قرر أن يعصى فى مغامرته ، وأن يسير صوب البحر الأبيض المتوسط ، تاركا غرناطة وراءه دون فتح ، وأن يضم تحت لوائه نصرارى مألقة والبشرات .

ومضى ألفونسو فى هذا السير الوعر ، وعلى مقربة منه صفوف الفرسان المرابطين الكثيفة تسير بمحاذاة ، وترقب كل فرصة صالحة للقتال ، حتى وصل إلى « اليسانة » ، وهى محلة تقع بين غرناطة والبحر الأبيض المتوسط . وهنا رأى المرابطون أن هذا البسيط يصلح لمارك الفرسان ، ولم يقو الفرسان الأفريقيون على كبح جماح رغبتهم فى القتال بمد ، فانقضوا على مقدمة النصرارى وألجأوها إلى الفرار ، واعتقدوا أنهم بذلك هزموا الجيش النصرانى كله ؛ وبينما شغلوا باقتسام الغنائم الثمينة ، إذ انقض ألفونسو على صفوف المسلمين الناهبة انقضاض النسر من الجو ومزقها تمزيقا ، واسترد الغنائم المفقودة ، واحتوى على أسلاب المدو وطارده حتى دخول الظلام . واستطاع النصرارى بهذا النصر الباهر أن يتابعوا السير دون أن يزعمهم أحد فى شعب البشرات الضيقة حتى خليج على البحر الأبيض بين مألقة والمرية ، وبذا بلغوا البحر الذى أقسم الملك وفرسانه أن يلفوه . وهناك أمر ألفونسو بصنع مركب فى البحر ، وأخذ يتلهى بصيد السمك للتدليل على مبلغ ما حقق من نذره ، ولكى يروى فيما بعد أن ملكا من ملوك أراجون خرج من مرقسطة وترك وراءه كثيرا من أراضى المدو ، وقام بصيد السمك على الشاطئ المقابل لأفريقية كما يفعل فى بلاده^(١) .

ومن ثم عاد ألفونسو أدراجه ، وانضم إلى جيشه أثناء العودة كثير من

(١) فى الحلال المرشبة تفصيل شاف لهذه الفزوة التى قام بها ألفونسو فى قلب الأندلس وحصاره غير الموفق لغرناطة وما نشب بينه وبين المسلمين من مختلف الوقائع (ص ٦٧ — ٦٩) .

نصارى البشرات ، وسار صوب غرناطة ككرة أخرى ؛ ولكنه لا رأى أنه لا يستطيع أخذ المدينة المحصنة دون حصار طويل ، وأن قوات العدو تزداد كل يوم ، أتجه صوب مدينة وادي آش ، وترك على مقربة منها قسما من جيشه في إحدى القلاع لكي يحمي خط رجعتهم ؛ ولكن سرعان ما أصاب الوهن والانحلال جيش النصارى ، وذلك من جراء قسوة الطقس ، وقد كان الفصل شتاء ، والسير الشاق فوق الربى العالية ، وما تفشى فيه من الأمراض الوبائية . ومع ذلك فقد أوقع النصارى بالمسلمين أضرارا فادحة ، وبثوا بينهم الدعر والروع ، وحصلوا منهم على غنائم عظيمة . وهكذا توجت هذه الغزوة بالنجاح ، وإن لم تقع خلالها فتوحات جديدة ؛ ثم عاد الجيش الأرجوني مخترقا ولايات مرسية وشاطبة وبلنسية إلى بلاده وفرسان المرابطين تلاحقه باستمرار ، وتنقض عليه في معارك صغيرة ، بعد أن غاب عن أراجون زهاء ستة أشهر ، وكان قد انضم إليه أثناء ذلك اثنا عشر ألفا من النصارى الماهدين ، آثروا هجرة أوطانهم خشية نقمة المسلمين ؛ وسرعان ما حلت في الواقع نقمة سلطان المرابطين باخوانهم الباقين ، فقد غرّبت منهم بأمره ألوف عدة إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك في أماكن مختلفة ، وهلك كثير منهم من جراء الطقس المتغير والماء الآسن ، وتغير وسائل التغذية^(١) ؛ وكان أسعدهم حظا أولئك الذين ضمهم على بن تاشفين إلى حرسه الخاص ، فقد استطاعوا باخلاصهم الفائق أن يقتنموا وافر عطفه وثقته . وفي وسعنا أن نقارن حملة ألفونسو إلى الأندلس واختراقه بهذا الجند القليل عدة ولايات إسلامية ، بسير اليونان في عشرة آلاف مقاتل فقط إلى مملكة الفرس . وإذا كان ثمة فرق في المسافة فإن الجرأة في المشروعين واحدة ؛ ولو لم يكن الفاتح يكتبني يومئذ بالاعتماد على قوة السواعد ، وكانت المشاريع العسكرية

(١) كان تغريب النصارى الماهدين من الأندلس إلى إفريقية بناء على فتوى القاضي أبي الوليد بن رشد وقد أبان فيها أن ما جناه النصارى الماهدون على الأندلس من استدعاء الروم ، وما في ذلك من نقض للعهد والخروج عن الذمة يقتضى تغريبهم وإجلاءهم عن أوطانهم وقد أخذ أمير المسلمين بقوله (الحلل الموشية من ٧٠ ، ٧١) .

تنظم على هدى الزوية والعقل أكثر مما توجهها الحماسة الطارئة « لاستطاع ملك
اسبانيا أن يتشبه بالاسكندر وأن ينظم مشروعا لحق العدو القوي . ولو أغضى
الغشتاليون والليونيون عن خصومتهم لملك أراجون وأندوه في حملته يتوجه الجند
ضد بلنسية وقرطبة ، وسير البرتغاليون والجليقيون في الوقت نفسه قواهم ضد
إشبيلية ، لكن من المحقق بوجه عام — مع عون التصاري المعاهدين ومع قلة الأمداد
التي يمكن أن يعتمدها الرابطون الذين شغلهم ثورة الموحدين — أن تقرب دولة
الاسلام في اسبانيا قبل الوقت الذي غرقت فيه بثلاثة وتحسين عاما ؛ وكثيرا
ما يتوقف سير الشعوب على مشروع أحسن تديره أو أسوأ .

٢ — أوركا ملكة قشتالة

كثيرا ما تنهار أذكي التدابير الانسانية بفعل حادث طاري . فقد توفى
ألفونسو السادس منتبها بفكرة أن زواجه ابنته من ملك أراجون سيندو دعامة
لستقبل اسبانيا ، وسيقضى على دولة الاسلام إلى الأبد . ولكن حدث العكس ،
وانقلب هذا الزواج شؤما وثمة على التصاري ، ودفع بهم إلى غمار الحرب
الاهلية ، وحدت من ظفرهم على السلمين . وكان مثار الاضطراب في مملكة قشتالة
يرجع بالأخص إلى اختلاف الزوجين اللئكين ؛ ذلك أن أوركا كانت امرأة
وافرة الكبرياء والطموح إلى السلطان ، أفسدها ما رأت من خضوع زوجها
الأول الكونت ريموند البورجونى ، فقبضت على زمام السلطة في قشتالة ، وفي
الأراضي التابعة لها ؛ على حين أن زوجها لم يكن يرغب في أن تشاطره الحكم بأى
وجه ، فكان هذا مثار جميع التنازعات والحروب التي نشبت بينهما ؛ وعمدت أوركا
توطيدا لسلطانها إلى إقالة جميع الرجال الذين اعتقدت أن ولاءهم للملك يفوق ولاءهم
لها من مناصبهم ، ورفعت من اصطفتهم إلى أرفع مناصب الدولة ، فاستشاط الملك
لذلك غضبا ورأى أن كرامته تقضى عليه ألا يتنازل عن أى حق من
حقوقه الملكية .

وما كاد الخلاف يضطرم بين اللسكين حتى غدا من التعمد التوفيق بينهما ،
إذ كان يحسدو كلا منهما نحو صاحبه يقض متأمل لم يطفه الحب قط . وأثارت
أوراكا — بما كانت يديه نحو بعض كبراء قشتالة من عطف خاص كان يوم
يقيم العلاقات الغرامية — في نفس الملك أليخاندرو فكان يتقصي كل خطواتها .

وأرادت أوراكا الطلاق والتخلص من هذا الزوج الذي كانت تمنعه منذ
البدية نظراً لما كان يربطها بزوجها الملك من أواصر القربى الوثيقة ، فأبى ملك
أراجون لأن الطلاق يقفده حق الحكم في قشتالة ، ويتبدل كل ما في وسعه
للقضاء على الدسائس التي تدبرها الملكة لإثارة الشعب القشتالي عليه ، فضلاً عن الحصون
بالجند الأراجونيين بحجة حماية قشتالة من غارات المسلمين ، ورتب لها قلة من أشد
المخلصين له ، ثم أمر فجاء باعتقال الملكة في قصر كاستار وأذاع أنها تحاول بث
الثورة وأنما يسوء سلوكها فتضيع هيئة اللوكية .

ولكن الملكة فرت من معتقلها ، وجزع الملك لذلك أليخاندرو إذ كان
المسلمون يقربون يومئذ أراضى قشتالة ويهددون أراجون . وكان الملك في أشد
الحاجة لعون القشتاليين ، وانتقم القشتاليون إلى جانب الملكة وتوسطوا بين
الزوجين المقعد نوع من الصلح أو المهادنة أحقاء لخطر المسلمين . ولكن هذا الصلح
لم يطل أمده ، وأثارت الملكة زوجها مرة أخرى بملاقاتها الغرامية مع الكونت
جوزي وطموحها إلى السلطة ، فرأى أن يقبض يديه على زمام الحكم في قشتالة
دون أن يعيأ بالملكة وحقوقها .

واستمر النزاع على هذا المنوال علماً ، ثم انقلب إلى حرب عتية . وكان
الأشراف والفرسان في قشتالة واليون واشتوريس يستقون سياحة الأراجونيين ،
ومن ثم فقد رأوا تحطيمها بالانتقام إلى الملكة وتأييدها في حقوقها ، وفي اجتماع
عقد في ساهاجون في سنة ١١١٨م أعلن أن قوامس قشتالة الذين يستقون على
ولايتهم الملك ويرفضون طاعة الملكة ولا يقاتلون معها يقصدون حقوقهم
وأراضيهم ، فأرتاع القوامس القشتاليون من حكام الصلح بهذا القرار وبادروا

بتسليم قلاعهم إلى الملكة ناكثين بمهدم ملك أراجون ؛ وسار أحدهم وهو القومس الشيخ بيدرو أسورز إلى ملك أراجون ، وقد ارتدى ثوباً قرمياً ، وامتنى مهنراً أبيض ووضع جبلاً في عنقه ، ليلقى منه جزاء نكثه مختاراً ، معتذراً بأنه لم يستطع أن يتخلف عن قضية الوطن ، فمفاعنه الملك مقدراً تضحيته المزدوجة ، واحتفاظه بشرفه وولائه إزاء الفريقين .

ولكن بقيت ألفونسو بالرغم من خروج القوامس القشتاليين عليه عدة حصون وقلاع في قشتالة تحتلها الجنود الأرجونية ، ويمكن له بذلك من استبقاء العاصمة طليطلة . وبدأ القشتاليون الحرب بمحاصرة هذه القلاع فخرج ملك أراجون إلى إنجادهما ؛ وبينما كان المسلمون يغيرون على الأراضي النصرانية المجاورة ويشخنون فيها عيناً وتخريباً ، كان القشتاليون والأرجونيون يسرون إلى ميدان الحرب للاشتباك في صراع دموي يحدوه بنض مضطرم ، وانضم الكونت هنري أمير البرتغال إلى ألفونسو إذ لم يكن ثمة ما يخشاه من أراجون ؛ وكان بالكس يتعذر عليه أن يتحرر من خضوعه لقشتالة . وفي ٢٦ أكتوبر سنة ١١١٠م التحم الجيشان في معركة دموية في « كامبودى سينا » على مقربة من « سبولفيدا » فوقعت الهزيمة على القشتاليين ، وكان يقودهم الكونت جومز والكونت بيدرو دى لارا صاحباً الملكة . وهلك جومز مع عدة آلاف من مواطنيه ، ولاذ بيدرو بالفرار ، وتابع ملك أراجون وأمير البرتغال ظفرهما واستوليا على مدينة برغش (برجوس) عاصمة قشتالة القديمة ، ثم استوليا على بالانسيا Palencia وليون وكاربون وساهاجون دون مقاومة . وفر لدى مقدم الأرجونيين جميع الأساقفة ورجال الدين الموالين للملكة ؛ فاستشاط ألفونسو لذلك غضباً وقرر معاقبتهم بنهب كنائسهم وأديرتهم . هذا إلى أنه كان في أشد حاجة إلى المال لسد نفقات الحرب ؛ وبث انتصارات ألفونسو في البداية أيعاروع حتى أن كثيراً من أنحاء جليقية القاصية خضعت له طوعاً ؛ ولكن رجال الدين لجأوا إلى نفوذهم وتأثيرهم في الشعب ، فأناروه وصوروا له ملك أراجون وجنده في صورة القتل الظالمين ، الفاسقين ، الناهبين

لأموال الكنائس والناس ، وما إليها من الثموت والأوصاف ، فهب التسب في شمال
غربي اسبانيا كله إلى معركة حياة أو موت يؤيدها رجال الدين بكل قواهم .
وكان أشد خصوم ألفونسو وأوفرهم غزماً وجراً ديجو جلهيرز أسقف شنت
ياق ؛ وكانت جليقية يومئذ إمارة نصب عليها ولي العهد (الأنفانت) ألفونسو ولد
أوراكا من زوجها السابق ريموند . فلما ظهر خطر الأرجونيين اتفقت كلمة
الأحزاب والكبراء وعلى رأسهم الأسقف على أن يطلبوا إلى الملكة أورাকা أن
يتوجوا ألفونسو ملكاً عليهم ، وذلك بالرغم من أنه لم يكن يجاوز السادسة من
عمره ؛ ونفذ المشروع بالفعل وتوج الأمير الطفل ملكاً لجليقية في حفل باهر
(سبتمبر سنة ١١١٠م) ، وما كاد يتم هذا التتويج حتى جاءت أنباء انتصارات
ألفونسو في موقعة « كامبودي سينا » وتلها أنباء فتوحاته الأخرى . واشتد الخطر
حينما ظهرت في بعض أنحاء جليقية بوادر الانتفاض على الملكة أورাকা ، وكانت
يومئذ ممتنعة في قلعة استرقة (استورجا) يحاصرها الأرجونيون .

وعندئذ غدا الأسقف ديجو روح كل مقاومة ضد أراجون نبث للأمل في
أنصار قشتالة ، وحل الأنحاء المنشقة في جليقية على العود إلى الطاعة ، واستطاع أن
يبعد الكونت هنري أمير البرتغال عن محالفة ألفونسو — وكان قد بدا يخشى
على إمارته من ظفريه — وأن يضمه إلى جانب قشتالة . وبمئ الملك الطفل على
رأس جيش إلى استرقة لكي يجتمع حوله المخلصون من أهل ليون . وما كاد
ألفونسو يقف على هذه الأنباء حتى سار في قسم من جيشه إلى قتال الجليقيين
وانتزع الملك الطفل . ونشبت بين الجيشين على مقربة من ليون موقعة دموية
(سنة ١١١١م) وكان الملك الطفل وهو المقصود بالذات في صميم المعركة يتداوله
الفريقان تباعاً حتى استطاع الأسقف أن ينقذه أخيراً بالرغم من انتصار
الأرجونيين . وهنا ساء مركز أورাকা مرة أخرى سباً وقد شغلت جليقية بثورة
دبرها الكونت بيريز خصم الأسقف بالتفاهم مع ملك أراجون ؛ ومضى ألفونسو
في محاصرة استرقة بشدة ، وكادت الحرب تنتهي لولا أن وفق الأسقف إلى تحطيم

الثورة ، وسير في الحال حيث لا يجد استراحة تؤازره قوة برتغالية ، وعملت النرايا القشتالية في الوقت نفسه على قطع المؤن عن الأرجنتين ، فاضطر القوتسو إلى رفع الحصار والارتد صوب أراضيها ، ولكنه قبل العودة اشتبك مع القشتالين بقيادة « بيدرو دي لارا » مرة أخرى . وهنا تختلف الرواية ، فيقول البعض إن القشتالين استطاعوا أن يحدقوا بالجيش الأرجوني وأن يحصره في شيب الجبال ، ولم يتقدم سوى وعد القوتسو بتسليم بعض القلاع والحصون وهو وعد لم يحفظ عليه . ولكن هناك رواية أصح وأوثق هي رواية روهريك التليطلي وهي أن ملك الأراجون هو الذي استطاع أن يحصر الجيش القشتالي في بلانسيا Palencia وأنه بعد أن أوقع به بعض الخسائر ارتد ظاهراً إلى أراجون (أبريل سنة ١١١٣ م) .

واستمرت الحرب الأهلية في الأعوام التالية تقطعها أحياناً غزوات المسلمين ، وانقسمت إسبانيا النصرانية إلى ثلاثة أحزاب كان أقوىها وأشدها بأساً حزب ملك أراجون لأنه قتلاً عن مملكته الأصلية الشتملة على أراجون وناقارا كان يحتل أهم حصون قشتالة وتؤازره قوة كبيرة من القراصنة القرطبيين ، وثانيها حزب قشتالة الذي يتصوى تحت لواء الملكة أوركا ويؤازره رجال الدين في قشتالة وليون وجليقية ، ومن ورانهم الشعب بوجهونه يتقوهم ، وثالثها حزب الأشراف وهو يمارض حكم الملكة وحكم ملك أراجون معاً ويعقد آماله على الملك الطليل القوتسو ويعتد بملك جليقية ويؤازره معظم القراصنة في سائر أنحاء المملكة .

وكان الشعب الإسباني يتوق لإزاء ما جره هذا التفرق على المملكة من ويل ، وما اقترن به من غزوات المسلمين اللواتي انتهت بمحاصرتهم لطليطلة ، إلى عقد الصلح بين الملك والمملكة . وكان القراصنة يقومون على الملكة تولها عن السلطة وإدارة جميع الشؤون إلى خليلها ، وكذا الشعب يشور عليها لولا جهود الكهنة وتقوهم لديه . وفي سنة ١١١٣ م عقد في برغن برلمان شهده الأساقفة والقوامس وكبراء الدولة وتواب المدن ليعمل على تسكين الطليان ، وعارض فيه

الأسقف ديجو أسقف شنت ياقب كل فكرة في الصلح بين الملكين وأعلن بطلان الزواج المفقود بينهما ، وحدثت بينه وبين القريب المتناصر للصلح مشادة كادت تنتهي بالاعتداء عليه لولا أن أنقذه بعض الكبراء وعاونوه على القرار .

وكان ملك برنار مطران طليطلة أكثر اعتدالاً ، فقد اقترح أن ينتظر القرار البايوى الذى سيصدر فى شأن الزواج ، وقد صدر هذا القرار فى الجمع الكئسى الذى عقد فى العام التالى قاصياً بطلان الزواج بسبب القرابة الشديدة ؛ ولكن ملك أراجون أعلن بطلان القرار البايوى ، ثم أعلن الحرب على قشتالة واستولى على ولاية « ريويلا » التى كانت تابعة من قبل لمملكة نافارا ، وعلون أشراف جليقية خصوم الأسقف ديجو على الثورة عليه ، ولكنه انتهى بإخضاعهم والتغلب عليهم .

ثم سكنت الحرب بين أراجون وقشتالة بضعة أعوام شغل فيها القونسو بالاستيلاء على سرقطة وغيرها من القواعد الإسلامية المجاورة ؛ ولكن حالة قشتالة ساءت عندئذ حتى إذا لمعجب كيف أن الغزوات الإسلامية البرية والبحرية لأراضى قشتالة لم تسفر يومئذ عن فتوح ذات شأن . كذلك أغر القراصان الاتكليز على الشواطىء الشمالية واشترك بعض القراصان الصليبيين فى معاونة ثوار جليقية المناوئين للأسقف ديجو ؛ وأخيراً ساء التفاهم بين هذا الحبر الدسلس وبين الملكة ذاتها ، وأخذ الحبر يتردد بين تأييد الملكة وتأييد ولدها التطفل . كذلك أخذت دوننا تريزا أخت أوركا لأهلها - وهى التى تولت حكم البرتغال بعد وفاة زوجها السكوت هنرى بالوصاية على ولدها التطفل القونسو - تتحرف عن أوركا ؛ وكان كلاهما أعنى الأسقف ونيريزا يحاول تحقيق مصالحه الشخصية بالتغلب بين الحزبين . وكان مدار النزاع كله أنحكم امرأة هى أوركا أم يحكم ولدها التطفل ملك جليقية ؛ ولكن أشراف جليقية انتهوا بأزغام الملكة على الادعاء ، وكانت يومئذ معتقلة فى « سويروزو » ووضع البرلمان الذى عقد فى سالاجون (سنة ١١٩٦م) شروط الصلح ، وخلاصتها أن تتولى الأم ولدها الحكم معاً فى جليقية وليون

واشتوريش ، وأن تنفرد الأم بالحكم حال حياتها في قشتالة على أن يخلفها ولدها وفقاً لوصية ألفونسو السادس .

ولكن الحوادث اضطرت في ناحية أخرى . ذلك أن الأسقف ديجو الذى عزل ونفى لصرامته وبطشه ، أعادته الملكة إلى منصبه ، وصحبته إلى مركزه في شنت ياقب . فثار الشعب سخطاً لذلك ، واضطر الأسقف وصحبه والملكة وحاشيتهما إلى اللجوء إلى الكنيسة اتقاء سخطه ، فأضرم الثوار النار فيها دون اكتراث بسمعتها وصفتها القدسة . ولما امرعت الملكة إلى الخارج خوفاً من اللب أهانها الشعب وتناول عليها ، واستطاعت بعاونة بعض الأهل أن تلجأ إلى كنيسة أخرى . أما الأسقف فاستطاع أن يفر متكرراً ، ولكن أتباعه هلكوا حرقاً وقتلاً ولم تحمد النار إلا حينما ذاع فرار الأسقف ، ولم تجرؤ الملكة على معاقبة الثوار خوفاً من استفحال الفتنة . بيد أنه لم يمض بعيد حتى استطاع الأسقف الماكر أن يستميل قلوب الشعب مرة أخرى .

وكان ملك جليقية قد بلغ عندئذ الثانية عشرة من عمره ، وكان قد قام مع قائده المجريين بعدة حملات مظفرة ضد المسلمين ، وبلغ من إخلاص فرسان مملكة ليون وأساقفتها له أن نادوا به ملكاً عليهم ، ولكنه لم يقنع بسيادة الملكيين وأخذ يطمح إلى سيادة قشتالة المملكة الرئيسية . وكان معظم أشراف قشتالة يخلصون للملكة ، ولكنهم كانوا يرون في ولدها ألفونسو ريمونديز حاكمهم المستقبل ويؤيدونه في مشاريعه الحربية . وكانت الحصون الهامة في ولاية طليطلة أو قشتالة الجديدة ، بل كانت العاصمة ذاتها أعني طليطلة ما تزال في أيدي الأرجونيين . وكان حاكمها الكونت القارفانيز (البرهانس) قد استطاع أن يرد عنها كل هجمات المسلمين والقشتاليين بقوة ، ولكنه هلك في سقوية وهي إحدى المدن التي يحتلها الأرجونيون في ثورة أهلية قامت بها ؛ وأبدى خلفه في حكم طليطلة ردرىجونيز مثل غيرته ومقدرته ؛ ولكن الحال في طليطلة كانت تسوء من يوم إلى آخر ، وكان الضغط يشتد عليها من جانبيين بلا انقطاع إذ كان يهددها المسلمون من الجنوب ،

ويهددها القشتاليون من الشمال ؛ وأخيراً فتك القحط المروع بالأرجونيين
فاضطروا إلى فتح أبوابها لألفونسو ريمونديز (سنة ١١١٧م) وتمت بذلك أول
خطوة في سبيل حصوله على عرش قشتالة .

وكانت هيبة أوراكاهوى يوماً بعد يوم . وكان أسلوب حياتها المزرى بمقامها
الملكي ، واسطفاؤها لخليتها الكونت بيدرو دى لارا مما يسخط الأشراف عليها ؛
ولم تلبث مدينتا سمورية وسورية اللتان كانتا خاضعتين من قبل لملك أراجون وكذلك
مدينة ليون أن اعترفت بألفونسو ريمونديز ملكاً عليها . وفي سنة ١١١٩م سار
الملك الفتى على رأس فريق من فرسان قشتالة ، وقبض على الكونت بيدرو دى لارا
وألقى به إلى السجن ، ولكنه فر من معتقله واحتفى بأمر برشلونة وأفادت الملكة
من محنة خليتها إذ عاد الأشراف إلى طاعتها وعادت ليون فانضوت تحت لوائها .
ولما رأى ملك أراجون تحول الشعب القشتالى عنه وأنه لا سبيل إلى إخضاع
قشتالة ، اكتفى بأن تلقب « بقيصر اسبانيا » أسوة بفرديناند وألفونسو السادس ،
ثم تحول إلى محاربة المسلمين على ضفاف الأيبرو ، وأسدى بافتتاح سرقسطة والمنطقة
الجبليّة الفاصلة بين قشتالة وأراجون إلى وطنه يدأ جليّة أسبنت على اسمه مجدداً لم
يكن ليسبغه عليه ظفره على القشتاليين في عديد المواقع .

وكانت جليقية أشد الولايات الاسبانية اضطراباً تقتتل الأحزاب فيها لتأييد
أوراكاهوى ولدها أو للاحتفاظ باستقلالها . وكان الأسقف ديجو الذى رفعه البابا
يومئذ إلى منصب المطران يذكي الاضطراب بيطشه وأطباعه . وكان هذا الجبر ينزل
بنفسه إلى ميدان الحرب ويقاقل كأشجع الجند وأبرعهم ، فلما انتهى من قمع الثورة
في جليقية سار مع الملكة في حملة إلى البرتغال لقتال الدونا تيريزا لأنها عاونت
الثوار واستولت على بعض الأراضي . ولكن سرعان ما تحلى ديجو عن الملكة ،
وسرخ جنوده قبل انتهاء الحرب بصورة تدنو إلى الحياة ، فاضطربت أوراكاهوى
سخطاً وأسرت بالقبض عليه مع إخوته الثلاثة ، وفر صديقه مطران براجا وأسقف
أورنسة وكانا مع الجيش .

فأثارت شعبة اللطران وتصرفات الملكة الثورة ، في شنت ياقب ، وسخط الشعب ورجال الدين على أوركا أينا سخط ، وبدا غضب الشعب بأجل مظاهره حينما قدمت الملكة إلى « كوميوستل » لتشهد احتفال القديس ياقب . ولكن أوركا لم تتأثر بشيء . ولم تقبل الإفراج عن اللطران . ومن القريب أن يفرج عنه القمى أراد أن يطقن بالطران قبل ذلك بأعوام قلائل اعترم عندئذ أن يفرج عنه دون أن يحفل بالملكة ، فاستدعى القونتسو ريمونديز وماكاد الملك القمى يظهر على رأس جتده ، حتى اضطرت المدينة بالثورة وهدد الثوار أوركا بالويل إذا لم يطلق سراح اللطران فاضطرت عندئذ إلى الإذعان وأفرج عنه (سنة ١٩٢١م) .

والكثما حدثت على اللطران أينا فقد ورأت أن تتزع عنه بعض أملاكه الكنسية بعد أن عجزت عن اعتقاله ، فأثار ذلك نصلا جديدا ، واستطاع اللطران أن يجذب إلى جانبه معظم أشراف جليقية ، وأميرة البرتغال التي ما فتئت تناصر الاضطراب والحرب ، بل استطاع أن يتم تأييد الملك القمى القونتسو ريمونديز نفسه ، ثم طلب إلى صديقه البابا كالكستوس الثاني أن يصدر قرارا بتق الملكة وأنصارها من حظيرة الكنيسة ، وهما اضطرت الخصومة بين الاسبانيين مرة أخرى ووقعت عدة مصادمات سالت فيها الدماء ، وأصدر البابا قرارا بتق المطالبين قرأت أوركا أن لا سبيل إلى خوض هذا النضال ، فرددت إلى الأسقف أملاكه للثروعة ، ولكن التنازع بين الأحزاب والأشراف بقى على حاله ، وعملت أميرة البرتغال وملك أراجون على إذ كانه ، وساء ما بين الملكة وبين ولدها ، ودب الخلاف إلى الشؤون الكنسية ذاتها ، وأخذ مطران طليطلة ومطران كوميوستل وسفير البابا ثم البابا نفسه في التنازع على إدارتها وتوجيهها ، وهكذا كان الاضطراب والفوضى يسودان الدولة والكنيسة معا .

وحاول البابا كالكستوس الثاني أن يضع حدا لهذه الحالة السيئة فأوفد إلى شبه الجزيرة سفيراً بعد سفير ، وعقدت بدعوته عدة اجتماعات كنسية وتبائية للعمل على رد السكينة والنظام ، والتوفيق بين الأحزاب المتنازعة ، وانتهى الأمر

في الاجتماع الذي عقد في بلد الوليد (سنة ١١٢٤) بمقد الصلح بين الملكة وولدها على أن يحكما سويًا كل الأراضي التي ورثتها أوركا عن أبيها . ولكن التنازع بين الأشراف استمر على حاله ولم تثر في حسمه الاجتماعات اللتوائية إذ كان حقد الملكة الشخصي يحول دون كل توفيق ويدكي عوامل الخصومة والفتنة .

وأخيراً جاء موت الملكة بشيراً بعود السكينة والسلام بعد طول الخصومة والتضال ، إذ توفيت أوركا كالخاتمة في سالدانيا على مقربة من كاريون في ٧ مارس سنة ١١٢٦ . وقد أذاع خصومها عن موتها عدة روايات مشبهة فذكر البعض أنها توفيت على أثر وضع مبكر (إجهاض) وهو ما يصعب تصوره ، ويدحضه تقدم الملكة في السن ، ووصف البعض الآخر موتها كعقاب من الله على ما كانت تتمتع من اغتصاب ذخائر كنيسة القديس إيزيدور في ليون . ومن البت أن يحاول المؤرخون الأسبان المحدثون التذليل على شقاء صفة أوركا . والمعظم يرون أن الشخصيات الملوكية لا يمكن أن تحيا حياة مشبهة ، أو المعظم إذا صح التفسير يرون أنه يجب على المؤرخ لكي لا ينال من هبة الملوكية ألا يلقي ضوءاً على ما يشين شخصية ملوكية .

ويبدو من المحقق وفقاً لجميع الروايات ، أن الملكة أوركا كانت امرأة مقامة مسترجلة وكان السلطان أعظم شهواتها . وقد تحت في سبيله الزوج والولد ، ولم تحجم مدى عشرين عاماً عن أن تدفع أسبانيا النصرانية إلى غمر الحرب والخراب . لكي تسبق زمام الحكم لنفسها ، وهو ما كان من حق زوجها ثم ولدها . ولم تكن أسبانيا قد عرفت حكم النساء من قبل ، فكان حكم أوركا أحدوة لم يستحسنها سوى الأشراف الثائرين وأكابر رجال الدين ظمماً في أن يسمو شأنهم في ظلها . وإذا لم تكن أوركا قد توفيت بمثل السبب المشين الذي يرويه المؤرخون القدماء ، فإن حياتها حافلة بالحوادث الغرامية ، وقد رزقت من خليلها الكونت جومر سراً بولد سمي فرديناند فورتداد ، وأنثارت علاقتها الغرامية مع الكونت بيدرو دي لارا (وهي علاقتي أثمرت عدة بنين وبنات) التي كان يطمح إلى اعتلاء

العرش بطريق الزواج من الملكة ، سخط أشراف قشتالة ، فالتفوا حول ولدها وانتهى بنى الكونت المفاسم . ولم تكن أورا كما تتمتع فيما خلا الجرأة وإقدام الرجال بشيء من الخلال التي يتطلبها الحكم ، فكان حكمها جائراً نسبوا أدى إلى إثارة الاضطراب والحرب الأهلية في أنحاء قشتالة ؛ ولم نبأ الجروح التي أصابتها إلا بعد زمن طويل .

وتوفي برنار مطران طليطلة ورئيس الكنيسة الاسبانية قبل وفاة الملكة بعام (ابريل سنة ١٢٢٥) بعد أن لبث زهاء أربعين عاماً يدير شؤونها ببراءة ، وهو الذي عاون باستقدام الآباء البندكتيين أيعا عون في تمدن اسبانيا وطبعها بالطابع الأوربي ؛ ولكنه يلام بحق على أنه لم يمن بالروح القوي ، وأنه حارب التراث القوطي ، وكان أداة في يد الكرسي الرسولي ، ولم يعمل لتقدم الكنيسة الاسبانية ذاتها . وخلفه في منصبه ريموند أسقف أوسمة وكان مثله فرنسا ومن جماعة البندكتيين^(١)

٣ — النضال بين ألفونسو ملك أراجون وألفونسو ريمونديز

لما توفيت أورا كما تولى ولدها ألفونسو ريمونديز حكم جميع الأراضي التي تركها جده ، وكان قد توج من قبل ملكاً على ليون بمعاونة الأسقف ديجو . ولكنه تكبد في سبيل إخضاع الأشراف المناوئين كثيراً من العناء والجهد . ففي قشتالة كانت تناوئه أسرة لارا وشيعتها أشد مناوأة وعلى رأسها الأخوان بيدرو ووردريك جونزالز ، وكان أولهما كما أسلفنا خليل الملكة ؛ وكان يكاد يقبض على زمام الحكم ويثير سخط الأشراف . وقد نفى إلى خارج قشتالة بضعة أعوام ، ولكنه عاد إليها عقب وفاة الملكة أورا كما وأثار كثيراً من الفتن ، وما زال به ألفونسو ريمونديز حتى أرغمه على الالتجاء إلى جبال « سانتيلانا » .

ثم تعاقبت الثورات في جليقية وساد حكم القوة المتهجبة بجميع صوره ، ولم تتج منه الكنائس ورجال الدين وكان الكونت أرياس بيريز أشد الزعماء

(١) تصرفنا في بعض مواطن هذا القسم بشيء من التلخيص الذي يقتضيه المقام .

الخوارج بأساً وإسمائاً في الفتنة ، ولكنه هزم أخيراً وأخضع . وظهر الكونت رودريك في قشتالة برائع قسوته وعنفه ، وكان يربط الأسرى من خصومه مع الثيران في المحراث ، ويرغمهم على أكل الحشائش مع الماشية والشرب مثلها من الترع ، ولم يترك لونا من ألوان القسوة إلا أوقفه بأولئك المنكودين ، وما زال دائماً على عنفه الوحشي يحد في البحث عن فرائس قسوته . وأما البرتغال التي كانت تحكمها الدونا تيريزا باسم ولدها القاصر ألفونسو هنريكز فقد ادعى ألفونسو أنه صاحب الجزية عليها . وجاءت تيريزا للقاء ألفونسو ريمونديز في مكان عند ملتقى نهري أوريكو ودويرة وعقدت معه هدنة حتى تسوى المسائل الملقة بينهما ، بيد أنها لم تعترف بالطاعة ولا بأداء الجزية للملك قشتالة .

وكانت ظروف أراجون أشد إثارة لأسباب الحرب . ذلك أن ملكها ألفونسو سانشيز كان يحتل حتى وفاة زوجه النادرة عدة حصون في قشتالة تكفل له إخلاص الحاميات والسكان ؛ فلما توفيت أوركا انحلت الملائق التي كانت تربطهم بأراجون ، وآثرت المدن وآثر الجند بالرغم من قادتها أن تعلن ولاءها للملك قشتالة ، على أن تبقى على ولائها القديم . ولم يبق إلى جانب ملك أراجون نبوى قلعة كاسترو شريش . وإذا كان ملك أراجون لم يقم بأية محاولة للاستيلاء على القلاع القشتالية ، فإن في ذلك ما يدل على أنه كان يومئذ ما يزال يقاتل المسلمين في الأندلس ، أو أنه كان يقاتلهم حين عودته في مرسية وبلنسية . ولما عاد إلى مملكته ألغى الاضطراب يسودها ؛ ولم يتح له أن يخصص لشؤون الحدود كثيراً من عنايته . وكان المسلمون قد قاموا من لاردة وطرطوشة اللتين بقيتا في أيديهما بفزوات مخربة على مقربة من مرسية ، ولولا مبادرة الكونت ريموند برنجار الثالث بالموافاة لتفاقم الخطب ؛ ومن ثم فقد رأى ألفونسو اتقاء لأمثال هذه الفزوات أن يقوم قبل كل شيء بافتتاح الحصون الإسلامية الواقعة في أراضيه ، أو المجاورة لها ، وهو ما يتطلبه سلام المملكة وأمنها . ولكنه ألغى نفسه غير بعيد مضطراً إلى أن يخوض غمار الحرب مع قشتالة ، وأن يخصص كل قواته

لها ، ولله محل على ذلك بدعوة من الأشراف الثائرين في قشتالة وجليقية ، وكذلك من الدولتة تيريزا أميرة البرتغال ، أو بحاشيده من نحو قوى ملك قشتالة بسرعة ، فاخترق حدود قشتالة بجيش قوى ، مجدداً دعواه بشأنها (سنة ١١٢٧ م) .

واستمرت الحرب ثلاثة أعوام سجالاً في معارك عليّة بين الفريقين ، وكلما أدب الشبّا كهذا في معركة حاسمة تدخل الأحيار في الجيشين لدى اللذين يحضونهما على السلام وحقق دماء التصاري ، وتحويل شهوة الحرب إلى وجهة أخرى هي عبارة المسلمين . وأخيراً وفق الأحيار في جهودهم ووساطتهم ، وعقدت الهدنة بين قشتالة وأراجون . وزل ألفونسو الأراجوني عن لقب « قيصر اسبانيا » الذي تلقى به من قبل ، وترك جميع الحصون التي يملكها في قشتالة إلى ولد زوجته ألفونسو ريغوتديز ، وزل ألفونسو ريغوتديز إليه نظير ذلك عن ولاية « ريولا » التي كان ألفونسو السادس قد انتزعها من نافارا .

وفي تلك الحرب استعادت قشتالة لأول مرة مجدها الحربي الذي خبا ، وكان فرسان قشتالة أيام ألفونسو السادس أعظم فرسان اسبانيا كلها ، لا يضاروهم أحد في الجرأة والشجاعة والصلابة والبراعة في القتال وقوة البنية ، وكانوا على رأس الجيش في كل موقعة أول من يتقض على صفوف الأعداء ويتزعون التعر منهم في جميع المواقع تقريباً ، ولكن الأمور تغيرت في ظل حكم أودراكا الرخو تغيراً كبيراً ، فخلت الرفاهة والطمول والتشح والترف الناعم ، مكان الخلال الحربية المنظمة التي كان يتمتع بها القشتاليون من قبل . أما الفرسان الأراجونيون فقد كانت يدكي نفوسهم مثل ملكهم البطل ألفونسو « المحارب » ، وسرعان ما تفوقوا على الفرسان القشتاليين تفوقاً عظيماً ، حتى كانت عقيدتهم أن قوة معينة منهم تستطيع أن تصمد لضغفها من القشتاليين . وكثيراً ما حدث أن سرية صغيرة منهم كانت تُلجئ قوة كبيرة من القشتاليين إلى الفرار وهي تصيح بهم : « يا نساء » . وهكذا كان الجند الأراجونيون يشعرون كثيراً من الروح ،

وقد ظهرت منهم بالأخص فرقة « الجياورين »^(١) ، وهى طائفة من القرسان لا عمل لهم سوى الحرب ، ولا سيما محاربة المسلمين . وكانوا يرتدون أسلحة بالية ، يبدوا منها بجسومهم الضامرة التى تنبى عن تقهقهم ، ولا تشرق جباههم العابسة إلا حيناً يلقون الموت فى ساحة الحرب .

٤ — حروب الفونسو المخارب الأخيرة .

وموته ووصيته

لما انتهى الفونسو سانشيز من زواجه الطويل مع قشتالة ، دعى إلى قرناً قياً وراءه البرية ليخوض حرباً ضد بيوتة . وأسباب هذه الحرب غير واضحة ، ولكن الظاهر أن اميرى (كوتى) يحور ويارن ، وهما من أتباع ملك أراجون وأخلص حلفائه فى جميع الحروب الآسياتية ، قد هندا من جائب جيوم التاسع أمير جويلته وبواتيه ، فلم يتردد الفونسو فى اللبادة بإيجاد حليفه الخالصين ، تطوق بيوتة واستولى عليها بعد حصار طويل (ستة ١١٣١ م) . ومن ذلك الحين كان ملك أراجون ونافارا يلقب فى الوثائق والمراسيم العامة أيضاً بملك بيوتة ، ولكن سلطان أراجون عليها لم يظل أمده ، ففقدته خلال الاضطرابات والحوادث التالية .

وقى تلك الأثناء تولى أمير سرقسطة السابق أبو مروان عبد الملك بن هود الملقب بماد الدولة (فى شعبان سنة ٥٢٤ هـ — يونية سنة ١١٣٠ م) ، وكان يملك عدة حصون بالقرب من عاصمة أراجون (أى سرقسطة) . ولا يتضح من الروايات العربية ما إذا كان عماد الدولة كالت يتصوى تحت لواء ملك قشتالة أو ملك أراجون لأنها نظراً لاتفاق السنينهما (الفونسو) تخطأ بينهما بسهولة ، وهى كثيراً ما تشير إلى الفونسو سانشيز ملك أراجون « بأدفتش بن رمند » وهو اسم ملك

(١) الجياورون Almugavaren من نفس الكلمة العربية مأخوذة بالأفريقية ، والمقصود بها النصارى الذين يعيشون على حدود الأراضى الإسلامية ويحاولونتها .

قشتالة^(١) والمرجح أن ولد عبد الملك ، أبو جعفر أحمد سيف الدولة الملقب بالمستنصر والمستعين بالله هو الذى بدأ الانفصال عن أراجون وانضوى تحت لواء قشتالة . وكان المرابطون قد افتتحوا معظم حصونه واستولوا على طرطوشة ولاردة وإفراغة ومكناسة ؛ أما روضة التى كانت مقر إقامته وغيرها من الأماكن التى كانت بيده فقد نزل عنها إلى ملك قشتالة (سنة ١١٣٢ م) وعوضه عنها بمض أملاك بجوار طليطلة^(٢) .

وكان ألفونسو الأراجونى يرى أن أهم ما يجب تحقيقه لملكته هو أن يصل بينها وبين البحر الأبيض ، وأن يكفل لها سلامة الملاحة فى نهر إبيرو ، ومن ثم فقد عول على أن يفتح ثغر طرطوشة الواقع على مصب النهر من يد المسلمين وأن يهاجمه من البر والبحر ؛ واشترك فى هذه الحملة كثير من الأشراف والفرسان الفرنسيين . بيد أنه كان يتعين عليهم قبل البدء بمحاصرة طرطوشة الاستيلاء على عدة مدن إسلامية تقع فى الداخل ، وكان المرابطون يملكون مدينة مكناسة الواقعة عند ملتقى نهري سيجرو وإبيرو ، فهوجمت وأخذت عنوة . ولكن الاستيلاء على لاردة وإفراغة الواقعتين على نهر أليجا كان أشد صعوبة خصوصاً وإفراغة تقع على آكام عالية منيعة جداً . ولما حوصرت إفراغة قام سكانها الشجعان بمقاومة شديدة وبأدب واليهام يحيى بن غانية من لاردة على رأس جيش ضخم من أهل بلنسية ومرسية لإنجاده^(٣) ، وكذلك بادرت إلى غوثها قوة مختارة من

(١) تشير الرواية الإسلامية إلى ألفونسو الأراجونى بابن رذمير الفرنجى أو ابن رذمير فقط وهى واضحة لا لبس فيها . أما ألفونسو ريمونديز فتسميه « بالسليطين » ولا نعرف أصل هذه التسمية أو سببها (راجع بالأخص ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢) .
(٢) قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٢٩ هـ (سنة ١١٣٥ م) : « فى هذه السنة اصطلىح المستنصر بالله بن هرد والسليطين الفرنجى صاحب طليطلة مدة عشر سنين ... على أن يسلم المستنصر إلى السليطين حصن روضة وهو من أمنع الحصون وأحصنها » (ج ١١ ص ١٣) ويوجد فرق يسير فى التاريخ بين الروایتين .

(٣) فى هذه الرواية شيء من التحريف والواقع أن يحيى بن غانية كان أميراً على بلنسية ومرسية من قبل أمير المسلمين على بن يوسف وكان والى لاردة عبد الله بن عباس وقد سار كلاهما فى قواته إلى نجدة إفراغة (ابن الأثير ج ١١ ص ١٣) .

المرابطين من جنوب اسبانيا قوامها عشرة آلاف مقاتل. ولكن ألفونسو لم يتراجع في خطته ، بل استمر في الحصار وأقسم علناً كما أقسم أبوه سانشو أمام وشقة قبل ذلك بأربعين عاما أن يفتتح إفراغة أو يموت دونها وأقسم مثله عشرون من أتباعه . وهكذا كانت تقاليد المعصر تتطلب أن يخوض أقرب الناس إلى الملك معه غمار البطولة والفروسية ومخاطر الموت ؛ ثم أمر الملك لسكى يذكى حماسة الجيش أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر ، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقوامس ؛ وعلى أثر ذلك اشتبك النصارى مع المسلمين القادمين لنجدة المدينة في معركتين وهزم المسلمون في المرتين ولجأوا إلى الفرار ؛ فغارت عزائم سكان المدينة وعولوا على التسليم بشروط يسيرة ولكن ألفونسو رفض كل عرض واعتزم أن يفتتح المدينة بالسيف ؛ فانقلب المحصورون إلى مقاومة اليأس وحاول المرابطون كرة أخرى إنقاذ المدينة بجيش ضخم ولجأ المسلمون إلى الخديعة حين أعوزتهم القوة ، فدبروا كميناً جذبوا إليه الأرجونيين على يد قافلة من المؤن ، وهناك انقضت عليهم نخبة من المجاهدين الشجعان ، فأخذت فيهم وهلك منهم جمهرة من الفرسان الفرنسيين والقوامس وأسقف روطه ووشقة وقسم كبير من الجيش .

أما ما حدث لألفونسو فلم يعرف بالتحقيق . وتختلف الرواية اختلافاً بيناً على كيفية وفاته التي حدثت بعد موقعة إفراغة بقليل . ويزعم مؤرخ قطاوني معاصر في وصفه للمعركة أن الملك حين تمت الهزيمة الساحقة على جيشه عمد إلى الفرار بصحبة فارسين فقط ولجأ إلى دير القديس « خوان دى لابنيا » في سرقسطة ، وهناك توفي غماً وبأساً لثمانية أيام فقط من الموقعة وذلك في ٢٥ يولية سنة ١١٣٤ م^(١). وتعارض هذه الرواية رواية مؤرخ آخر خلاصتها أن ألفونسو لما رأى هزيمة جيشه حاول أن يلقى بنفسه إلى المعمة ليموت ، فأمره أسقف أورجل باسم الله أن ينقذ نفسه ، فغادر ميدان الحرب مع ستين من فرسانه ، ولكن عشرة

(١) هذا هو ما تقول الرواية الإسلامية في الواقع ، فابن الأثير يقول لنا في كلامه عن موقعة إفراغة (ج ١١ ص ١٣) أن ابن رذمير لحق عقب هزيمته بمدينة سرقسطة ، ومات مفعجواً بعد عشرين يوماً من الهزيمة ؛ وهذا الاتفاق مما يحمل على ترجيح هذه الرواية .

منهم فقط نجوا من الموت . وحشد ألفونسو جنداً آخر ، وعاد إلى ميدان الحرب سريعاً ليتدارك ما حل به من هزيمة ، ولكنه اجتنب إلى كين ديره الأعداء ، وذلك في ٧ سبتمبر سنة ١١٣٤ ، وهناك أحاط به المسلمون فقتل في ميدان الحرب بعد معركة عتيفة وقتل معه ثلثمائة من فرسانه .

يبد أن معظم الروايات تتفق على أن ألفونسو قد قتل في موقعة إفراغة في سنة ٥٢٩ هـ — ١٧ يولية سنة ١١٣٤ م ، ولكن جهة لم توجد بين اللوق بالرغم من الجهود التي بذلت للبحث عنها . وقد كان هذا الظرف الريب الذي حاق بعصير الملك منشأ تلك الروايات والأساطير المختلفة التي أوردها «ودريك الطليطلي» ورواية القديس خوان دي لايتيا .

وقد استحق ألفونسو الأراجونى عما خاضه من حروب كثيرة ضد المسلمين والتصارى مدى ثلاثين عاماً حكمها لقب «المحارب» Battallator ، وانتصر في جميع المعارك ما عدا معركة إفراغة الأخيرة ، وهو بذلك يعتبر من أعظم ملوك اسبانيا في العصور الوسطى^(١) ، وقد حقق الأراجونى بافتتاح سرقسطة ما حققه ألفونسو السادس لفشالة بافتتاح طليطلة ، وكان في وسعه بلاريب أن يحقق أعظم مما حققه سلفه بل ريثما كان يوسعه أن يخرج المسلمين من اسبانيا لو لم يقض خلافه المشؤم مع زوجته أورراكا عليه بتوزيع قواه بل يشل حركته في بعض الأحيان ، وقد برهن بحملته التي قادها إلى الأندلس حتى غرناطة ، ثم إلى البحر على مقربة من مالقة لتحرير التصارى للماهدين ، كيف تستطيع القوى القليلة المختارة أن تلقى المدو في صميم أرضه ، وأن تنزل به أضراراً جمة ، وإذا كان أبوه سانتشو قد أسسده الخط بأن يضاعف حجم مملكته أراجون الصغيرة بآمالها مع تاقارا ،

(١) قال ابن الأثير في وصفه لألفونسو الأراجونى : « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثريهم تجرداً للحرب المسلمين وأعظمهم صبراً » ، وكان ينال على طارقه بغير وطاء . وقيل له هل تهرت من بنات أكابر المسلمين اللاتي سبيت منهم ؟ فقال الرجل المحارب يفتي أن يعاشر الرجال لا النساء . والظاهر أن كلمة « المحارب » هنا تريد لنفس اللقب التي لقب به ألفونسو (ج ١٢ ص ٢٣) .

فقد استطاع هو أن يقوم حدودها ، وأن يضم إليها الماقل والحدود الجبلية التي كانت تنقصها ؛ كذلك استطاع ألفونسو بخلاله الحرية ، وما أدخله من التنظيم العسكرية الجديدة ، أن يحقق للأمة الأراجونية سيادة إسبانيا ، فلم تكن الأمم الإسبانية الأخرى من القشتاليين والليوثيين والأشتوريين والبرتغاليين والقطلونيين لتجروا على مناهضتها في ميدان القتال .

أما أخلاق ألفونسو فتختلف صورتها وفقاً لما تدلّ به أقوال المؤرخين الأراجونيين أو القشتاليين ؛ فبينما تصفه الروايات الأراجونية بالتقوى والإيمان ، والقروسية التلي ، والجلود نحو الكتائس والأخبار ، (وهذا ما تؤيده الوثائق) ، إذا بالروايات القشتالية تصفه بأنه ملحد ناكث للمهد مستبد ناهب ، لا يري حرمة الكتائس والأديار ، ولا ينف عن محتوياتها المقدسة ، ولا يقر الأخبار أو النساء في حروبه مع التصاري إرواء لجشمة ، وإرضاء لجنده الذين لا وازع لهم ، بل لقد ذهب التحامل إلى حد أن اعتبرت هزيمته ومقتله في موقعة إفرافة جزاء عدلا من الله لما ارتكبه من انتهاك للحرمات في ليون وفي دير ساهاجون .

وإذ كان ألفونسو دون عقب ، وكان أخوه راميرو قد انتظم في سلك الكهنوت ، فقد كتب وصيته وفقاً لتقاليد المصرا ، وذلك منذ حصاره لليون سنة ١١٣١ م ، ثم أقرها قبيل وفاته ؛ وفيها يوصى بتقسيم مملكته إلى ثلاثة أقسام ، الأول يخص لسلام روح والده ووالدته ، والتكفير عن زلاته ، ولكي يظفر بمكان في جنة الله ، وللقبر المقدس وسدنته وخدمه . ويخصص الثاني للفقراء وفرسان الاسبتارية بيت المقدس . والثالث لفرسان المبد (الداوية) باعتبارهم حماة النصارية في مبد المسيح^(١) .

(١) كان فرسان المبد وفرسان الاسبتارية من أشهر جماعات الفرسان الدينية التي قامت في المصور الوسطى في بداية الحروب الصليبية . والجماعة الأولى هي التي تعرف في الرواية الإسلامية بجماعة « الداوية » وقد أُنشئت سنة ١١١٩ م في بيت المقدس عقب سقوطه في يد الفرنج الصليبيين لحماية الحاج إلى قبر المسيح وأفرد لهم ملك بيت المقدس جناحاً في قصره ثم سلم إليهم المبد المجاور له ، ومنه اشتقوا اسمهم « فرسان المبد » Templars وتحت هذه

ولكن الأرجونيين والنافاريين أبوا احترام وصية ترمى إلى التصرف في مملكتهم ، ولم يؤخذ رأيهم فيها ، ورأوا من حقهم ، ما داموا قد ساهموا في افتتاح المملكة أن يشتركوا في اختيار ملكها الجديد . وقد أجمعوا على أن يرفضوا سيادة قشتالة ؛ ذلك أن سانشو ريمونديز كان يوسعه أن يدعى ملك أراجون باعتباره سليل سانشو الكبير من ناحية أمه . ولكن الروح القومية كانت قد بدأت تنمو في الممالك الإسبانية المختلفة . وكان الأرجونيون والنافاريون يخشون أن يستبد القشتاليون بهم ، وأن يقضوا على حرياتهم وشرائعهم الخاصة كما عمد ملكهم ألفونسو المحارب أيضاً إلى الانتقاص من امتيازات القشتاليين ، ومن ثم فقد بدأوا باختيار طائفة من الولاة للدفاع عن البلاد والإشراف على إقامة العدل ؛ ثم اجتمع في « جاقا » ممثلو مملكة أراجون بطبقاتها الثلاث ، أعنى رجال الدين ، والأشراف ، ونواب الشعب ، لكي يقرروا اختيار الملك الجديد ؛ وكان الرأي متجهاً في البداية إلى اختيار الدون بيدرو أناريس ، وهو سليل غير شرعي للملك راميرو الأول ، ولكن حال دون ذلك وافر غطرسته ؛ وعندئذ اجتمعت الآراء حول اختيار راميرو أخى الملك المتوفى ، وكان قد انتظم في سلك الكهنوت قبل ذلك بأكثر من أربعين عاماً ، وعاش راهباً ثم أسقفاً . ولكن النافاريين لم يوافقوا على هذا الاختيار ، فانفصلوا عن الأرجونيين ونادوا في بنبولنة بجارسيا راميريز حفيد الملك سانشو الذى قتل في بنيالين سنة ١٠٧٦ م ملكاً عليهم . وهكذا انشطرت إسبانيا النصرانية من جديد إلى ممالك عدة ، ولم يستطع ملك قشتالة ألفونسو ريمونديز أن يحقق نوعاً من الوحدة بين ممالكه المتنافسة ، إلا بشق النفس وبالاكتفاء على تفوقه .

== الجماعة بسرعة ، واشتد ساعدها بمن انضم إليها من الفرسان النصارى من جميع الأمم ، ولملت أدواراً هامة في حوادث الحروب الصليبية واستمرت قائمة عصوراً . والاستيطارية وم بالأفرنجية Hospitallers أيضاً جماعة دينية من الفرسان ، أنشئت عقب قيام الجماعة الأولى ، وخاصت أيضاً حوادث الحرب الصليبية ، ولكنها كانت أضعف شأناً من جماعة « الداوية » .

الكتاب الثالث

اضمحلال سيادة المرابطين
في عصر القيصر ألفونسو ريمونديز
وقيام مملكة البرتغال

الفصل الأول

نهوض مملكة قشتالة

في عصر ألفونسو ريمونديز

(سنة ١١٢٦ - ١١٤٤م) - (٥٢٠ - ٥٣٨هـ)

١ - حروب ألفونسو السابع ضد المسلمين

كان لسانشو الأول ملك اللشكنس (نافارا) الكبير الذي جمع سلطان اسبانيا النصرانية (عدا قطلونية) في أسرته عقب من الملوك الأبطال ، وكان هؤلاء حلقة من أكابر الحكم - ولده فرديناند الأول ، حفيده ألفونسو السادس ، قوله حفيده ألفونسو الحاربي - أتدوا جميعاً أنهم خليفون بآبائهم العظيم ، وضربوا مثلاً تادراً من القوة في هذه الأسرة لم يند فيها متد بعيد . وكانت هذه الذرية الملوكية التي حاربت فيما بينها يقدر ما حاربت أعداء ديها عتدت على وشك الانقراض ، ففي أراجون لم يك ثمت سوى راهب ضعيف رقع إلى العرش دون أن يعرف ميدان الحرب - وفي نافارا ولي العرش أمير فاريزم أنه حفيد لسانشو الرابع ، أو حفيد لحفيد لسانشو الكبير - أما في قشتالة فقد انقرض عقب ألفونسو السادس من الذكور ، ولكن ابنته أوراكارزقت من زوجها الأول الكونت ريمونديز البريجوني ولداً هو ألفونسو الذي قدر له أن يستعيد بأعماله عظمة أجداده لأمه ، وأن يكافح أعما كفاح ليقضي على تفرق اسبانيا النصرانية ويميد إليها وحدتها .

وقد قضى طيلة حكمه في محاربة المسلمين والنصارى بلا انقطاع ، وشب متد طفولته تحت قمعة السلاح ، فلم يعرف غير الحروب والمواقع ؛ وكان هادقا تقوذا الأحزاب ، ولكنه لم يقطن مدى أعوام طويلة إلى الهجرات والمكائد الظاهرة والخبية التي كان يديرها من حوله ، أشرف لأثرون وأمام آئمة وزوج أم يضمراه اليقضاء . وكان قريبة لشهوات الحكم والطموح ، تتجاذبه يعنف ؛ فعين في السادسة من عمره ملكا على جليقية ، وحكم في الثانية عشرة جزءا من ليون ، ولم يمض عام حتى دخل طليطلة وغدا ملكا على قشتالة . وكانت أمه عندئذ تتنازع الحكم ثم نازعه من بعدها زوج أمه ولكنه انتصر في ذلك النزال ؛ ثم انتزع الموت أمه من ميدان الحرب ، وعندئذ توج سيد قشتالة في ليون عاصمة اسبانيا النصرانية القديمة ملكا على يد مطران شنت ياقب (سنة ١١٢٦) . وكان منذ استولى على طليطلة في حرب دأعة مع المسلمين ، فلم يكن يحصى عام حتى يتغزو المسلمون أراضي قشتالة أو يتغزو النصارى أراضي الأندلس ؛ ومنداضمحت قوة المرابطين من جراء ثورة الموحدين في إفريقية ، وتوفي أميرهم أبو الطاهر تميم بن تاشفين الذي كان يسير شؤون الأندلس المضطربة بذكاء ومقدرة ، (وكانت وفاته سنة ٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م) ^(١) . أقل نجم الدولة الاسبانية في اسبانيا . وكان اليغض الذي يكنه أهل الأندلس وبنو هود المرابطين والذي كان يذكيه طموح الولاة القساة وعسفهم يوما بعد يوم ، عونا للملك ألفونسو ريمونديز على أن يحارب المسلمين بنجاح بالرغم مما كان يسود مملكته من الاضطراب ، وما كان بينه وبين جاره ملك أراجون من الخصومات ؛ كذلك كان يعاونه روح القشتالين الحربي في ذلك أياما عون ، وكان قد عاد منذ وفاة أوراكا يتبوا المقام الأول بين شعوب الجزيرة . وكان ملك قشتالة يعرف كيف يندك عوامل التفرق بين أعدائه في كثير من الدهاء ؛ فهو قد بعث يسيف الدولة (وتسميه الرواية النصرانية (Zafadula) آخر بني هود حيا شدد المرابطون عليه الضغط إلى ولاية طليطلة ، وأطمعه هناك

أراضي واسعة ، ولكنه اضطر أن ينزل إلى ملك قشتالة عن قلاع النعمة ومنها حصن روطة ، وبها حصلت قشتالة على حدود ثابتة بينها وبين أراجون . وفي نفس الوقت (سنة ١١٣١ م) أرسل علي بن يوسف سلطان المرابطين إلى الأندلس بقيادة ولده تاشفين جيشاً ضخماً تقدره بعض الروايات المرية المفرقة بخمسة ألف مقاتل^(١) ، فقصده إلى طليطلة عاصمة قشتالة معزماً حصارها ، ولكن هذه الحملة كانت عقياً كسابقاتها ، ولم تسفر إلا عن التخريب المروع وسبي العدد الجهم . وسارت قوات القشتاليين من سقوية وآبله وعدة مدن أخرى خلال جبل الشارات (سييرا مورينا) صوب قرطبة لتسترد من المسلمين الغنائم والأسلاب ، فألفت نفسها فجأة بعد أن تقدمت دون تحوط وقد احتاط بها جيش تاشفين الضخم ؛ ولكن فداحة الخطر أذكت شجاعة القشتاليين وجهودهم ، ونشبت بين الفريقين معركة ليلية استطاع فيها القشتاليون أن يحيطوا بنطاق العدو ، وأن يوقعوا به الهزيمة وبلغثوه إلى الفرار ، وأن يستردوا منه عند المطاردة معظم الأسلاب والغنائم . على أن هذه الهزيمة لم تخف تاشفين ، فماد في العام التالي إلى أراضي قشتالة يشحن فيها . بيد أنه كان عندئذ أشد تحوطاً ، إذ ارتد إلى الأندلس قبل أن يلحق به ملك قشتالة يقوّاته ، وعاد سالماً بفنائمه .

واعزم النصراري الانتقام لهذه الغزوة المخربة ، فسار رودريك دي لارا حاكماً طليطلة على رأس جيش ضخم إلى بطليوس ومنها إلى إشبيلية . واحتذى النصراري حذو أعدائهم قسوة وعيثاً ، ثم ارتدوا مثقلين بالغنائم والأسلاب ؛ فحاول عمر والى إشبيلية أن يقطع عليهم خط العودة ؛ ولكن النصراري وضعوا خططاً حسنة للدفاع ، وهزم المسلمون بعد عدة معارك حامية ، وطوردوا حتى ظاهر إشبيلية ، وقتل قائدهم عمر في الموقعة ، وعاد رودريك ظافراً إلى طليطلة ، وقد شجّجته

(١) في هذه الرواية تحريف ظاهر ، فالؤلف ينقل هذه الرواية عن كوندى (راجع الهامش في ص ٤٠٨ من الكتاب) والرواية المرية التي نقل عنها كوندى تقول إن تاشفين عبر إلى الأندلس في خمسة آلاف فارس (لا خمسة ألف) وهناك حشد قوات الأندلس ، والظاهر أن الأمر يتعلق هنا بخطأ في النقل (راجع روض القرطاس ص ١٠٦) .

الفنائم المكسوبة على تكرار هذه الفزوات .

وشجع ظفر رودريك أهل شلمنقة فانطلقوا إلى بطليوس دون تحوط ، أما في تحصيل الفنائم حتى وصلوا إلى مقربة من مكان موقعة الزلاقة الشهيرة التي تثير في نفوس النصارى ذكريات محزنة . وأراد تاشفين أن يحذو مثل جده المجيد يوسف ، فانقض على الغيرين انقضاض الصاعقة ، وكاد النصارى يسحقون على الأثر لولا دخول الظلام . على أنها كانت مهلة قصيرة فقط ، ولم ينقذ ما لجأوا إليه في سبيل إنقاذ أنفسهم من القسوة بقتل الأسرى الكثيرين ، وطوقهم الفرسان المسلمون طوال الليل ، ثم أجمعوا فيهم قتلا انتقاما لآخوانهم القتولين ؛ وحزت هذه النكبة في نفس ألفونسو ، فلم يشأ أن يتركها دون انتقام ؛ فقام بتجهيزات حربية عظيمة في أراضي قشتالة استعداداً لغزو الأندلس . وكان الأمير تاشفين قد قام بغزوة جديدة في ولاية طليطلة (سنة ١١٣٣ م — ٥٢٧ هـ) ، فارتد عند اقتراب النصارى مسرعاً إلى الأندلس ، معولاً على لقاء عدوه القوي وراء الأسوار والحصون ؛ وسار ملك قشتالة إلى الأندلس مع صديقه سيف الدولة (ابن هود) في جيشين في وقت واحد ، واجتمع الجيشان على مقربة من قرطبة . بعد خمسة عشر يوماً من السير الشاق في مفاوز جبل الشارات (سييرا مورينا) الوعرة . وأثنى النصارى في الحقول والحدائق والقرى وفي الناس والدواب ؛ وانتسفوا مروج الوادي الكبير الخضراء ، وأضرموا النار في القرى والبقاع ، وهدموا المساجد ، وأحرقوا المصاحف ، وأبستافوا الدواب ، وسبوا الأطفال والنساء ، وقتلوا الرجال ، وعذبوا الفقهاء ، حتى الموت ؛ ولم يكن ذلك كله سوى انتقام لما ارتكب المسلمون في قشتالة من الفظائع . وامتد هذا العيث الذي كانت تقوم به في مختلف الأنحاء سريبات خفيفة من الفرسان فيما بين قرطبة وإشبيلية ؛ وبعد محاولة خائبة قامت بها جماعة طائشة من الفرسان في شبه جزيرة لبون التي تقع بها قادس ارتد ألفونسو أدراجة صوب طليطلة ، وهنا انقض تاشفين على الجيش القشتالي فجأة أملاً في أن يوقع به هزيمة كالتى أوقعها بأهل شلمنقة ،

واشتبك معه في معركة . يد أنه هزم هزيمة شديدة . ولم يتخذ فلول المسلمين من مطاردة التصارى سوى التجأهم إلى قلاع إشبيلية القريبة ؛ وهكذا عاد التصارى إلى وطنهم دون عائق أو مهاجم ، وهم ييثون الزوع في طريقهم بين المسلمين الذين هزتهم هزيمة تاشقين ، فأقبلوا يلتمسون الأمان من التصارى على أن يدفعوا لهم الجزية .

واستغرق اهتمام ملك قشتالة ما وقع في اسبانيا النصرانية من الحوادث على أثر موت ألفونسو ملك أراجون ، فلم يتمكن في الأعوام التالية (حتى سنة ١١٣٨) من السير بنفسه إلى مقاتلة المسلمين ، وترك قيادة هذه الحملات إلى نفر من القواد البارعين يتيرون تارة على أراضي الأندلس ، وتارة يدفعون المدو عن حصون الحدود في قشتالة واسترعدادورة . ولم تقع في تلك الفترة فتوح ذات شأن ؛ والظاهر أن الفريقين تماذلا فيما حقق كل منهما من منافع وأصاب من خسائر ؛ وكان رودريك فرنانديز حاكم طليطلة ، ومونيو ألفونسيز حاكم مودة يحاربان باستمرار والي قرطبة وإشبيلية ؛ وبينما كان جيش من التصارى يميث في الأراضي الإسلامية على ضفاف وادي يانه ، كان المسلمون يميثون في أراضي طليطلة ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين حتى غدا ألفونسو ريمونديز بعد أن انتهى من تنظيم شؤون اسبانيا النصرانية أقوى وأقدر على محاربة أعداء دينه .

٢ — الإمبراطورية الاسبانية

والأراضي التابعة لها : نافارا وأراجون وقطلونية

أحدث موت ألفونسو ملك أراجون تغييرا عظيما في شؤون الممالك النصرانية ، ولم يصب الأراجونيون بوصية ملكهم التوفي فرفعوا إلى العرش أخاه رامير والثاني ؛ ولم ير النافاريون في ولاية راهب أو أسقف ما يحقق سلامتهم ، ولم ينسوا أنهم كانوا من قبل شعبا مستقلا ذا ملك خاص ، فرفعوا إلى العرش جارسيا راميريز سليل ملوكهم القدماء ، وانفصلوا بذلك عن أراجون .

وانتهز ريموند برنجار الرابع أمير برشلونة فرصة انقسام جارتة القوية ، فعمل ببراعة على أن تحتل إمارته مركزاً هاماً بين الممالك الاسبانية . وكان أبوه ريموند برنجار الثالث (الذي حكم من سنة ١٠٩٢ — ١١٣٠ م) قد عمل أثناء حكمه مدى تسعة وثلاثين عاماً كثيراً لتوسيع الإمارة . وكان في حروبه ضد المرابطين — حيث كان يشتبك دائماً مع قوى تفوقه — يبدى ضروباً بديمة من الفروسية والجرأة ، ولو أنه لم يحصل من وراء ذلك على مغنم باقية . ذلك أن جزيرة ميورقة التي افتتحها بالتعاون مع البيزيين (سنة ١١١٥ م) فقدت غير بعيد . ثم إن الحرب الصليبية التي شهرها بمد ذلك بقليل ، بإشارة البابا كالكستوس الثاني ضد مسلمى طرطوشة ولارة وافراغة ، لم تسفر عن نتائج ذات شأن بالرغم من خضوع هذه المدن لأداء الجزية . أما الشروع الضخم الذي نظمته مع رجار (روجر) ملك صقلية والجنوبيين فلم يتح تنفيذه ، إذ شغل الجنوبيون بقتال البيزيين ولم يتمكنوا من الوفاء بعهودهم ، واضطر ريموند برنجار الثالث أن يقنع ببقاء حدود ولايته بأمن من غزوات المرابطين . على أن الإمارة استطاعت أن توسع حدودها فيما وراء البرنيسه في جنوب فرنسا . وكان ريموند برنجار الأول قد استولى على جزء كبير من ولاية لانجدوك ، وضمت مدينتا قرقشونة ورازيه إلى قطلونية ، وحافظ ريموند الثالث عليهما من هجمات جيرانهما الأقوياء ووضع يده على ولايتي فزالو وشرطانية^(١) بالاعتماد على الوراثة ، واستولى بواسطة زواجه من الكونتة الثرية دولشييه (سنة ١١١٣ م) على ولايتي بروفانس وكيفودون كارلاد وجزء من روفرني ، وعدة بقاع أخرى في لانجدوك ؛ وتلقب من ذلك الحين « بمرجرف برشلونة واسبانيا ، وكونت فزالو وبروفانس » .

ونار بينه وبين الكونت دى تولوز نزاع من أجل بروفانس انتهى بعقد معاهدة إرث وتقسيم (سنة ١١٢٥ م) قسمت بمقتضاها الولاية بينهما على أن يرث كل منهما نصيب الآخر إذا انقطع عقبه .

(١) شرطانية هو الاسم الذي لولاية Cerdagne .

ولم يظهر ريموند الثالث فقط بفروسيته ، ولكنه ظهر أيضاً بتقواه ، وهي صفة كانت دائماً من لوازم الفروسية الحق . ولم يقتصر على مقاتلة أعداء دينه في مواقع عديدة ، ولكنه وضع أيضاً بلاده تحت حماية البابا ، وقرر للكرسي الرسولي إتاوة سنوية ، وأغدق رعايته على رجال الدين . وفي أواخر أيامه انتظم في سلك « فرسان المبد » (الداوية)^(١) ، ووهب نفسه لله في سبيل مقاتلة أعداء الدين . ولكن الموت عاجله ولم يتح له أن يفي بنذره (سنة ١١٣١ م) ، وأوصى لولده الأكبر ريموند برنجار الرابع بولاية برشلونة وفزالو وشرطانية وقرقشونة ورازيه ؛ وتلقى ولده الثاني برنجار ريموند باقي أملاكه الفرنسية ، وأهمها ولاية بروفانس .

وتلقى ريموند الرابع حب « فرسان المبد » عن أبيه ، وأغدق عليهم كثيراً من رعايته ، وطلب إلى كبيرهم بيت المقدس أن يرسل عدداً منهم إلى قطلونية ، وأسس أول دير في اسبانيا لهذه الطائفة ، ووهبها كثيراً من الأملاك والحقوق والمزايا . وسرعان ما ظهرت معاونة « الفرسان » القيمة وشجاعتهم في محاربة أعداء الدين ، وفي ذلك ما يفسر كون ألفونسو ملك أراجون قد أوصى بملكته كلها لفرسان بيت المقدس . ومع أن الوصية لم تنفذ ولم يستول الفرسان على المملكة ، فإن راميرو الثاني وهو من رجال الدين وهب هؤلاء الفرسان في أراجون من الأملاك والحقوق ما لم يفوزوا به يومئذ في أى بلد أوروبى آخر .

وكانت سياسة ريموند الرابع ترى إلى التفاهم مع قشتالة باعتبارها كبرى الدول الاسبانية ، ولكي يستطيع بمعاونتها أن يوسع أملاكه على الأيبرو وفي البرنيه ؛ فلما عمده ألفونسو ريمونديز على أثر موت ملك أراجون ، إلى غزو ولايات الأيبرو واستولى على نجيبرا وقلهرة وطز كونة وسرقسطة ذاتها ، وشهر الحرب بذلك على مملكتي أراجون وناقارا ، سعى الكونت ريموند والكونت دى تولوز إلى لقائه في سرقسطة ، ووعداه بالمعاونة في محاربة أراجون ، وأقسما

(١) راجع المائش الخامس بذلك في س ١٧٥ .

الله عمن الخضوع . وكان زواج أخت ريموند برنجار من ملك قشتالة (منذ سنة ١١٢٨) عاملا في تقوية أواصر الصداقة بينهما .

ولما آتس ملكا أراجون ونافارا روعة الخطر الدائم آثرا أن يحتفظا بشيء من السلطان على أن يخوضا حربا لا يقويان على خوضها ؛ ومن ثم فقد نزل راميرو الثاني إلى ملك قشتالة عن مرقسطة ، وردت بذلك حدود أراجون إلى عهدهما القديم في جبال ريبارسيا ؛ وارتضى جارسيا ملك نافارا أن يحكم مملكته باسم ملك قشتالة . كذلك شعر الكونت هنريكينز أمير البرتغال بالرغم مما كان يتمتع به من الاستقلال اقتداء بأمه تيريزا ، أنه لا يستطيع منالبة قشتالة ، ومن ثم فقد عمد في الوقت المناسب إلى الاعتراف بدعوى ألفونسو في السيادة على البرتغال . وهكذا بسط ملك قشتالة سلطانه على جميع أراضي اسبانيا النصرانية ، وهو ما لم يفز به ملك آخر من قبل . ولم يكن لقب « الملك » يكفي للإعراب عن حمولة ملك يسود ملوكا وأمراء ؛ وكان لقب « القيصر » الذي اتخذته من قبل اثنان من ملوك قشتالة ، وألفونسو ملك أراجون ، أصلح وأكثر ملاءمة لما كان يتمتع به ألفونسو ريمونديز من سلطان على اسبانيا النصرانية كلها . ففي اجتماع عقد في ليون (في ١٠ يونية سنة ١١٣٥) وشهده الملكة برنجاريا ، وسانشا أخت الملك ، وملك نافارا ، وسفراء قطلونية وأراجون والبرتغال ، وأكابر الأشراف ورجال الدين من جميع أنحاء قشتالة ، أعلن ألفونسو ريمونديز « قيصرآ » لاسبانيا . وقاده أشراف الملكة من القصر الملكي إلى الكنيسة الكبرى حيث كان رئيس الكنيسة الاسبانية ريموند مطران طليطلة وجميع الأعيان في انتظاره . وهناك قاده المطران إلى الهيكل ووضع التاج على رأسه والصولجان في يده ؛ وكان عن يمينه جارسيا ملك نافارا ، وعن يساره أسقف ليون يسكن بالتاج ؛ وفي نهاية الحفل قاد الأعيان الملك إلى قصره ، حيث تولى الأشراف خدمته على السباط . وقد اشتهر مجلس ليون بهذا بما صدر فيه من قرارات كان أهمها بلا ريب قرار سبق اتخاذه في اجتماع ليون في سنة ١١٢٦ ، وهو يقضى بأن تطبق القوانين

والحقوق البلدية Buenos fueros في جميع أنحاء قشتالة والولايات التابعة لها ،
وهي القوانين والحقوق التي كانت قائمة في عصر الملك ألفونسو السادس ؛ وترتب
على هذا القرار إلغاء كثير من التصرفات في أراجون ، وإلغاء بعض الامتيازات
التي انتزعها بعض الأشراف لأنفسهم دون حق ؛ كذلك أعيد إلى الكنائس
والأديار ما نزع منها خلال الحرب الأهلية من الامتيازات ، وتقرر إصلاح
الأملاك الخربة . وغرس الحقول الدارسة توفيراً للممران والرفاهة ، وأنشئ
من سكان الحدود نوع من الجند الاحتياطي يجشد فيه كل رجل قادر على
السلاح ، وذلك للعمل على رد غارات المسلمين ؛ وحقت خطوة كبيرة في سبيل
المساواة بين الطبقات بإصدار قانون يحتم عقاب كل مجرم ، مهما كان شخصه
ومقامه . ولكن الحوادث دلت على أن القوانين الحسنة لا تكفي لإسماد الأمة
ما لم يكن لدى الحكومة من العزم والقوة ما يكفي لتطبيقها ؛ ولم يك ممكناً في
معظم الأحيان أن تطبق على الأشراف ذوى الجرأة والقوة دون حرب أهلية ؛
وكان تشبه السادة التابعين بالأمراء يحقق لهم الإفلات من العقاب على أشد
الجرأتم ؛ وفي عصر كان يسود فيه حكم القوة كان إذعان الفرد متوقفاً على مقدار
ما يمكن أن يبذله الأقوى لإرغامه من وسائل القوة والعنف . وإنه ليدو
من الدهش في عصر كانت فيه الجريمة الحقيقية تفرض لها عقوبات ضئيلة ،
أو لا يعاقب عليها أصلاً ، أن تسن عقوبات صارمة لجرائم خيالية ؛ فثلاً كانت
سيادة الخرافة تقضى في كل عصر بأن تسن عقوبة الموت ضد السحرة والمرافين
ومفسدى الجو (١) .

بريه : فلما عهد النصارى في الأعوام الأولى لتتويج ألفونسو قيصراً على
الآيات الأيبرو واستولى جماعة ، ولكنهم لما آنسوا قوتهم ، وأجمعوا أمرهم ،
أحب بذلك أن يحطيم نير التبعية الثقيل ، وتحقيق استقلالهم من جديد ؛ ولم يبق

(١) هم طائفة من « السحرة » في المصور الوسطى ، كانت تعزى إليهم القدرة على
إفساد الجو ، وإثارة العواصف والأنواء والأمطار ؛ وما زال أثر هذه الخرافة بائياً في بعض
المجتمعات الأوربية المتأخرة ، ولا سيما الفلاحين .

على ولانه منهم سوى أمير قطلونية نظراً لمصاهرته للقيصر ، وهو مع ذلك يؤمل أن يكون أكثرهم غنا .

وقدّم أسباب الحرب الأولى راميرو الثانى ملك أراجون ؛ وكان راميرو بالرغم من سنه ، وكونه كان من رجال الدين ، قد تزوج بموافقة البابا يابنة جيوم التاسع دوق أكونين ، وأعقب منها ابنة تدعى بترونيلا ؛ وكان أكثر اهتماما بشؤون طائفته القديمة وتخصيص الهبات للكنائس والأديار منه بعمام الحكم . وبذا خسر حب شعبه وولائه . وكانت موافقته على أن يزوج ابنته من سانشو ولى عهد قشتالة — وهو مشروع قديهدد استقلال أراجون — مشارعماوضة شديدة من الكبراء ؛ وفى بعض الروايات القديمة أن نفرأ من هؤلاء الكبراء المجتمعين فى وشقة قد قتلوا بأمر راميرو لهذا السبب أو غيره ، وهى رواية يحيق بها الشك نظراً لما اتصف به راميرو من ضعف فى الخلق والعزم . وكان ملك نافارا يطمح إلى اعتلاء عرش أراجون بعد وفاة راميرو ، ولكنه استشاط غضباً حينما علم أن بترونيلا اختيرت وارثة للعرش ، مع أنه تقرر وفقاً لترتيب وضع قبل أن يرزق راميرو بابنته ، أن يؤول عرش أراجون إلى نافارا ؛ والظاهر أن القيصر ألفونسو نفسه كان قد وعد ملك نافارا بذلك وكفل تحقيقه .

ولكن تطور الأمور على هذا النحو وضع ملك نافارا فى مأزق شديد الحرج ، فهو قد حصر من الحائنين بين مملكتين قويتين تعترمان اقتسام مملكته . بيد أنه أبدى همة وحزما ، واستطاع أن يجنى من وعورة أرضه ، فى النضال أعظم الفوائد . وألقى حليفاً مخلصاً فى أمير البرتغال ألفونسو هنريكيز الذى كان يخشى قشتالة ويحتمل سيادتها على مضض . وفى سنة ١١٣٦ نشبت الحرب فى وقت واحد على ضفاف نهري إبيرو ومنهو^(١) ، فزحف القيصر ألفونسو على نافارا بجيش ضخم ، وأثنى فى البسائط وحاصر القلاع ، وبدأ كأّن النصر يحالفه ، ولكنه لم يغم شيئا ، لأنه لم يفتح الحصون ؛ ثم جاءت الأنباء بتقدم القوات

(١) نهر فى شمال البرتغال .

البرتغالية في جليقية ، فاضطر أن يسير إلى الناحية الأخرى من مملكته ، وأن ينسحب من الأراضي النافارية حتى لا يفقد جليقية ؛ وفي الوقت نفسه كان المسلمون يهددون حدود قشتالة الجنوبية ؛ وهكذا استطاعت نافارا أن تنجو من الخطر الداهم .

وبينا كان القيصر يسير نارة لمحاربة المسلمين ، وأخرى لمحاربة البرتغاليين ، إذا بالحوادث في أراجون تتطور لصالح قشتالة ، بالرغم من كون غزوها لنافارا لم يسفر عن فتوح ثابتة ؛ ذلك أن راميرو الثاني لم يستطع على تقشفه واعتداله أن يكسب حب شعبه ، وبالعكس فإن فريقاً من الشعب كان يبنضه لأنه تزوج بالرغم من انتباهه لرجال الدين ، ويبغضه فريق آخر لأنه عاطل عن الصفات الحربية . وأخيراً غاب عليه ضعف الشيخوخة وعادته القديمة في حب العزلة ، فاعتزم أن يختار لابنته بترونيلا زوجاً يضطلع بدوره بأعباء الحكم ، ثم ينسحب هونهاثيا من الملك ؛ ودعا بموافقة القيصر أو إيمازه ممثلي أراجون إلى اجتماع عقد في برشتربحث هذا الموضوع ، واستقر الرأي بالإجماع على اختيار الكونت ريموند برنجار الرابع أمير قطلونية ليكون زوجاً للأميرة لما اتصف به من رفيع المواهب والخلال ؛ فرحب الكونت ريموند بأن يندو زوجاً لوارثته مملكة ، وذلك بالرغم من أن الأميرة لم تكن قد تجاوزت الثانية من عمرها ، واشترط في الخطبة أنه إذا توفيت بترونيلا قبل عقد الزواج ، فإن خطيبها يرث عرش أراجون بعد وفاة راميرو الثاني ؛ وفي الحال تولى الكونت زمام الحكم باعتباره وصياً ، ولم يغير مع ذلك لقبه ، مؤثراً أن يبقى كونتاً قوياً على أن يندو ملكاً ثانوياً ؛ ولعل ذلك مرجعه أن راميرو الثاني لبث محتفظاً بلقبه الملوكي ، وذلك بالرغم من أنه التجأ إلى سكون الدير (سنة ١١٣٧ م) واعتزل كل شؤون الحكم ، وعاش بعد ذلك زهاء عشرة أعوام حتى سنة ١١٤٧ ، ورعا أيضاً حتى سنة ١١٥٥ . ولما توفي راميرو تلتقت بترونيلا باللقاب الملك ، وشاطرت زوجها الحكم في أراجون ، ولكنها لم تشركه في اللقب . ولم تتحد قطلونية وأراجون في مملكة واحدة إلا في ظل عقب

ريموند وبترونيلا ، واحتفظت مع ذلك كل منهما بقوانينها وأنظمتها السابقة ؛ وتبوأ قطلونية في البداية مركز الرياسة نظراً لتجارتها الغنية ، وذلك بالرغم من مثول اسم أراجون في الملائكة المتحدة .

ولم يتردد القيصر في أن يؤيد ارتقاء صهره الملك بالاعتراف به وإقراره ؛ ولعله قد عمل سرا لتنظيم هذا المشروع وتنفيذه ؛ وسار ريموند برنجار إلى لقاء ألفونسو ريمونديز في « كاريون » ، ووافق ألفونسو على تصرفات راميرو باعتباره صاحب السيادة عليه ، وقدم دليلا على جوده وصداقته بأن نزل الوصى على أراجون عن جميع القلاع الواقعة على نهر إيبرو ؛ ومنها سرقسطة التي كان يحتلها حتى ذلك الحين ؛ وأقسم ريموند من جانبه بمين الطاعة لألفونسو ، وتعهد بأن يمدّه في جميع الحروب التي يخوضها بقوى أراجون وقطلونية ولا ينجذوك .

وكان من صالح الملكين أن يحاربا عدوها المشترك جارسيا ملك نافارا ، وكان ريموند برنجار يرى أن هذه المملكة يجب أن تؤول إلى أراجون . وكان القيصر ينقم على ملك نافارا أنه خرج عليه بعد أن أقسم في البداية بمين الخضوع له ، وأنه تحالف مع أمير البرتغال الخارج على سلطانه ؛ ولما كان يتمذّر على أراجون وحدها أن تحارب نافارا بنجاح ، فقد رأى القيصر أن يسير بنفسه إلى نافارا عن طريق الأيبرو في جيش ضخم ، بينما زحف ريموند برنجار في نفس الوقت في جيشه من الجنوب لكي يشدد الضغط على المملكة الصغيرة ؛ وبدا عندئذ أنه يتمذّر على الملك جارسيا أن يقاوم طويلا ، ولكن أحكم الخطط قد يفسدها حادث طارىء . أجل استطاع القيصر أن يخترق نافارا ظافراً (سنة ١١٣٩) ، وأن يصل إلى عاصمتها بنبلونة دون كبير مقاومة ، وأن يضرب حولها الحصار في الحال ؛ ولكن الجيش الأرجوني الذي كان مقرراً أن يلحق بالقيصر تحت أسوار بنبلونة عاقته خطط الملك جارسيا البارة عن بلوغ هذه الغاية ، وجعلته في مأزق حرج ، واستطاع النافاريون أن يوقعوا به هزيمة شديدة ؛ وكان جارسيا أحرص من أن يحمله حسن طالع على أن يحاول بقواته الضئيلة لقاء القيصر في قواته الضخمة ،

فاكتفى بأن يلتزم خطة الدفاع ، وأن ينهك قوى خصومه ، وانتهى ببلوغ الغاية المنشودة ؛ إذ غادرت قوى العدو أراضيهم دون أن تقوم فيها بأى فتح يذكر . وارتد الحليفان عند دخول الشتاء ينفهما الخجل ، وهما يمتزمان نحو عار هذه الحملة الفاشلة فى العام التالى بإحراز نصر باهر .

وعند بدء الحرب فى العام التالى تطورت الحوادث السياسية ، فسمى ملك نافارا الفطن لدى رجال الدين ، وكذلك لدى السكوت دى تولوز الذى جاء حاجبا إلى شنت ياقب ، للتدخل فى عقد الصلح ؛ وكان حليف نافارا المخلص ألفونسو هنريكيز الذى تلقب قبل ذلك بقليل بملك البرتغال قد روعته نتائج الحرب مع قشتالة ، وشغلته غارات المسلمين ، فلم يك يوسمه أن يشد أزر الملك جارسيا . فلما سار القيصر ألفونسو فى ربيع سنة ١١٤٠م لمحاربة نافارا للمرة الثانية ، واتجه نحو قلعة ، وسار ريموند برنجار فى نفس الوقت بقوات أراجون وقطالونية وهو يضطرم شوقا إلى الانتقام لهزيمة ، ألقى جارسيا بقضيته الخاسرة إلى رجال الدين ؛ واستطاع هؤلاء أن يحملوا القيصر باسم السلام على وقف الحرب ، ولكن جارسيا اضطر للاحتفاظ بمرشحه أن يعود فيعترف بسيادة القيصر ؛ ورؤى لتوطيد السلام والصداقة بينهما أن يمتد زواج أكبر أولاد القيصر ولى العهد سانشو والدونا سانشا ولى عهد نافارا ؛ وهكذا سوى النزاع بين قشتالة ونافارا . ولكن ذلك لم يكن ليرضى أراجون ، إذ كانت ما تزال تتطلع إلى عرش نافارا وتتربص الفرص لتحقيق أمنيتها بالسيف ؛ ونقم الأراجونيون على القيصر أنه لم يحسب حسابا لتحالفه مع أراجون وعقد الصلح بمفرده مع العدو المشترك ؛ وبينما كان ألفونسو مشغولا بقتال المسلمين نشبت الحرب بين نافارا وأراجون ، وبدأت الوقائع بينهما سجلا ، ثم رجحت كفة جارسيا ، واستولى على مدينة طر كونة (سنة ١١٤٣) . فمئذ اهتم القيصر بالأمر ، سيما وقد أبدى ملك نافارا الذى غره الظفر أنه يبنى خلع سيادة قشتالة . وشهر ألفونسو الحرب على نافارا ، وزحف مع ريموند برنجار إلى الأيرو لقتال العدو المشترك . وهنا نذر جارسيا

بالحكمة وبإدراك التسليم اتقاء العاصفة ، ووعد بوقف الحرب ضد أراجون ، وأعاد إليها الأمان المفتوحة ووجد عهد الخضوع للقيصر . ولما كانت زوجه الملكة مرجريتا قد توفيت منذ أعوام ، فقد رأى توطيد هذا الصلح بتوثين روابط الأسرتين ، وذلك بزواج جارسيا من الدونا أورا كا ابنة القيصر غير الشرعية ، واحتفل بمقد هذا الزواج في ليون في ٢٤ يونيو سنة ١١٤٤ في حفلات باذخة ضمت جميع ضروب اللهو الشائقة التي كانت معروفة في ذلك العصر من موسيقى ومبارزات ومصارعات وغيرها ، وشهداها القيصر وأعضاء الأسرة الملكية وأشراف قشتالة وناقارا . وما كادت هذه الحفلات تنتهي حتى أخذ القيصر وأتباعه في التفكير في أمر الحرب التي يجب أن يشهروها مما ضد المسلمين .

٢ - حروب النصارى الأسبان ضد المرابطين

منذ وفاة ألفونسو الأراجوني حتى بداية اضمحلال سلطان المرابطين

في الأعوام الأولى التي تلت موت ألفونسو المحارب ، شغل الأمراء النصارى بشؤونهم الداخلية ، ولم يستطيعوا القيام بغزوات ذات شأن في الولايات الإسلامية بل اكتفوا بأن عهدوا إلى حكام الحصون الواقعة على الحدود برد غارات المسلمين ؛ فلما انتهى القيصر من تهدئة إسبانيا النصرانية ، وخضع له جميع الأمراء عاد فساد نفسه في سنة ١١٣٨ م إلى مقاتلة المسلمين ، ولكن هذه النزوة لم تكمل بالظفر . ذلك أنه لم يستطع الاستيلاء على قورية وهي قلعة منيعة تقع على مقربة من ضفة التاجه اليمنى ، وذلك بالرغم من حصارها الشديد . بيد أنه استطاع في العام التالي أن يرد غزوة قام بها المسلمون في ولاية طليطلة بقوات عظيمة ، وانزع جنده بمد ذلك بقليل قلعة « أوربة » من المسلمين ، وقد كانت قاعدتهم في كل غاراتهم على قشتالة ، وكانت أمتب مفتاح ولاية طليطلة واعتبر افتتاحها ظفراً عظيماً ، واحتفل به في طليطلة في حفلات باذخة ، واستقبل رجال الدين القيصر الظافر ، وساروا في موكبه إلى الكتيبة الكبرى حيث أقيم قداس شكر حافل .

ثم نشبت الحرب الأهلية بين الأمراء النصارى ، فاضطر القيصر أن يوقف غزوانه الكبيرة ضد المسلمين ، وكانوا يومئذ يهددون البرتغال أكثر ، يهددون قشتالة . فلما سقطت قلعة « مورة » النعمة في يد المسلمين باهال حاكمها مونيو ألفونسيز (سنة ١١٤٠ م) وعرضت قشتالة بذلك إلى الغارات المخربة مرة أخرى ، حشد القيصر جيشاً ضخماً وسير حاكم طليطلة رودريك فرنانديز على رأس جيش إلى « وادى يانه » ضد قرطبة وحتى ظاهر إشبيلية ، وحاصر القيصر نفسه قلعة قورية مدى شهرين حتى سقطت في يده في يونيه سنة ١١٤٢ م (٥٣٦ هـ) وذلك بعد أن رد عنها جيشاً من المسلمين قدم لإنجاده . وفي بعض الروايات أن النصارى ساقوا إلى طليطلة عشرة آلاف من أسرى المسلمين .

وفي العام التالي قام مونيو ألفونسيز ضد قرطبة بفزوه موقعة محابها الوصمة التي لحقته من جراء إهماله في الدفاع عن قلعة « مورة » فانفس المروج الخصبة الواقعة على ضفاف الوادى الكبير على مقربة من قرطبة وجمع غنائم عظيمة ، وأحرز نصراً باهراً على قوة كبيرة من المسلمين حاولت أن تعترض سبيل عودهم إلى قشتالة ، وسقط القائدان المسلمان وهما واليا قرطبة وإشبيلية في الميدان مع عدة آلاف من القتلى ؛ وكانت هزيمة ساحقة للمسلمين ، وكانت غنائم النصارى تفوق كل أمل ؛ واستقبل مونيو ألفونسيز في طليطلة استقبال الفاتحين الرومان ، وتسلم رجال الدين عشر الغنائم برسم الكنيسة ورُفع رأسا القائدَيْن المسلمين على رحلين عالين ، وتبهما الأسرى من أكابر المسلمين والفرسان في الأغلال ، ثم بقية الأسرى وقد غلت أيديهم وراء ظهورهم ، ثم موكب الغنائم من الخيل والدواب ومختلف النفائس ، وسار القائد المظفر على رأس هذا الحفل حتى الكنيسة الكبرى حيث كانت القيصرة برنجاريا ورجال الدين والأشراف والشعب المحتشد في انتظاره . ولما عاد القيصر إلى طليطلة — وكان غائباً عنها — بعد ذلك بأيام أقيمت حفلات النصر مرة أخرى ، وأفرز من الغنائم غير عشر الكنيسة قسط كبير لزار القديس ياقب في كومبوستل ، وأفرز منها الخمس للقيصر وفقاً للحقوق المرمية ، وقدمت له

أجل الخيل والدواب ، وحصل مونيو وجنده على ما تبقى منها ؛ وعلق رأسا القائدين المسلمين أمام القصر الملكي وفقا لتقاليد الشرقية ، ولكن القيصرية لم تنطق بالنظر المروع فأمرت بنقل الرأسين ووضعهما في حريزين ثمينين وإرسالهما إلى زوجي القتيلىن ليدفنا بالتكريم اللائق .

وقد أثارت هذه الهزيمة في قلوب المسلمين أيما جزع ؛ ولما وصلت أنباؤها سلطان المرابطين في إفريقية استشاط سخطا لما لحق جيوش المسلمين من محنة ومهانة ، واعتزم اتخاذ الإجراءات المشددة ، فعين يحيى بن غانية الظاهر في موقعة إفراغة واليا عاما لجميع أراضي الأندلس التي ييسط عليها المرابطون حكمهم ، وأمره أن يعمل على أن يأخذ من النصارى بثأر قتلى المسلمين . وفي تلك الأثناء قاد القيصر جيشا إلى قلب الأندلس ضد قرمونة وإشبيلية وعاث في البسائط ، ونفذ المسلمون من ناحية أخرى إلى قشتالة وهاجموا قلعة رباح وأتخنوا في هاتيك الأنحاء ، وأمل مونيو أن يحرز نصرا باهرا كالذى أحرزه من قبل ؛ فتقدم بجراحة ودون تحوط واشتبك في موقعة مع عدو يفوقه في الكثرة ، وقدم بذلك إلى المسلمين فرصة لتحقيق الانتقام المنشود ؛ وهنا هزم النصارى هزيمة شديدة وسقط مونيو مثنخا بالسهم . ففصل رأسه وذراعه اليمنى ورجله اليمنى عن جسده ، وأرسلت إلى قرطبة وإشبيلية لكي تعرض على زوجي الواليين القتيلىن عزاء لهما ؛ ثم حلت بسد ذلك إلى سلطان المرابطين في مراكش دليلا على نفاذ أوامره . ولكن باقى الجثة أرسل إلى القشتاليين مقابل إرسالهم لرأسى الواليين المسلمين نزولا على تقاليد القروسية . وعلقت رؤوس أكابر النصارى فوق أرفع أبراج قلعة رباح عنوانا بالنصر المبين .

وأثار موت مونيو الشجاع حزنا عاما في طليطلة ، ولو أنه اعتر عقابا من الله لأن مونيو سبق أن قتل ابنته بيده ، إذ فاجأها ذات يوم مع حبيبيها الفتى ؛ وحزن القيصر أيضا لفقد قائده الباسل وأقسم بأن ينتقم لموته . فسار إلى الأندلس في سنة ١١٤٤م وكرر غاراته المخربة ولم يتورع عن شيء ، ففي كل مكان أحرق القرى والديساكر أو هدمت ، وسبق الناس والدواب قطعانا ، وحمل غنائم

عظيمة ، وأنحن النصرى فى بسائط قرطبة وإشبيلية وقرمونة وغرناطة ، حتى
المرية ، والتجأ المسلمون الذين استطاعوا النجاة إلى الحصون ، وعاد القيصر إلى
وطنه مثقلا بالفنائم .

ومن ذلك الحين يجوز المرابطون أسود الفترات التى عجبت بأنحلالهم . وقد مهد
انهيار نظم الحكم فى اسبانيا المسلمة من جراء الحروب الأهلية ، واضمحلال سلطان
المرابطين فى إفريقية ، السبيل لفتوح النصرى . بيد أنه يجب قبل أن نمضى فى
تتبع هذه الفتوح أن نقص ما انتهت إليه مصائر المرابطين فى إفريقية .

الفصل الثاني

اضمحلال المرابطين في إفريقية

من جراء ثورة الموحدين

(سنة ١١٢٠ - ١١٤٦ م) - (٥١٤ - ٥٤١ هـ)

١ - أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدي

مؤسس دولة الموحدين

في العشرة الثانية من القرن الثاني عشر الميلادي ، بعد أن تولى علي بن تاشفين حكم المرابطين بيضة أعوام ، قصد رجب ، من بلاد السوس ومن قبيلة مصمودة يدعى أبو عبد الله بن تومرت^(١) ، إلى طلب العلم في أشهر معاهد المغرب والمشرق أسوة بعلماء عصره . وبعد أن درس حيناً في معاهد قرطبة والقاهرة رحل إلى بغداد لكي يستمع هنالك إلى دروس الفيلسوف الأشهر أبي حامد الغزالي ؛ وكان الغزالي قد وضع كتاباً أنكره فقهاء قرطبة ، وقضوا بتكفير مؤلفه نظراً لما احتواه من أقوال ضد السنة ؛ وأخذ سلطان المرابطين علي بن تاشفين برأيهم ، وأمر بأن

(١) هو كما ورد في روض الفطاس محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ؛ وزعم بعض مؤرخي الموحدين أن نسبه ينتهي إلى علي بن أبي طالب ؛ وقبل إنه دعي في هذه النسبة ، وإنه يسمى فقط محمد بن تومرت المرغبي نسبة إلى هرغة من بطون مصمودة (راجع روض الفطاس ص ١١٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ وما بعدها ؛ والمراكشي ص ٩٩ وما بعدها ؛ والحلل الموشية ص ٧٥ وما بعدها ؛ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ وما بعدها) .

تحمق كتب النزالي كلها في أنحاء مملكته الشاسعة باعتبار أن مؤلفها كافر خارج على الدين^(١).

ففي تلك الآونة نفسها قصد أبو عبد الله بن تومرت إلى النزالي في بغداد؛ فمرف الفيلسوف من لمة الفتى وزيه وهيئته أنه غريب، ولما علم أنه قدم من المغرب وأنه درس طويلا في قرطبة، سأله كيف استقبل هنالك كتابه «إحياء علوم الدين»، فلم يخف عليه أبو عبد الله أن الكتاب قُضى بخروجه على الدين، وأن سلطان المرابطين — علي بن تاشفين — أمر بإحراقه نزولا على قرارات معاهد قرطبة وصرا كش وفاس والقيروان؛ وكان هذا أول نبأ تلقاه النزالي عن مصير كتابه في المغرب، فبدأ عليه التأثر لهذه المفاجأة، ودعا على كل من أنكر كتابه أو أحرقه، وخص علي بن يوسف بلمنته ورفع يديه بالدعاء قائلا: «اللهم مزق ملكهم كما مزقوه، وأذهب دولتهم كما أحرقوه»، فقال أبو عبد الله: «أيها الإمام ادع الله أن يجعل ذلك على يدي»؛ فقال: «اللهم اجعله على يد هذا الرجل»^(٢).

وربما بمث هذا الحادث إلى أبي عبد الله فكرة بأنه مكلف بأداء رسالة إلهية؛ ذلك أنه ما كاد يعود إلى وطنه في سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) حتى بدأ يبت تعاليمه الجديدة في كثير من مدن المغرب؛ وقد أثار بغريب زيه؛ وبالسف زهده وورعه وتقشفه، وخطبه القوية الحارة التي يشدد التكبير فيها على مثاب الطبقة العليا، ونقائص الرجل العادي، بين الناس أيماء اهتمام، فهرع الناس إلى مباحه من كل صوب؛ وكان يخلب ألباب المتبرمين من شظف الميش، بما يستعرضه من ألوان النظرسة والرح والترف التي يفرق فيها البلاط والأكابر؛ وكان من الطبيعي أن يهتم ولاية المدن التي يخطب فيها باحتشاد الناس من حوله، وأن يعتبروا هذا «النبي» الجديد مهدداً للنظام والأمن؛ ولكن الرجل الفطن كان يظفر بالنتيجة

(١) كتاب النزالي المشار إليه هنا هو مؤلفه المشهور إحياء علوم الدين؛ وقصة الحكم عليه وتكفير مؤلفه مشهورة في تاريخ الأندلس، (راجع في ذلك الحلل الموشية من ٧٦، ٧٧، والمرافكي ص ٩٩).

(٢) راجع الحلل الموشية من ٧٦، ٧٧؛ وتروى هذه الواقعة أحيانا بصور أخرى..

فى كل مرة ، إما بالفرار فى الوقت المناسب أو بالاختفاء عند بعض الأصدقاء المخلصين ؛ وكان قد التف حوله بعض التلاميذ الذين يخلصون له من أعماق قلوبهم ، واصطفى من بينهم بالأخص فتى جميل الطلعة هو عبد المؤمن بن على ^(١) ؛ فعنى بتثقيفه فى تماليمه الجديدة أتم عناية واختاره وزيراً .

وبعد أن طاف أبو عبد الله بكثير من بلاد المغرب واعظا ، وحشد من حوله الأنصار والتلاميذ أينما حل ، سار بصحبة أخلص تلاميذه إلى مراكنس عاصمة المرابطين . ثم قصد يوم الجمعة إلى مسجدھا الجامع وقت الصلاة ، وكان غاميا بالمصلين ، وجلس فى المكان المخصص للأمير المسلمين بين استحسان الجمهور وإعجابه ؛ ولما أراد بعض سدة الجامع أن يبعده عن موضعه التفت إليه فى هدوء وحزم وتلا عليه الآية : « وأن المساجد لله » ، وأخذ يفسرها ، والجمهور يرمقه بمنتهى الإعجاب والتقدير .

ولما جاء سلطان المرابطين ليشهد الصلاة ، نهض الحضور جميعا لتجنبته كالمادة إلا أبا عبد الله فانه لم يتحرك من موضعه ، ولم يرمى الأمير ، ولم يبد أقل إشارة تشعر باهتمامه بأمره ؛ فلما انتهت الصلاة ، نهض لتحية الأمير وقال له ما يأتى : « غيّر المنكر وارفح الظلم ببلادك ؛ فانت المسئول عن رعيّتك أمام الله » ؛ فالتى الجمهور قوله صوابا ، وأيده باعتبار أن ما قاله حق ؛ ولكن عليا لم يجب بشيء ، وظن أن محدثه من أولئك الزهاد الورعين المنقطعين إلى العبادة ، والذين لا حرج عليهم فى أن يحدّثوا الأمير بمثل ذلك ؛ فسأله عندئذ عما إذا كانت له حاجة ؛ فأجابه أبو عبد الله : « لست بطالب دنيا ، ولا حاجة لى بها غير أنى آسر بالمعروف وأنهى عن المنكر » ^(٢) .

ولم يمض سوى قليل حتى زاد اهتمام على بأمر هذا الرجل ؛ وكان أبو عبد الله

(١) راجع الحلال الموشية ص ٧٧ .

(٢) راجع الحلال الموشية ص ٧٣ ؛ وروض القرطاس ص ١١١ ؛ وفى الرواية أن الشق الأخير من الحديث بين الأمير وأبى عبد الله لم يقع فى المسجد ، ولكنه وقع فى القصر حيث استدعى الأمير أبا عبد الله عقب الصلاة .

يمظ في المدينة ، في الميادين العامة وفي المساجد ، في جموع غفيرة ، ويحمل على اللاذ الدينية ، وعلى فساد الطبقة العليا بين هتاف الجمهور واستحسانه ؛ فأمر على العلماء بامتحان الرجل ، وإصدار رأيهم فيه ، وقال العلماء بأن أبا عبد الله لا ينبغي بالتحدث عن البدع والمدهشات سوى استهواء العامة وإثارتهم ، وأنه يجب لصون الأمن والنظام أن يحال بين الرجل وبين الناس ، وأن يزج في الحال إلى السجن ؛ وقال بعض الفقهاء للأمير : « أبقاك الله ، هذا الرجل استعمله في الكبول ، وإلا قصده يسمك الطبول »^(١).

ولكن الوزير عثمان بن عمر عارض في هذا الرأي بحجة أن أخذ أبي عبد الله بالنف يدل على خوف الأمير منه ، وأنه يجب أن لا تعلق مثل هذه الأهمية على رجل حقير مثله ؛ فوافق الأمير على هذا الرأي ، ولم يتخذ أى إجراء عنيف ضد أبي عبد الله ، وترك حراً في سبيله^(٢) ؛ ولكنه أبعد من مراكش على ما يظهر أولقى صمابا في البقاء بها ، فنادرها بعد قليل إلى فاس ، وتابع مواعظه هنالك ؛ ثم عاد إلى مراكش بعد بضعة أعوام ، ليستأنف الوعظ بها بمحضر من البلاط ، وعاد صوته يدوى في الميادين والمساجد ضد الفساد والمنكر وشرب الخمر والانغماس في اللهو ؛ ثم عمد إلى آلات الطرب فأخذ يحطمها بحماسة ، وكانت تستعمل للرقص الخليع والغناء المستهجن ، ومضى في وعظه غير حافل بالسلطات ؛ ولم يقصر حملاته على المعاصي وحدها ، بل تمداه إلى الحملة على أشخاص مرتكبيها والتنويه باستحقاقهم للمعاقب ؛ فمندئذ بذل رجال البطانة — وهم من خاصة المنغمسين في اللهو والترف — كل ما استطاعوا للإيقاع به ، وأبدوا لسلطان المرابطين ما يحيق من الأخطار بحكومته إذا ترك هذا الواعظ المثير وشأنه دون عقاب ؛ فاستدعاه على إليه وخطبه برفق ، وسأله عما إذا كان حقاً ما يقال عنه ، وهو أنه يجرى الناس على الثورة ، فأجابه أبو عبد الله : « ماذا يمكن أن يقال لك عنى ، إلا أنى رجل

(١) اللحل الموشية ص ٧٤ . وقد استمرنا هنا ألفاظ الرواية العربية ، وهي التي ترجمها المؤلف .

(٢) راجع اللحل الموشية ص ٧٤ .

فقير ، أطلب الآخرة ، ولست بطالب دنيا . وليس لى فى هذه الدنيا شأن غير شأنى ؛ وهو ليس فى الواقع من شئون هذه الدنيا « فدهش على لجوابه ؛ والى لم يكن فى نفسه منه شىء رأى أن يحاول حسم الأمر بالمعروف ، فاستدعى فقهاء البلاط لمناظرته بحضوره فى آرائه وتعاليمه الجديدة ؛ فطال الجدل والنقاش بين التريقين^(١) ولم يرتح على لأقوال أبى عبد الله ، ورأى أخيراً أن ينزل عند نصيح علماء فى العمل على صون السكينة فى عاصمته ، فخطر الوعظ على الداعية ، وأمر بنفيه من مراکش ، خصوصاً وقد اجترأ أبو عبد الله ذات يوم ، حينما اتى أخت على فى الطريق حاسرة قناعها ، فأنبها على تبذلها ، ثم لطمها فوقعت من على جوادها^(٢) .

وما أن بدأت مطاردة أبى عبد الله (ابن تومرت) على هذا النحو حتى كتب النجاح لقضيته . ذلك أنه سار برفقة عبد المؤمن وزيره وأخلص تلاميذه إلى موضع بمنزل بقرب مراکش ، وابتنى له هناك كوخاً بين القبور ، فهرعت إليه جموع غفيرة من الناس تطلب الاستماع إليه ، والتف حوله ألف وخمسمائة رجل كانوا على استعداد دائم لأن يملؤوا كل شىء ، وأن يحتملوا كل شىء فى سبيل أستاذهم وسيدهم .

وبدأ أبو عبد الله من تلك اللحظة يصف حكومة المرابطين بأشنع النعوت ، وكيف أنها عاكفة على نشر الإلحاد والفساد والمنكر والفجور ، وأنه يجب قتالها وإلا أصيب الإسلام فى الصميم ؛ وهنا بدأ لأول مرة يتلقب بالمهدى وهو الذى ورد ذكره فى الحديث ، بأنه يقوم برد الدين الصحيح ، وتطهير قلوب المؤمنين من الشوائب ، وإرشادهم إلى طريق الحق والعدل ومعرفة المولى الفرد الصمد ، وذاع صيت أبى عبد الله بسرعة وكثرة أنصاره كثرة جزعت لها حكومة المرابطين

(١) أورد صاحب روض القرطاس خلاصة المناقشات الكلامية التى وقعت فى هذا المجلس بين ابن تومرت وبين مناظريه (ص ١١٢) .

(٢) إن إيراد هذه الواقعة على هذه الصورة فيه تحريف ؛ وخلاصته الواقعة كما رواها ابن خلدون هو أن ابن تومرت « لى ذات يوم الصورة أخت على بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها المسلمين فى زى نسائهم ، فوبخها ، ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريره » (ج ٦ ص ٢٢٧) .

وأصدر على في الحال أمره بالقبض عليه وإعدامه ؛ ولكن أبا عبد الله وقف على ذلك الأمر في حينه ، وفر من مطاردية سريما ، وقصد إلى اغمات ، ثم قصد منها إلى تينمال (أو تينمل) من بلاد السوس يصحبه رهط من أخلص أنصاره .

وهناك ، في وطنه ، عكف يحدث جموع الشعب التي تزايد كل يوم من حوله ، عن رسالته الإلهية باعتباره المهدي المنتظر ، ويطلب إليهم الثورة ضد المرابطين الملاحدة . ولما كان المرابطون قد أثاروا بنظرستهم ، وترفعهم ، وعدم حرصهم على كثير من التقاليد الدينية سخط المسلمين المحافظين ، فقد ألقت تعاليم المهدي وتحريضاته الاستحسان والتأييد في كل مكان . وبادر النبي الجديد من جانبه إلى إنشاء نوع جديد من الدولة ، ليتم بذلك ثورته على حكم المرابطين ، وذلك بأن بايعه عشرة من أخلص أصدقائه وتلاميذه تحت شجرة خرنوب ، باعتباره الامام المهدي ؛ بايعوه على الطاعة المطلقة ، وأن يفقدوه بأرواحهم وأموالهم ،^(١) وبايعه من بعدهم كثير من رجال القبائل ، وأطلقوا من ذلك الحين على أنفسهم اسم الموحدين ،^(٢) (ومعناه الذين اتحدوا على الإيمان بوحدة الله) ؛ وقسم أبو عبد الله أتباعه إلى عشر طبقات ، أولاها وأرفعها طبقة الجماعة أو العشرة وهم أول من بايعه ، وكانوا يشاطرونه الحكم ، ويتولون لديه مناصب الوزارة والقيادة . وتتألف الثانية من أهل الخمسين ، والثالثة من أهل السبعين ، وهما ضرب من المجالس النيابية ؛ ويتولى أعضاؤها في الوقت نفسه مناصب الإدارة ، وتنظيم أعمال

(١) وهذه هي أسماء صحب المهدي العشرة ، وهم عبيد المؤمن بن علي ، وأبو محمد البشير ، وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص بن يحيى الهنتاتي ، وأبو حفص عمر بن علي أزناج ، وسليمان بن مخلوف ، وإبراهيم بن إسماعيل الحزرجي ، وأبو محمد عبد الواحد الحفصري ، وأبو عمران موسى بن ثمار ، وأبو يحيى بن بكيت ؛ وسمى هؤلاء العشرة بالمهاجرين الأولين وبالجماعة . (راجع روض القرطاس ص ١١٣ والحلل الموشية ص ٧٩ والاستقصاء ج ١ ص ١٣٦ ، والمراكني ص ١٠٤) ، وأورد ابن خلدون منهم أسماء أخرى (ج ٦ ص ٢٢٧) .
(٢) قال ابن خلدون في تمثيل هذه التسمية : « وكان (أى المهدي) يسمى أصحابه بالموحدين تمييزاً بلمتونه في أخذهم بالدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم » (ج ٦ ص ٢٢٩) . وراجع أيضاً روض القرطاس ص ١١٤ ؛ والحلل الموشية ص ٨٠ .

البر ، ويمانون المشرة على القيام بأعباء الحكم ؛ وتتألف الرابعة من العلماء (الطلبة) ؛
والخامسة من الحفاظ (صغار الطلبة) ؛ والسادسة أهل الدار (أسرة المهدي) ؛
والسابعة أهل هرغة (قبيلة المهدي) ؛ والثامنة أهل تينال ؛ والتاسعة أهل
جرميوت ؛ والعاشر من الجند من مختلف القبائل^(١) ؛ وكان أصحاب المهدي
يومئذ زهاء عشرين ألفا ، اختار منهم عشرة آلاف وزودهم بالأعلام البيضاء
(وكانت أعلام الرابطين سوداء) ، ووضعهم تحت قيادة أبي محمد البشير ، أحد
المشرة المختارين .

وكان علي بن تاشفين في اسبانيا حينما علم بأهبة أبي عبد الله لمحاربته ، فبعث في
الحال جيشا تحت إمرة ولده الأمير أبي بكر لمقاتلة الثائر ، وكانت قوى الوحدين
قد بلغت عندئذ حدا لم يجزؤ منه قائد الرابطين على زوالهم ، فانتظر الأمداد ؛ فلما
وصلته تقدم لقتال الموحدين ، ولكن رجعا فجائيا سرى إلى صفوف الرابطين ،
فركنوا إلى الفرار قبل أن يبدءوا القتال ، وتركوا النصر لأعدائهم (سنة ٥١٦ هـ
- ١١٢٢ م) . وجاء جيش آخر من الرابطين ، فكان أقل خورا من سابقه ،
والتحم مع الموحدين في معركة دموية ، ولكنه هزم وألجئ إلى الفرار ؛ ثم جاء
جيش ثالث ، فلقى مائتي سابقه . وبذا كان الرابطين فاتحين إفريقية قد فقدوا كل
قواهم وكل منعتهم ؛ واشتد ساعد المهدي ، وأخذ يدعو علي بن تاشفين إلى الخضوع ؛
وقد الرابطون أنفسهم كل ثقة في جيوشهم . ولما سار أخو علي الأمير الشجاع
أبو الطاهر تميم ، الذي اشتهر في اسبانيا بحروبه ضد النصاري ، على رأس جيش
جديد لقتال الموحدين ، ركن جنده في الليل إلى الفرار قبل أن يبدءوا لهم العدو ،
وهلك كثير منهم تحت جناح الظلام في مفاوز ووهاد عميقة ، ولما هم لوخاضوا القتال
بشجاعة لنجوا .

(١) راجع الحلال الموشية ص ٧٩ ؛ وقد أورد من أصحاب المهدي أربع طبقات آخر ، هم
أهل جنتسة ، فأهل هنتاة ، فالجند ، فالنزاة والرامة ؛ ولكن المؤلف أجمل هذه الطبقات
في الطبقة العاشرة .

وعمد المهدي بمد هذه الانتصارات المتوالية — التي يرجع معظم الفضل فيها إلى تمصّب الموحدين — إلى مدينة تينال فخصنها وجعلها قاعدته ؛ وسير منها البموث إلى مراکش تميت في أراضيها ، وتنزل بالمرايطين ويلاّت تجل عن الوصف ، ولا يستطيعون لها انتقاما . ولم يكتف المهدي بذلك ، واعتقد عندئذ أنه يستطيع غزو العاصمة الرابطية ، وتحطيم سلطان علي . ولما كان يومئذ مريضا طريح الفراش ، فقد عهد بالقيادة إلى وزيره أبي محمد البشير ، فسار إلى مراکش على رأس جيش قوامه أربعون ألف مقاتل ؛ ومع أن علي بن يوسف ساق للدفاع عن عاصمته مائة ألف مقاتل ؛ فقد لقي على يد الموحدين المتمصّبين هزيمة شنيعة ؛ وبدأ الموحدون في الحال حصار مراکش .

وبدا لأول وهلة أن مراکش مع ما أصاب المرايطين من الهزيمة والانحلال ، لا تستطيع بالرغم من حاميتها الكبيرة المؤلفة من أربعين ألف مقاتل أن تقاوم العدو طويلا . ولكن ما تلقاه الرابطون من عون محمد وإلى سيجلماسة ونصارى الحرس الخاص قوى عزائهم ، وخصوصا عندما التقى نصارى الحرس خارج المدينة بقوة من الموحدين فهزموها ودلوا بذلك على أن الموحدين ليسوا من النعمة كما بدوا . وعلى أثر ذلك نشبت معركة قاتل الرابطون فيها كالأسود ذا كرين أيام نصرهم السابقة ؛ وقتل خلالها قائد الموحدين الشجاع أبو محمد البشير أعظم قواد المهدي ، وسقط معه في الميدان معظم جنده (سنة ٥١٩ هـ — ١١٢٥ م) . وقاد فلول الجيش عبد المؤمن بن علي أحد العشرة ، وارند نحو أغمات وهو يشترك مع مطاردية في معارك مستمرة ؛ وسقط خمسة آخرون من العشرة في ذلك الارتداد ؛ ولما وقف المهدي على أنباء هذه الهزيمة أبدى ارتياحه حينما علم أن عبد المؤمن لا يزال حيا ، وقال : إذا فقد بقيت الغلبة لنا ^(١) .

ولم يترتب على فوز المرايطين على الموحدين أن أنقذت العاصمة فقط ، بل

(١) هذه عبارة المؤلف ؛ ولكنها وردت في الحلل الموشية كما يأتي : « ولما وصل الفل إلى المهدي وفيهم أربعة من أصحابه وعبد المؤمن معهم ، وجدوه بتينال مريضاً ، فقال لهم أسلم عبد المؤمن ، قالوا نعم ، قال منذ عاش عبد المؤمن بقى » (ص ٨٦) .

ترتب عليه بالأخص أن عاد كثير من القبائل المنشقة إلى الطاعة ، واستطاع على بعد أن أغفل شئون الأندلس مدى حين أن يعود إلى العناية بها . وكان ألفونسو الأرجونى قد قام فى ذلك الوقت بفزوته ضد غرناطة ، وبدأ النصارى المامدون والمسلمون أنفسهم يحاولون التلمص من نير المرابطين المرهق ؛ فعمل على تفريب معظم النصارى المهادين إلى إفريقية ^(١) ، وقامت الحاميات القوية فى المدن بكبح جماح المسلمين ؛ وبمث على ولده تاشفين بجيش جديد إلى الأندلس لكي يقاتل النصارى وليشغل بذلك اهتمام المسلمين . وقد فصّلنا أخبار هذه الفزوة فيما تقدم .

وفى أثناء ذلك أنفق الموحدون فى قلعهم النيمة تينال ثلاثة أعوام فى التآهب لاستئناف الحرب ، وظهرت خلال ذلك قوة نفوذهم وما تكنه القبائل لهم من الإخلاص ؛ وأدرك على نفسه أن الماصفة التى تنذر باجتياح ملكه لم تحب بعد ، فعمل منذ هزيمته لأعدائه على تحصين مراکش وإعدادها للدفاع .

ولما أرسل المهدي -- وكان لا يزال مريضاً -- عبد المؤمن إلى الميدان على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل عادت القبائل المنشقة عليه إلى طاعته ، وهزعت إلى لواء عبد المؤمن فبلغت قواته مبلغاً عظيماً ، واستطاع أن يلقى جيشاً من المرابطين قوامه مائة ألف مقاتل بقيادة الأمير أبى بكر بن على ؛ وبعد قتال دام ثمانية أيام نشبت فيه عدة معارك انتصر الموحدون على المرابطين كركة أخري ؛ وطارد الموحدون أعداءهم حتى أبواب مراکش ، وضربوا الحصار حولها مرة أخرى (رجب سنة ٥٢٤ هـ - ١١٣٠ م) ؛ ولكن عبد المؤمن اعتبر بما وقع للموحدين فى الحصار الأول ، فاكتمى بنصره وعاد بجيشه إلى تينال .

وكان المهدي قد اشتد به المرض والضعف ، فجمع من حوله صحبه وودعهم وداعاً مؤثراً شاعراً بدنو أجله . وتختلف الرواية العربية فى أمر موته ، فالبعض يقول إنه توفى بعد ذلك بقليل فى شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ (سبتمبر سنة ١١٣٠) ،

(١) راجع المامش الخامس بذلك فى ص ١٥٧ .

والبعض يقول بأنه عاش طويلا بعد ذلك ، أو على الأقل بأن الشعب قد حمل على الاعتقاد بأنه ما يزال على قيد الحياة^(١).

وكان أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدي ، متوسط القد ، أسمر اللون ، خفيف المراضين ، أسود الشعر ، جميل المينين ؛ وكان وافر الفصاحة واسع المعرفة ؛ وكان في حياته الخاصة كثير التقشف والزهد ؛ بيد أنه كان صارما سفاكا للدماء ، يستبيح دم أعدائه ودم أسدقائه إذا لم يصدعوا في الحال بأمره ؛ وكان إذا أراد البالغة في عقاب أحد أمر بدفته حيا ؛ وكان يذكي حماسة جنده بما يمدم به من عظيم الثواب في جنات الخلد التي تنتظرهم إذا استشهدوا في سبيل الدين الصحيح ؛ وكان يلقيهم صلوات صميرة يتلونها في الحرب في الذهاب والوقوف والقتال ، اقتصادا في الوقت ولكيلا يضطروا إلى الركوع والسجود كما يحدث في الصلوات المعتادة ؛ وهكذا كان المهدي يدفع بأصحابه إلى الحرب يحدوهم التمسب والبراعة ؛ وكان نصيبه الفوز^(٢).

٢ — حروب الموحدين بقيادة عبد المؤمن ضد علي بن يوسف

ولما توفي ابن تومرت ، اجتمع الأئمة الأربعة الباقيون من العشرة ، وجماعة الخسنيين ، وجماعة السبعين لانتخاب زعيم جديد ؛ فاجتمعت كلمتهم جميعا ، على أنه ليس أجدر بهذا المنصب من عبد المؤمن أحد العشرة ؛ فقد اصطفاه المهدي كأول تلاميذه وأخلصهم ، وأخذ وزيره ، وندبه للصلاة مكانه ، وعهد إليه بأمر دفته ، وكثيرا ما صرح بأنه ما دام عبد المؤمن على قيد الحياة ، فلا خوف على سلطان

(١) تنفق معظم الروايات الإسلامية على أن وفاة المهدي كانت في رمضان سنة ٥٢٤ هـ على اختلاف في يوم الوفاة ، فالبعض يقول إنه يوم ١٣ رمضان ، والبعض يقول إنه ١٤ رمضان ، والبعض يقول إنه يوم ٢٥ رمضان . وفي الحال الموشية أنه لا توفي المهدي كتم أصحابه موته مدى حين (راجع روض القرطاس ص ١١٧ والحلل الموشية ص ٨٦) ، ويقول ابن خلدون إن وفاة المهدي كانت سنة ٥٢٢ هـ (ج ٦ ص ٢٢٩) .

(٢) راجع وصف المهدي وخلال وخلاصة تملية في روض القرطاس ص ١١٧ و١١٨ . ونسر الأستاذ لافي بروثنال مجموعة من النبد والقصص المتعلقة بتعاليم المهدي ورسائله منسوبة لابن البيدق تحت عنوان : Documents inédits d'Histoire Almohade .

الموحدين ، وقد أبدى عبد المؤمن في الحرب أيعا براعة ، وكان هو المنقذ عند المحنة ، وهو الظاهر دائما كلما قاد الجيش ؛ فهذه الخلال البديمة التي لم تتوفر في غيره كما توفرت فيه ، تجعله خير أهل للزعامة ؛ فأجمعوا في الحال على اختياره زعيمهم وسلطانهم المطلق ، ولقبوه بالخليفة وأمير المؤمنين ، وأقسموا له بين الطاعة ، مبتدئين بالثلاثة العشرين فجاعة المسلمين ، فجاعة السبعين ، وتلاهم باقي الصحب والأنصار من الموحدين .

وقد رويت رواية أخرى عن تولية عبد المؤمن الزعامة لا يمكن الإغضاء عنها تماما ؛ وخلاصتها أن المهدي توفي عقب هزيمة الموحدين الأولى ، ولم يعلم بموته سوى عبد المؤمن ؛ فحرص على إخفاء موته ، ولبت مدى ثلاثة أعوام بديرشؤون الحكم باسم المهدي ، كأنما هو حي ؛ ولما كان يعلم أن زملاءه الباقين من العشرة لهم أن يطمحوا مثله إلى الزعامة ، وكان يخشى أن تنهار المملكة من الخلاف والحرب الأهلية ، فقد رأى أن يضمن الولاية لنفسه بحيلة بارعة ؛ فربى أثناء قيامه بالحكم شبلا ، روضه حتى صار أنيسا كالسكب ، ودرب عصفورا على أن ينطق بالعربية بهذه الكلمات : « النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، سند المملكة وناصرها » ؛ ولما تم تدريب المصفور على أن ينطق بهذه الكلمات نطقا صحيحا ، وروض الأسد على أن يقوم بجميع ضروب الخضوع والطاعة لسيده ، ابتنى عبد المؤمن في ظاهر تينال قاعة كبيرة ، واتخذ جميع التحوطات التي تمكنه من استعمال الأسد والمصفور ؛ ودعا شيوخ الموحدين وأكابرهم إلى الاجتماع ، وجلس في الصدر في مكان عال ، ونى المهدي إلى الحضور بين مظاهر الحزن العميق ، وقال إنه أعرب في كلماته الأخيرة عن أمنيته في أن ينبذ الموحدون أهواءهم ومصالحهم الشخصية ، وأن يختاروا من بينهم رجلا واحدا يولونه الزعامة والسلطان المطلق . ولما انتهى من مخاطبة الحضور بذلك ، وساد الصمت العميق ، إذا بناطق ينطق فجأة بهذه الكلمات بلسان فصيح ، وكأنما نزل من السماء : « النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، سند المملكة وناصرها » ، وفي الوقت نفسه

فتح عبد المؤمن باباً خفياً كان يحجب الأسد ، فانطلق بين الحضور مزججراً ، وهو منغوش الشمر ، مكشراً عن أنيابه ، رافعاً ذنبه ، وعيناه تقدحان بالشرر ، فذعر الحضور وارتعدت فرائصهم ؛ وبادر عبد المؤمن إلى الأسد ، فأنس إليه في الحال بين دهشة الحضور ، وأخذ يلمق يديه في هدوء ؛ ولما رأى الموحدون هذه المعجزة لم يترددوا لحظة في اختيار ذلك الذي دعاه الوحي إلى الرياسة ، لهم خليفة وزعيما ، ويأبىوه في الحال على الطاعة ؛ وبقي الأسد من ذلك اليوم رفيقاً لعبد المؤمن مثل الكلب الوفي ، يرافقه حتى في المسجد أثناء الصلاة . وكانت ولاية عبد المؤمن الخلافة في سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ؛ وتسمى من ذلك الحين « بالأمير بأمر الله » (١) .

ورأى عبد المؤمن في الحال أن يمكن لسلطانه بالأعمال الحربية الباهرة ؛ وأخذ خلال أعوام قلائل يسير من نصر إلى نصر ، ومن فتح إلى فتح ؛ ولبت حيناً أمام أسوار صرا كش محاصرها ، واشتد ساعده بمن انضم إليه من القبائل التي انشقت على المرابطين ، وأخذ نجم المرابطين في الأفول يوماً بعد يوم ؛

(١) ورد في روض القرطاس أن بيعة عبد المؤمن الخاصة كانت في سنة ٥٢٤ هـ ، وبيعته العامة في سنة ٥٢٦ هـ (س ١٢١) وفي الحلال الموشية أن بيعته كانت سنة ٥٢٤ هـ (س ١٠٧) ويقول ابن خلدون إن وفاة المهدي كانت سنة ٥٢٢ هـ ، وإن عبد المؤمن وأصحابه كتبوا وفاة المهدي ولبثوا يباشرون الأمور باسمه حيناً . ثم اختاروا عبد المؤمن للولاية (ج ٦ ص ٢٢٩) ، وفي الاستقصاء أن ولايته كانت سنة ٤٢٦ هـ (س ١٥٩) ، ويقول المراكشي إن المهدي اختار عبد المؤمن لولاية عهده قبيل وفاته وحث أشيخان الموحدين على اختياره (س ١٠٨ و ١٠٩) ، ويورد صاحب روض القرطاس رواية الأسد والصفيور وما إليهما مفصلة ، وهو في الواقع مرجع المؤلف في معظم ما يورده في هذا الفصل (س ١٢٠) ، ويورد في ذلك أيضاً أبياتاً لشاعر اسمه أبو علي نقلها المؤلف في تعليقاته مترجمة للاتينية (ج ١ ص ٤١٣) وهذه هي :

أنس الشبل ابتهاجا بالأسد ورأى شبه أيه فقص
ودعا الطائر بالنصر لكم فقصى حقم لما وفد
أنطق الخائف مخلوقاته بالشهادات فكل قد شهد
إنك القائم بالأمر له بعدما طال على الناس أمد

ووردت قصة الصفيور والأسد وهذه الأبيات في الحلال الموشية (س ١١٣) ، ولكن بصورة أخرى ولتناسبة لا علاقة لها بتولية عبد المؤمن .

ومنسبت خزائن على بما أسابه من الهزائم المتوالية ، وفقد الولايات والمدن وما تكبده في الحرب من نفقات باهظة ؛ وترتب على نقص عدد رعاياه أن زاد عبء الضرائب ، فبث ذلك روحا من السخط في الجهات التي بقيت على إخلاصها ، هذا إلى أن الشعب فقد عندئذ كل شجاعة ، وفقد كل ثقة في المرابطين .

واتخذ عبد المؤمن لقب أمير المؤمنين ؛ وفي العام الرابع من ولايته أمر بسك نقود جديدة ، جعلت مربعة الجوانب تميزاً لها من نقود المرابطين ؛ ونقش على أحد وجهيها ما يأتي : « لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة بالله » ، ونقش على الوجه الآخر : « الله مولانا ، ومحمد رسولنا ، والمهدى إمامنا » .

ولما توغل عبد المؤمن في فتوحاته ، واشتد الخطر على المرابطين ، دعا على ابنه تاشفين — وكان بالأندلس يقوم بمحاربة النصارى بمزم ، ويحرز النصر عليهم أحياناً — إلى إفريقية ، ليعاونه في شؤون مملكته المضطربة ، فكان الداء بذلك أشد وأنسكى ، لأن الولايات الأندلسية التي بقيت تحت سيادة المرابطين ، كانت منذ بعيد تعاني من غطرسة ولائها الإفريقيين وظلمهم ؛ وكان أبو الطاهر تميم ، وتاشفين قد استطاعا بكثير من الجهد والحكمة والرفق أن يكبحا جماح الثورة في مدن الأندلس ، وفي المدن الشرقية . فلما غادر تاشفين الأندلس ، نفذ صبر الأندلسيين مما يعانونه من فداحة الضرائب وعسف الولاة ، وقامت الثورة على المرابطين في معظم المدن ، وكان سلطانهم قد اضطرب في إفريقية تحت ضربات الموحدين ؛ ولما عاد تاشفين إلى مراکش اصطحب معه صفوة الجند للمرابطيين ، هذا إلى أربعة آلاف من النصارى المهادين الذين تمرسوا في الطعان والفروسية ، جعلهم جزءاً من حرسه الخاص ؛ وكانت التجارب المحزنة قد دلت على أن النصارى الذين يجهلون تعاليم المهدى الدينية ، هم أفضل في مقاتلة الموحدين من الفاربة المسلمين الذين كان معظمهم يرى في المهدى نبيا ورسولا . على أن تاشفين لم يكن أسعد حظا في مقاتلة عبد المؤمن من القواد السابقين الذين قادوا المرابطين إلى مقاتلته ؛ فقد دارت عليه الدائرة في جميع المواقع التي نشبت بالرغم من ضخامة

قواته ، وأصيب بخسائر فادحة ؛ وهكذا رأى على أمله الأخير الذى علقه على براعة ولده الحربية ، ينجو ويتبدد ؛ وعجلت الأحزان والهموم أجل الملك الشيخ ، فتوفى بقصره فى مراكنش فى رجب سنة ٥٣٧ هـ (فبراير سنة ١١٤٣ م) وهو فى التاسعة والخمسين من عمره ، بعد حكم دام زهاء منبعة وثلاثين عاما ، يمدبه الاعتقاد بأن سلطان أسرته غدا على وشك الانهيار ؛ وأخفى موته مدى ثلاثة أشهر .

٣ — حروب تاشفين مع عبد المؤمن

نقله على العرش تاشفين أكبر أولاده ؛ وبأيمه على الطاعة كبراء المملكة ووفود الولايات التى لم يملكها الموحدون بعد ؛ وبعث بولايته إلى حكام الأندلس مثل أبى زكريا يحيى بن غانية ، وعثمان بن أخصى ، وعمره على بن أبى بكر ، فبعثوا إليه فى الحال بطاعتهم ، ودعى له فى الصلاة بمساجد الأندلس .

وفى تلك الأثناء ، كان عبد المؤمن يخرج من معاقله الجبلية بين فاس وتلمسان ويشخن فى البسائط ، ويلحق بالرابطين أعظم الخسائر ؛ واستطاع تاشفين ذات مرة أن يظفر بقسم من جيش الموحدين وأن يبيده ؛ فاضطر عبد المؤمن من جراء هذه الخسارة أن يلجأ إلى جبال الأطلس الوعرة ؛ ذلك لأنه كان يخشى أن يستمين أعداؤه بكثرتهم على تطويقه فى السهل ، سيما وأن قوته من الفرسان كانت ضئيلة بالنسبة لقوى المرابطين ؛ وكانت قوى تاشفين تزداد تباعا ، وتفد إليه القبائل التى دعيت إلى ميدان الحرب من أوطانها النائية من كل صوب ؛ فلما تكاملت قواته ، سار فى أثر عبد المؤمن ، وكان عبد المؤمن قد ارتد صوب تلمسان ؛ وجمع فى الجبال كثير من المؤن ، هذا بينما كان المرابطون يعانون من جراء نقصها أيا عناء ؛ ولما دخل الشتاء ، حل بهذه الأنحاء برد قارس لم يمهده مثله ، واضطر تاشفين فى هذا السهل الأجرد ، أن يحرق الأكواخ والخيام ، والقش ، والحراب ، والسروج ليتدفأ بها الجيش ؛ فلما انقضى الفصل واعتدل الجو ، أطلق عبد المؤمن جنده من الجبال صوب تلمسان لى تشخن فى بسائطها .

وكان تاشفين قد عانى طويلا من قلة المؤن ، فبذل جهده لحمل عبد المؤمن على الخروج من الجبال وإرغامه على الاشتباك في معركة ، وأرسل قسما من جيشه إلى الجبال لكي يطوق الأعداء من الجانبين ؛ ولكن عبد المؤمن فطن إلى محاولته ، فانقض بجيشه كالبرق على الحملة التي أرسلها تاشفين ، وكان هؤلاء لا خبرة لهم بحرب الجبال ، فهزمها ومزقها ؛ ثم انحدر من الربى بشدة وعنف إلى السهل حيث كان الرابطون يرمقون زملاءهم الفارين بجزع ؛ ومع أن الرابطين كانوا يثبثون على أعدائهم في الكثرة أيعا تفوق ، فإن الموحدين سرعان ما أحرزوا النصر ، وركن جيش تاشفين إلى الفرار في اضطراب عظيم ، وطارد الموحدون فلول الجيش الرابطي إلى مدى بعيد .

ولو حقت مثل هذه الهزيمة على أمير غير تاشفين ، أقل منه عزما وهمة ، لخبث كل شجاعته ؛ ولكن الهزيمة بالعكس شحذت عزمه ، وضاعفت همته ؛ فطلب إلى الولايات التي أنهكتها الحرب أن تبذل جهوداً أخرى ؛ ودعا ولي عهده أبا اسحق إبراهيم من الأندلس حيث كان يشرف على شؤونها ، فعاد إلى إفريقية ومعه من بقي من الرابطين وأربعة آلاف فارس من النصاري المهادين ؛ ولم يمض سوى قليل حتى استطاع تاشفين أن يسير إلى قتال الموحدين في جيش آخر أوفر عدداً وعدة من جيشهم ؛ وكان عبد المؤمن قد امتلأت نفسه كبرياء وثقة بما أحرز من نصر متوال ، فلم يتردد في لقاء الرابطين ؛ ونظم قواته للحرب تنظيماً بديعاً في شكل مربع ضخم ، فوضع في الصفوف الأولى أشجع جنده من حملة القنا الطوال والطوارق السائمة ، ومن ورائهم رماة النبال والأسهم ؛ وجعل في وسط المربع قوة الفرسان ، وأفسح لها في كل ناحية مخرج تستطيع أن تخرج منها مهاجمة العدو كما لو كانت في قلعة . وذلك حتى لا تخل بنظام المشاة^(١) .

وهجم الرابطون على أعدائهم بشدة ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف

(١) ورد في الحلال الوشعية وصف لهذا التنظيم الحربي الذي وضعه عبد المؤمن لقواته

الموحدين النيسة ، التي شهرت حزابها ، وقابلت المهاجرين بوابل عنيف من القذائف ؛ ولما استنفد الرابطون قواهم في تلك المهجمات العقيمة ، برز إليهم فرسان الموحدون من الصفوف الداخلية لربهم الحربى ، وانقضوا عليهم بشدة ، فارتدوا بلا نظام ، وحقت عليهم الهزيمة ، وفر تاشفين مع فلول جيشه إلى قلعة تلسان ؛ ولكن عبد المؤمن تبعه إليها ؛ فبم لقوره شطار وهران ، ومضى ثغر يستطيع عند الحاجة أن يفر منه إلى الأندلس ؛ وكان قد بعث إلى حاكم أورية أن يبعث إليه بمئزر سفائن إلى وهران لكي تحمله وخزائنه وحاشيته إلى الأندلس ؛ ولكن عبد المؤمن استمر في مطاردة الجيش المهزم ؛ فما كاد تاشفين يفاذر تلسان حتى طوقها الموحدون ، وسار عبد المؤمن في قسم من جيشه في أثر سلطان المرابطين الفار إلى وهران ، وبدأ في الحال بحصارها وقطع علائقها مع قلعة الميناء ، وأمل تاشفين أن يستطيع مع ذلك أن يفر تحت جناح الظلام من المدينة إلى الميناء دون أن يفتن إليه الأعداء ؛ ولكن شاء طالع السوء أن يسقط بفرسه أثناء فراره من الربى إلى شاطئ البحر ؛ وفي الصباح وجد الفارس وفرسه ميتين على الشاطئ . ومن الطبيعى أن تكون خاتمة تاشفين مستقى لكثير من الروايات المتعلقة بموته ، وكلها متباينة متناقضة . وأمر عبد المؤمن فسمرت جثة تاشفين إلى شجرة صفصاف واحتز رأسه وأرسل إلى تينال ليحفظ بها ؛ وبعد ذلك بثلاثة أيام استولى الموحدون عنوة على وهران (١) .

وكانت وفاة تاشفين بن على في نهاية عام ٥٣٩ من الهجرة (مارس سنة ١١٤٥) ولم يحكم سوى عامين وشهرين ، قضاهما في حروب مستمرة مع الموحدون أعداء أسرته الألداء .

٤ — إبراهيم آخر سلاطين المرابطين في إفريقية

وما كاد موت تاشفين يعرف في مراکش حتى بويع ابنه أبو إسحاق إبراهيم ،

(١) راجع الحلل اللوشية ص ٩٩ و ١٠٠ ، والراكنى ص ١١٢ و ١١٣ ، وروى القرمطاس ص ١٢٢ .

وكان قد اختير وليا للمهد في حياة أبيه ؛ ولكن نار عليه عمه إسحاق بن علي ، وكان يطمح إلى انتزاع العرش لنفسه ؛ وهكذا مجلت الثورة حول العرش بسقوط دولة المرابطين التي بدا انهيارها واضحا في الأفق .

وفي تلك الأثناء تابع عبد المؤمن خطواته المظفرة بنشاط ؛ فبعد أن استولى على مدينة تلمسان الزاخرة بالرغم من مقاومتها العنيفة التي زهق فيها مائة ألف من سكانها^(١) سار إلى حصار فاس ، وهي أعظم مدائن المغرب بعد مراكش ؛ وتحطمت في البداية كل جهود المحاصرين أمام ثبات الحامية والسكان ، وكان الشرف على الدفاع عنها الأمير يحيى بن علي المرابطي وعبد الله بن الجياني الأندلسي ؛ ولم تنجح محاولة عبد المؤمن في أن يحطم جدرانها باطلاق المياه عليها ؛ وكان قد حجز مياه النهر الصغير الذي يشق المدينة بأقامة السدود ، ثم أطلقها على المدينة دفعة واحدة مؤملا بذلك أن يعاونه التخريب الذي يحدثه الماء على اقتحام المدينة ؛ ولكن عمى الماء حال بين الموحدين وبين دخولها ، واستطاع المحصورون إصلاح ما تصدع من الجدران^(٢) ؛ بيد أن الحيانة حققت ما لم تحققه القوة ، وذلت ما لم تقو العناصر على تذليله ؛ ذلك أن عبد الله الجياني الأندلسي اختلف مع يحيى بن علي ، وأزمع الانتقام منه ؛ ففتح للأعداء ما عهد إليه بجراسته من الأبواب (ذو القعدة سنة ٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م) ، وانضوى تحت لواء الموحدين ؛ وفر يحيى بن علي مع أسرته إلى طنجة ، ومنها إلى الأندلس ؛ وعلى أثر استيلاء الموحدين على فاس التي قتل معظم سكانها وهدمت جدرانها ، سقطت في أيديهم سراعا معظم المدن المغربية الأخرى .

ولم يترك عبد المؤمن للمرابطين فسحة من الوقت ؛ فأرسل جيشا إلى الأندلس لكي يخضع الولايات الأندلسية المضطربة لصولته ؛ وسار بنفسه إلى العاصمة

(١) الحلال الموشية ص ١٠١ .

(٢) راجع الحلال الموشية حيث يورد رواية مماثلة ؛ ويقول إن المدينة سنطت بالحجارة (ص ١٠١ و ١٠٢) ، ولكن صاحب روض الفرج يذكّر بالعكس أن محاولة عبد المؤمن في إنمراق المدينة قد نجحت ، وانتهت بسقوطها في يده (ص ١٢٣) .

(مراكش) ليضرب بافتتاحها سلطان المرابطين الضربة القاضية . وكانت مراكش يومئذ أواخر المدن الإفريقية سكانا^(١) ، وكانت تحميها سلسلة من الحصون القوية . وبلا طال أمد الحصار نظراً لما أبداه المحصورون من ثبات يحده اليأس ، ابتنى عبد المؤمن فوق رابية بالقرب من أبواب المدينة مدينة جديدة ذات مساجد وأبراج ، وذلك لكي يقنع المحصورين بأنه لن يعمل أو يقصر في الحصار ؛ ولم تفد هجمات المحصورين شيئاً ، وكانت تكلفهم كثيراً من الأرواح . وكان عبد المؤمن بعد أن أيقن بأنه ليس في الاستطاعة أن تؤخذ المدينة عنوة يؤمل أن يحقق كل شيء بالجووع ؛ وهو ما يقتضى حصر المدينة حصاراً دقيقاً ؛ على أن مراكش نظراً لضخامة سكانها لم تلبث أن شعرت بنقص الأقوات ، واشتد الأمر حتى أكلت الأطعمة الفاسدة والرديئة ؛ بل أكلت الجثث البشرية ، وأكل السجناء في السجن بعضهم بعضاً ؛ وأفضى الجوع والضيق والأمراض التي ترتبت على شنيع الأطعمة إلى موت كثير من السكان خصوصاً من الشباب والأطفال ، حتى فنى منهم في وقت قصير حسبما تؤكد الرواية العربية زهاء مائتي ألف نفس^(٢) . وكان الأحياء يطوفون بين الموتى كالأشباح ، وقد خارت كل عزائمهم وقواهم ، وساد على المدينة التي كانت بالأمس أهلة زاخرة ، سكون مروع كالسكون الذي يسبق العاصفة ؛ ففي تلك الآونة العصبية عمد الفرسان النصارى الأندلسيون حسبما قيل — وكانوا من أبرع فرسان إبراهيم ومن خاصة حرسه — إلى مداخلة الأعداء لتسليمهم المدينة بالخيانة ؛ وفي ساعة معينة فتحت أبواب المدينة التي كانت في عهدتهم للموحدين ، فدخلوها دخول الذئاب المفترسة إلى حظيرة الأغنام (شوال سنة ٥٤١ هـ — ١١٤٦ م) ، وكان الموت قد أتى على معظم سكانها ، وأضحى

(١) لعل المؤلف يقصد هنا بالمدن الإفريقية مدن المغرب فقط ، وإلا فقد كانت القاهرة المزية بلا ريب في تلك المصوركما في اليوم أعظم المدن الإفريقية عمراناً .

(٢) استقى المؤلف هذه التفاصيل فيما يظهر من الحلال الموشية (ص ١٠٣) ، وهي مطابقة في معظمها ، ولكن الرواية العربية تقدر هنا عدد الموتى من المحصورين بمائة وعشرين ألفاً فقط .

كالأموات من بقي منهم حيا ؛ ولم يلق الفزاة بالقصر حيث كان إبراهيم يدافع مع أشجع جنده سوى معارضة يسيرة . وغمر المدينة سيل مروع من الدماء ، واستمر من الصباح حتى المساء ؛ وأسر إبراهيم وأكابر الزعماء واقتيدوا خارج المدينة إلى حيث كان عبد المؤمن . وتأثر عبد المؤمن بادی ذی بدء بحزن الأمير ويأسه ، ولأح أنه عيّل إلى الإبقاء على حياته والاكتفاء بسجنه ، ولكن بطاقته أشارت عليه بأعدامه اتقاء الشا كل في المستقبل ؛ ولما غلب سلطان المرابطين بأسه وروعه وجنّا بلمس الحياة لم يجن من ذلك سوى الاحتقار والسخط ، وصاح به الأمير سير ابن الحاج وهو من قرابته : « لماذا تريد يامولاي أن تحط من قدرك وأن ترجو هذا البربري ؛ فلنمت جميعاً دون أن نبدي أقل بادرة من الضعف ، وإن الموت لخير من الحياة يهبها بربري »^(١) . فاستشاط عبد المؤمن لذلك غضبا ، وأمر بالأمير سير بجلد حتى مات ، وأمر بإبراهيم وأشياخ المرابطين فأعدموا ، واستمر القتل في مراكن ثلاثة أيام هلك فيها من سكان المدينة حسبا قتل ستون ألفا ؛ وهكذا كفر إبراهيم وهو في زهرة شبابه عن زلات آباءه ، ولم يحكم سوى عامين وبضعة أيام ؛ وبموته انتهت سيادة المرابطين ، وجلس الموحدون على عرشهم بعد أن شقوا لأنفسهم إليه طريقاً تنمره الدماء ؛ وأخذت المدن والولايات التي لم تخضع بعد تنضوي تباعا تحت لواء عبد المؤمن ؛ وكانت الأندلس آخر من خضع بالرغم من أن عبد المؤمن كان قد أرسل لها جيشا قبل افتتاح مراكن .

والآن وقد أتينا على خاتمة المرابطين ، فلنلق نظرة سريعة على تاريخهم الذي لم يستكمل مائة عام ، فنرى أن قيام دولتهم (كما هو الشأن في دولة الموحدين) ، يرجع إلى جهود رجل متمصب أخذ بقسط من العلوم ، وقصد إلى تحسين عقائد قومه وأخلاقهم ؛ فبدأ عبد الله بن ياسين بأن أتى إلى قومه اللمتونيين بدين وشرائع حسنة ؛ واستطاع بما أصاب لديهم من التوقير والنفوذ ، أن يندو قائداً للبدو السذج

(١) وردت هذه الواقعة في الحلل الموشية بصورة أخرى ، وهو أن الأمير أبا إسحاق جعل يرغب لعبد المؤمن في إبقائه ، فتفل في وجهه الأمير سير بن الحاج أحد أشياخ المرابطين وقال له : « أترغب إلى أبيك وتشفق عليك . اصبر صبر الرجال » (ص ١٠٤) .

البواسل ؛ ثم قاد المرابطين إلى الفتوح ؛ وقادهم من بعده خلفه المختار أبو بكر بنجاح أعظم ، ووضع أبو بكر خطط مدينة مراکش وأتمها ابن أخيه يوسف ابن تاشفين ؛ وسرعان ما استطاع يوسف بذكائه وبراعته أن ينتزع الحكم من عمه ، وتظاهر عمه بالنزول إليه مختاراً عن سلطانهم . وأما ذاع صيت يوسف في الأندلس عقب فتوحه العظيمة في إفريقية ، وكانت الأندلس قد أشرفت على الفناء أمام ضربات ألفونسو السادس ، آثر الأندلسيون سيادة المسلمين على سيادة النصارى ، واستدعوا فاتح إفريقية لفتح شبه الجزيرة ؛ وأنقذت الأندلس في موقعة الزلاقة الشهيرة ؛ ولكن هزيمة ألفونسو لم تفض بحد إلى سقوط المملكة النصرانية : ذلك أن يوسف قبل أن يستطيع توجيه قواه لمقاتلة النصارى بنجاح اضطر أن يوجهها لمقاتلة أبناء دينه ، فانقلب من منقذ لهم من العبودية إلى مستبد بهم ، وليس أقل استحقاقاً لبغضهم من ألفونسو . ثم ترك يوسف لولده وخلفه على السلطان على معظم إفريقية والأندلس ، ووصل المرابطون إلى ذروة بأسهم في موقعة إقليش التي هزم فيها ألفونسو السادس وفقد ولي عهده . ولم يلبث أن سرى الفساد والاستهتار إلى بلاط على ، وأثارت غطرسة الحكام وعسفهم غضب الشعوب المحكومة ، وفقدت الأبررة الرابطة قدسها من جراء عدم مراعاتها للتقاليد الإسلامية ، ومهدت بذلك السبيل إلى أطماع مصلح جديد هو أبو عبد الله ، الذي زعم أنه المهدي المنتظر ؛ وأذكى على بهائونه وإغضائه في البداية جرأة أبي عبد الله فاستطاع أن يقف على هيبته ، ثم قضى عبد المؤمن على سلطانهم ؛ ولم يستطع تاشفين ولد على الشجاع أن يقف ظفر المرابطين ؛ فكان حظه أسوأ من حظ أبيه ؛ ثم ترك الملك بعد حكم قصير لولده أبي إسحاق إبراهيم فكانه لم يتلقه إلا ليفقده . وهكذا انهار في أعوام قلائل ذلك الصرح الباذخ الذي شاده في نصف قرن سلاطين أقوياء محبوبهم حسن الطالع .

الفصل الثالث

نهاية سلطان المرابطين ونهاية عصر الإمبراطورية

في اسبانيا

(سنة ١١٤٤ - ١١٥٧ م) - (٥٣٩ - ١٠٥٢ هـ)

١ - ثورة الأندلس على المرابطين

كان من المحتوم أن تحدث الحركات والحروب التي هزت إفريقية وأودت بسلطان المرابطين ، كذلك في اسبانيا ، ثورة واضطرابا وانتقلا في الحكم ؛ وكان الأندلسيون ومعظمهم من أصول الشام والبلاد العربية قد اعتادوا الحكم المستقل ، فلم يطيعوا ما جيل عليه الولاة المرابطون الإفريقيون من غطرسة وعسف ، ولم يركنوا إلى الطاعة إلا خوفا من القوى الراخرة التي يستند إليها الطغاة ؛ فلما اقتضت الحوادث الإفريقية سحب هذه القوى ، اضطربت الأندلس في الحال بالثورة من أقصاها إلى أقصاها ضد المرابطين ، واعتزم العرب أن يمحطوا نير المغاربة معتزين بذكري أسلافهم الذين أخضعوا المغرب كله لصولتهم .

وكان أول من أذكى ضرام الثورة في الأندلس أيضا طائفة دينية ترجع تعاليمها - مثل المهدي - إلى الغزالي الذي قضى المرابطون بتكفير كتبه ، ومنعت في الأندلس وألقيت إلى النيران أينما وجدت ؛ وكان عميد هذه الطائفة أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قيس ، وهو من أصل رومي ولد بمدينة شلب من أعمال الأندلس ، وكان أول أمره تاجرا ، ولكنه نظم الشعر وبلغ فيه شأوا ؛ وكان رجلا

واقف الذكاء والدهاء ، فأتخذ حياة النبي العربي (ص) نموذجاً ، وتشبه به في بعض أحواله ؛ فوهب جميع أملاكه وركن إلى العزلة حيناً ، ثم ذهب إلى المرية فدرس على أشياخها ، وعاد بعد ذلك إلى بلده شلب وأخذ يدرس كتب الغزالي المنوعة ؛ فلم يحض سوى قليل حتى التفت حوله جمهرة كبيرة من الطلاب ، فحمل نفسه لهم إماماً ، وبلغ من إعجابهم به وحبه لهم أن غدوا رهن أمره وإشارته . وفي أوائل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عقد دروسه ومواعظه بأشبيلية ، وحشد له تلميذه محمد بن يحيى الشلطيشي جمعا من التلاميذ والأنصار ، وسرعان ما ألقى ابن قسي قناع العلم والوعظ ، وظهر في ثوبه الحقيقي زعيما شعبيا ؛ والظاهر أنه لم يدع في البداية إلى الثورة على المرابطين ، ولكنه دعا الأندلسيين إلى أن يجمعوا من الأندلس دولة مستقلة كما كانت حتى تم انهيار سلطان المرابطين في إفريقية . وليس من المحتمل أن يكون المرابطون قد أيدوا ابن قسي في حركته كما تزعم بعض الروايات المريية الضعيفة .

وكان أول عمل حربي قام به أحمد هو استيلاؤه على حصن مارتلة (أو ميرتلة) النيس من أعمال الغرب (غرب الأندلس) استولى عليه الأندلسيون بالمفاجأة في صفر سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ؛ واتخذ ابن قسي قاعدة لحشد قواه وتنفيذ مشاريعه ، وأمدّه رفيق حدائمه وأخلص أنصاره أبو الوليد محمد بن عمر بن المنذر بقوات جديدة ؛ وكان أبو الوليد — وهو من أوجه أهل شلب — رجلا واسع المعرفة نافذ الكلمة ، وكان قد قسم ثروته الكبيرة بين الفقراء ، وعاش مدى حين على شاطئ البحر في عزلة يدرس كتب الغزالي ؛ ثم حالفه أبو محمد بن سيدراي ولد حاكم يابرة . وبذل هذان الزعميان جهوداً مدهشة لشد أزرا ابن قسي ومضاعفة شعبيته ، وتمكنيه من الاستيلاء على شلب ويابرة . وامتد ضرام الفتنة بسرعة البرق ، وبث نجاح الثوار ، وظفرهم بهزيمة المرابطين في ميدان الحرب وإخراجهم من القلاع ، الروع في قلوب حامية باجة ، فسلمت المدينة وارتدت إلى إشبيلية . وفي الحال أقيمت حكومة جديدة على رأسها أحمد بن قسي ، وولى على شلب محمد بن عمر ،

وعلى يابرة وباجة ابن سديري ، واستطاع هذان الرجلان بفضل وجهتهما ونفوذهما أن يوطدا دعائم الحكم في تلك الأنحاء ، ورأى ابن قسي أنه لا يقوى وحده على النهوض بالدعوة ، فأشرك معه صديقه محمد بن عمر في قيادة الجيش وفي الحكم ؛ وتلقب محمد بالقاب الإمارة ، فاتخذ لقب المميز بالله ، وبرعان ما وفدت إليه من اكسوبة وماردة اللتين انضمتا إلى الثورة أمداد من الجند ؛ فسار في قواته إلى سهول وادي يانة ، وافتتح قلعتي ولبة ولبله دون كبير مقاومة ؛ ذلك لأن سكان هاتين المدينتين كانوا يتوقفون إلى تحطيم نير المرابطين ، فسكان الخيانة بالأخص هم عون الثوار في الاستيلاء على لبله بمثل هذه السرعة .

وشجع هذا النجاح الثوار على القيام بمشاريع أعظم وأخطر ؛ فلم يحجموا بمد افتتاح لبله عن السير توا إلى مدينة إشبيلية بالرغم من ضخامتها وحصانتها ؛ وكان لابن قسي فيها جبهة من الصعب والأنصار ، فاستولى الثوار على حصن القصر وطلباطة والحصن الزاهر من أعمال شرفها ، وجنحت هذه المنطقة كلها إلى الانضمام إلى الجيش الثائر ، وكان يزداد عدده يوما بعد يوم ؛ ولم تحض أشهر قلائل حتى سقطت قلاع كثيرة أخرى ، وبسط الثوار سلطانهم على غربي الأندلس كله ؛ وهال امتداد الثورة على هذا النحو كبير قواد المرابطين في الأندلس أبا زكريا يحيى ابن غانية ، فحشد في الحال جيشا ليضع حدا لتقدم الثوار ، وليقمع الثورة إذا أمكن ؛ وكان الثوار قد استولوا على طريانة في ظاهر إشبيلية ، وأحاطوا بأشبيلية ذاتها ، ولكنهم ما كادوا يعلمون باقتراب المرابطين حتى ركنوا إلى الفرار على ضفاف النهر (وادي يانة) ، فأسرع ابن غانية في اللحاق بهم واضطرم إلى التوقف ، ومزق جموعهم في معركة دموية نشبت بين الفريقين فقتل منهم عدد وافر ، ولم تنج فلول الجيش المهزوم من الفناء المطبق إلا بالالتجاء إلى قلعة لبله .

وحاصر ابن غانية الثوار في لبله وفي شلب ، ولكن تفوق قواته الكبيرة على قوات خصومه الممزقة لم يفته شيئا ، هذا إلى ما كان يقاسيه أثناء الشتاء من قسوة البرد ؛ ثم إنه ما لبث أن جاءته الأنباء المزعجة ترى من كل صوب بقيام

الثورة في مختلف النواحي ، فرأى أن وجوده أئزم في بعض النواحي الأخرى من الغرب ، واضطر إلى رفع الحصار في الحال عن بللة وشلب^(١).

وما كاد أبو زكريا بن غانية يغادر قرطبة بجنده إلى إشبيلية حتى نشط خصوم المرابطين لمل المدينة (قرطبة) بعد أن ضعفت حاميتها على الانضمام إلى جانبهم ، ثم العمل على اجتذاب المدن الأخرى لتأييد القضية الأندلسية بعد أن تنحاز إليهم عاصمة الأندلس ؛ ووئب أبو جعفر محمد بن محمد على رأس المتآمرين ، وقتل قاضي المدينة ، ونادى بنفسه في المسجد الجامع أميراً على قرطبة باسم المنصور بالله ، وذلك في الخامس من رمضان سنة ٥٣٩ هـ (مارس سنة ١١٤٥ م) ، واشتد في مطاردة كل من لحقته ربة في الانحياز إلى المرابطين ؛ وفي الحال اضطرت الأندلس كلها بالثورة على المرابطين ، ورفّع علم الثورة في كل المدن ، وطُردت الحاميات المرابطية أو قتلت أو حوصرت في القلاع ، واضطر أبو محمد عبد الله بن غانية إلى بلنسية أن يفر منها بأهله تحت جنح الظلام كيلا بأسره الثوار ، وسار إلى شاطبة حيث كان لديه بعض الجنود ، وأقيمت في الحال حكومة جديدة عهد برياستها إلى القائد أبي عبد الملك مروان بن عبد العزيز (شوال سنة ٥٣٩ هـ - أبريل سنة ١١٤٥ م) ، فبادر إلى اتخاذ الأهبة لمحاربة وإلى بلنسية الفار في شاطبة^(٢).

وفي ١٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١٢ أبريل سنة ١١٤٥ م) أعنى لاثني عشر يوماً من ثورة قرطبة قامت الثورة في مرسية ، واختاف أهلها في البداية في أمر من يلي الحكم ؛ ثم فاز الحزب الذي يرغب في الانضمام إلى أمير قرطبة الجديد ، وقام

(١) فصل ابن الأبار في « الحلة السيرة » حوادث الحركة الثورية التي قام بها أحمد بن الحسين بن قسي ، وصاحبه محمد بن عمر بن المنذر ، ومحمد بن سيدراي تفصيلاً حسناً ، وأورد لنا نبذاً عن أشخاصهم وأعمالهم وشيئاً من نظم ابن قسي (راجع ص ١٩٩ و ٢٠٢ و ٢٣٩) وتحدث المراكشي في نبذة موجزة عن حركة ابن قسي ووصفه بأنه من أهل الفتن والشهوة (ص ١١٦) ، ولكن ابن خلدون لا يحدتنا عن هذه الحركة ويقول لنا فقط إن ابن قسي كان بحسن مارتلة حينما انهارت مملكة المرابطين ، وإنه دعا إلى الموحدين وأوفد بطاعته إلى عبد المؤمن رسولا خاصا (ج ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٤) .

(٢) راجع في سيرة مروان بن عبد العزيز ، « الحلة السيرة » ص ٢١٢ وما بعدها .

القاضي عبد الله الطغرأى القوتبي وهو صديق لابن حمدين^(١) في جند المدينة يؤيد
رياسة أبي جعفر جعفر بن علي وولايته لقضاء مرسية ؛ بيد أن أبا جعفر كان رجلاً
وافر الطموح ، وكان يعمد في قتل الأسرى المرابطين ، فلم يكنف بهذه الولاية ،
واعتزم أن يحقق الاستقلال لنفسه ، فلم تمض أيام حتى نادى بنفسه أميراً على المدينة
باسم الناصر لدين الله ، وبسط حكمه مدى حين على مرسية وولاية تدمير بالرغم من
مقاومة بعض الزعماء ، وتحالف مع مروان بن عبد العزيز أمير بالسية ضد المرابطين
الذين امتنعوا في قلعة شاطبة .

وكان الشاعر والفقير الأشهر القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أخشي^(٢) في
المرية أكثر وفاء لأمير قرطبة من قاضي مرسية ؛ فطرد المرابطين من المرية وفقاً
لرغبة ابن حمدين بعد أن قتل عدداً منهم في المارك التي نشبت بينه وبينهم ؛ بيد أن
القلعة بقيت مع ذلك في أيديهم .

ونار الشعب في مالقة في الوقت نفسه ضد واليها المنصور بن محمد بن المادي ،
واختار للرياسة أبا الحكم ، فالتجأ المرابطون إلى القلعة وامتنعوا بها حتى أرغموا
على التسليم بعد حصار دام سبعة أشهر في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ (سبتمبر
سنة ١١٤٥ م) .

ولما وقف زعيم المرابطين القائد ابن غانية على أنباء هذه الحركات المزعجة أدرك
أنه يستحيل عليه أن يعيد النظام ثانية إلى الغرب (غرب الأندلس) ، وأنه لا بد
أن يفقد المرابطون من جراء ثورة الأندلسيين ولايات بأمرها ؛ ومن ثم فقد عهد
إلى أخيه محمد الذي كان والياً لأشبيلية أن يسير في جنده وسفنه في الحال إلى
الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فيحتلها لكي يظفر بما يجأ إليه يقصد إليه عند
الفرار ، ولكي يتخذها من جهة أخرى قاعدة يستطيع منها أن يعمل على إخضاع
النفور الثائرة وردّها إلى الطاعة .

(١) يلاحظ أن اسمه الكامل هو أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن حمدين .

(٢) راجع في سيرة القاضي ابن أخشي « الحلة البيضاء » ص ٢٠٧ وما بعدها .

ولكن هذا الحرص أنفضى إلى خسارة جديدة فادحة ؛ ذلك أنه ما كادت السفن المقلدة للرابطين تغادر إشبيلية ، حتى نهض القاضي عيسى بن ميمون ، فبسط حكمه على الولاية كلها ، واستطاع بمؤازرة معظم سكان إشبيلية أن يستولى على المدينة ذاتها ، وسقط المرابطون الذين بقوا بالمدينة وأنصارهم صرعى غضب الشعب وبطشه .

أما الماصمة (قرطبة) فكانت نظراً لمنف أهلها وحدة نفوسهم ، تضطرم بشورة بعد أخرى ؛ وكان الشعب ينقسم شيعاً وأحزاباً ، وكانت الأهواء والأطباع تودى بكل إجراء يتخذ لصون النظام ؛ ولم يتمتع الأمير أحمد بن المنصور بالله بحكم قرطبة سوى أربعة عشر يوماً (حتى ١٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ) ، وفي أثناء ذلك عمد أنصار سيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود ، وهو الذي كان القيصر ألفونسو ريمونديز قد عوضه عن أملاكه في مرسطة بأراض في ولاية طليطلة إلى مداخل أهل قرطبة وإغرائهم بالوعود والمطايا على التخلي عن ابن حمدين ؛ ولما قدم سيف الدولة بنفسه إلى قرطبة على رأس قوة من الجند النصارى ، أمد به ملك قشتالة ، هرع الشعب المتقلب المشغوف بالجديد إلى تأييده ، وقد سحرته نسبته الملوكية ، وثروته الطائلة ، وخلال الباهرة ؛ وخُلع ابن حمدين وفر من قرطبة ، ونودي بسيف الدولة أميراً باسم المستنصر بالله ؛ ولكن روعة الاختفال بولايته لم تحل دون قصر سلطانه ؛ ذلك أن حكمه لم يطل حتى مثل حكم سلفه ، ولم يطل سوى ثمانية أيام ، لم يطق أهل قرطبة بمدها صبراً على عسف وزيره ابن شماخ ، وعلى منظر الجند النصارى ؛ فقتلوا الوزير واضطروا الأمير إلى الفرار ناجياً بنفسه ؛ ولجأ أولاً إلى حصن فرنجولس ، ثم قصد بعد ذلك إلى جيان ، حيث اعترف الشعب بولايته^(١) ، وكان من الواضح أن الذي أحدث هذا الانقلاب في الحكم هم شيعة ابن حمدين ، وكان يعاونهم في ذلك حزب الكبراء ، الذي يعمل لنصرة ثوار الغرب ؛ وكان هؤلاء الكبراء يمتزمون أن ينادوا بمحمد بن عمر شريك ابن

(١) راجع «الحلة السيرة» ص ٢٠٤ و ٢٢٥ .

قسي في الحكم ، أميراً على قرطبة ، وكان محمد مذ رفع ابن غانية الحصار عن لبلة قد سار بجنده صوب قرطبة ، بيد أنه ما كاد يقترب منها حتى علم بأن ابن حمدين قد سبقه ، وعاد إلى المدينة بفضل نصاره وهم جمهرة كبيرة (١٠ ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ - ٣ يونيو ١١٤٥ م) ، ونودي به للمرة الثانية أميراً على قرطبة بين مظاهر الفرح العام ، ولم يبق أمام محمد إلا أن يعود إلى الغرب ؛ وفي تلك الأثناء استطاع ابن حمدين ، بمعاونة أصدقائه وشيعته ، أن يبسط حكمه على رندة والأرك وشريش ، وشذونة وقونقة ، وكذلك مرسية لدى قصير ؛ أما ابن غانية فقد لبث في معظم قواته مشغولاً بإخماد ثورة الغرب ؛ وكانت غرناطة لا تزال أهم مدينة باقية في قبضة المرابطين وكان يقتتل من أجلها كل الأحزاب ، فشار الغرناطيون بتحريض شيعه ابن حمدين ، واضطرت الحامية المرابطية الضعيفة أن تلجأ إلى القلعة أو القصبه ؛ وأخذت الوقائع الدموية تنشب كل يوم بين المحاصرين والمحصورين ، وقتل القاضي أبو محمد بن سماك زعيم الثوار في إحدى هذه الوقائع ^(١) ؛ فاختار الثوار للولاية مكانه أبا الحسن علي بن عمر بن أضحى قاضي ألمرية السابق ؛ وكان بالرغم من ولائه السابق للمرابطين ، قد أخرجهم من ألمرية ، وانضوى تحت لواء ابن حمدين ، واختار ابن حمدين لولاية ألمرية عبد الله بن مردنيش ؛ ومع أن ابن أضحى أبدى في غرناطة نشاطاً في مقاومة المرابطين ، فإنه لبث حيناً يتردد بين الانضمام إلى ابن حمدين ، والانضمام إلى سيف الدولة بن هود ، على أنه لبث يجمع الأمداد من كل ناحية ، وكان منها قوة على رأسها الأمير أبو جعفر وإلى مرسية ، حتى اجتمع لديه جيش قوامه اثنا عشر ألف مقاتل ؛ وجمع المرابطون أيضاً كل قواتهم بقيادة الأمير علي بن أبي بكر ، حفيد يوسف بن تاشفين ، واستطاعت الحامية المحصورة في غرناطة أن تنضم إليه ؛ ونشبت بين الفريقين معركة دموية ، سقط فيها أبو جعفر أمير مرسية ، ولجأ جنده وفلول الجيش المهزوم إلى الفرار في غير نظام ، واسترد المرابطون غرناطة ، ثم استردوا كذلك ألمرية بمد قليل .

(١) راجع «الحلة السراء» ص ٢٠٨ و ٢٢٥ و ٢٢٦ .

أما في مرسية ، فقد نودى ببعد الرحمن بن طاهر أميراً لها ، وذلك في ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٤٥ م) ، وكان ابن طاهر عالماً كبيراً ولاسيما في الشريعة والتاريخ ، كما كان زعيماً وقائداً مجرباً . بيد أنه كان قليل الطموح ، بعيداً عن الأهواء الشخصية ، ولم يفكر إلا في خير وطنه ؛ فرأى أن ينزل عن سلطانه المستقل ، وأن يدعو بالإمارة على مرسية لسيف الدولة بن هود ، الذي كان يمثل في نظره مجدد استقلال الأندلس ، واكتفى بأن يكون نائبه في الحكم . فاستاء لذلك أنصار ابن حمدين ، وغادر مرسية وفد من الكبراء إلى قرطبة لمفاوضة ابن حمدين ، فاستقبلهم بترحاب مؤملاً أن يسترد المدينة بماوتهم في أول فرصة ؛ وجهز قوة مسلحة ، وحاول أن يغري قادة جند ابن طاهر ، بيد أنه لم يكن من اليسور في هذا الوقت الذي سادت فيه الفوضى والانقلابات المتوالية ، وأضحى كل يبحث عن الرياسة والنفوذ لنفسه ، لأولئك الذين ظفروا بالحكم أن يعملوا على تقوية شيعتهم ؛ ذلك أنه كانت تقوم بلا انقطاع أحزاب جديدة ترمي إلى تأييد سلطان هذا الزعيم أو ذاك ؛ وهكذا ، فإن ابن طاهر لم يلبث على حكم مرسية سوى خمسين يوماً ؛ ثم نهض القاضي أبو محمد بن عياض على رأس قوة من الجند على حدود المدينة ، وكان الفريقان - فريق ابن هود وفريق ابن حمدين - يخطبان وده ؛ ولكنه آثر أن ينادى بنفسه في أريولة أميراً على مرسية ؛ وفي الحال سار إلى المدينة ودخلها دون أن يستطيع ابن طاهر أية مقاومة ، وذلك في الماشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (نوفمبر سنة ١١٤٥) ، واستقبله أهل مرسية الذين عرفوا بسرعة تقلبهم في فيض من الفرح والتأييد ، ولم يتعرض ابن عياض - بالرغم من مطالبة أنصاره بقتل ابن طاهر له - بأذى ، ولم يكتف بالبقاء على حياته ، بل رأى بذكائه وحكمته أن يتركه حراً في مرسية يعيش في سكينة ورغد^(١) . ولم تكن الحال في بلنسية أقل اضطراباً وفوضى ، فقد كان الحكم فيها عرضة للانقلاب المستمر ؛ ولما أخرج الرابطون منها ، واستولى الأعيان على الحكم ،

(١) راجع « الحلة السرياء » ص ٢١٤ .

دُعي أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز لولايتها ، فتولاها مرغماً لما يعرفه من تقاب الشعب ودسائس الأعيان . وكان الراباطون يخرجون من شاطبة فيشخون في الأنحاء المجاورة حتى أبواب بلنسية ، ويستاقون كثيراً من الأمري والمناج ، فجهز مروان الجند لقتالهم ، وسار إلى شاطبة ، واستطاع بمخالفة الأمير أبي جعفر وإلى مرسية يومئذ أن يستولى عليها بعد حصار دام عدة أشهر ؛ وأطلقت الحامية الراباطية لتسير إلى المرية ، وكانت قد عادت يومئذ إلى يد الراباطين ؛ وبسط مروان حكمه على شاطبة ، واليقنت ، وعدة أنحاء هامة أخرى ؛ ولما عاد إلى بلنسية دخلها في موكب حافل ، راكباً على جمل ، وقد ارتدى حلالاً فاخرة ، وتقلد أسلحة ثمينة ساطعة ، يحف به الأعيان وأكابر الفرسان ، وجموع الشعب الغفيرة من حوله تهتف هتاف الفرح (جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ — أكتوبر سنة ١١٤٥ م)^(١) . بيد أنه لم تمض أربعة أشهر حتى سئم سكان بلنسية أميرهم ، وأخذوا يفكرون في نزعهم من الحكم . ولقد قال بهذه المناسبة مؤرخ عربي : كان تأييد الشعب في تلك الأيام كثير الاضطراب حتى أنه ما يكاد يرفع إلى الحكم رجلاً تاق إلى إمارته حتى يسأله ويغضه ، ويرى في حكمه وفي خلاله ما لا يطاق ؛ وهكذا فإن أعيان المدينة وقضاة المدن المجاورة ، أعني اليقنت وليرية وشقر ومريطر وشاطبة وغيرها دعوا أمير مرسية الجديد ، أبا محمد بن عياض ، لكي يتولى أيضاً حكم بلنسية ، وأن يعمل على توحيد الكلمة بين شعبها الممزق ؛ وبينما كان مروان ابن عبد العزيز يحاول أن يعمل على مقاومة هذه الحركة ، ثار الشعب فاضطر إلى مغادرة قصره ، واختفى لدى بعض أصدقائه ، ثم تدلى من سور المدينة تحت جناح الظلام ، لكي ينقذ حياته بالفرار ، وقد استطاع النكود بالفعل أن يتقي مطاردة شعبه ، ولكنه ضل الطريق حتى لحق بجبال المرية ، وهناك سقط في أيدي الراباطين إذ عرفوه رغم تنكره وصفدوه بالأغلال ؛ بيد أنهم أبقوا على حياته ثم حملوه إلى ميورقة ، وهناك استطاع أن يفقد نفسه بمبلغ كبير من المال . ثم

(١) راجع « الحلة السراء » ص ٢١٤ .

قصده إلى سرا كش حيث عاش في كنف الموحدين ، وتوفي هنالك بعد حياة طويلة .
أما بلنسية ، فقد ندب ابن عياض لولايتها قريبه عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش ؛
وأما سيف الدولة أحمد بن هود ، فقد استطاع في تلك الأثناء وبعد أن أقصاه
خصومه عن قرطبة ، أن يستولي بمعاونة الجند القشتاليين على جيان ورنده وبياسة ،
وكان ابن جزى قاضي جيان يضطرم مثله بغضا للمرابطين ، فتحالفا معا ؛ وسار
ابن هود إلى غرناطة حيث كان القاضي أبو الحسن بن أضحى يحاول في كثير من
الدهاء أن يبدو صديقا حيا لجميع الأحزاب : المرابطين ، وحزب ابن جدين ،
وحزب سيف الدولة ؛ وخف القاضي إلى لقاء سيف الدولة راجلا مبالغة في تكريمه
ودعاه مع ولده عماد الدولة إلى منزله ، وأقام لهما مأدبة ، ولما قدم القاضي إلى ضيفه
بناء على طلبه ، قدحا من الماء ، بادر بعض الحضور إلى تحذير سيف الدولة من
شربه لأنه مسموم . وقد ظهر في الواقع أن القدح يحتوى على عصير برتقال ،
كان ممزوجا بسم حامض حلو المذاق ، يقتل من يجرعه . وفي بعض الروايات أن
القاضي شرب عندئذ من القدح ليدفع سوء المظنة عن نفسه فات مسموما ، ولكن
الواقع أنه توفي بعد ذلك ، وسوف نراه بعد ذلك مرارا يكافح ضد المرابطين ؛ أما
سيف الدولة فقد غادر المدينة خشية المواقب ، وسار لهاجمة قصبة الحمراء حيث
كانت بقية من المرابطين تمتنع بها ؛ ووثب المحصورون لمقاتلة المهاجمين مرارا ،
ونشب بين الفريقين عدة مواقع دموية لم يفد سيف الدولة شيئا منها ؛ وفي اليوم
الثامن استطاع المرابطون التغلب على خصومهم وألجأهم إلى الفرار ، وأسروا
عماد الدولة ولد الأمير ، وأخذوه إلى القصبة حيث توفي في نفس اليوم من
جراحه ، وأبدى المرابطون شهامة فوضموا جثة الأمير في نعش نمن على بالوش
المذهب ، مضمخ بأنواع السك وأرسلوه إلى والده لدفنه^(٢) ؛ وفاضت نفس الأمير
حزنا على ولده ، وسخطا على قصور الغرناطين وقتورهم ، فلم يلبث في غرناطة
وضواحيها سوى شهر ، ثم عاد إلى جيان ، بعد أن أيقن بمقم هيجاته ضد قصبة

(١) راجع قصة القدح المسموم في الحلة السراء ص ٢٠٩ .

(٢) راجع « الحلة السراء » ص ٢٠٨ .

الحمرأ ؛ أما أبو الحسن بن أضحي ، فقد بقى على حكمه المدينة ، وعقد مع الرابطين همدنة ، وأجاز لهم وفق رغبتهم ، في السفر إلى المنكب حيث ينحرون إلى ميورة أو إفريقية .

أما سيف الدولة فقد كان في مرسية وبلنسية أوفر حظا منه في غرناطة ؛ ذلك أنه دعى منهما لتولى الإمارة عليهما ، فسار إليهما في قوة من الجند النصارى ، ودخل مرسية في ١٨ رجب سنة ٥٤٠ هـ (يناير سنة ١١٤١ م) ، فبادر أمير مرسية وبلنسية القاضي ابن عياض ، والحاكم عليهما من قبله وهما محمد بن سعد ابن مردنيش وعبد الله بن سعد ، إلى مبايعته والخضوع له ، وأطاعته جميع البلاد الواقعة على الشاطئ من لورقة إلى مصب نهر إيبرو ؛ وازداد سيف الدولة ثقة بنفسه وقوته حتى اعتقد أنه يستطيع الاستغناء عن معاونه الجند النصارى ، وكان يقودهم ثلاثة من الكونتات هم إماليش وبونسيوس ومارتن ، وكانوا في تلك الأثناء قد افتتحوا جيان وبياسة وأبدة ، وأنحنوا في سكانها المسلمين ، فطلب إليهم سيف الدولة تسليم المدن المفتوحة ، وكذلك تسليم الأسرى والغنائم ، وأن يقفوا غزواتهم المخربة التي قاموا بها في أراضي المسلمين بالتحالف مع القاضي الطموح عبد الله الطغرأتى والى قونقة ، فيما بين شاطبة وأبدة ؛ ذلك لأنه لا يستطيع أن يسمح بأن يقوم النصارى بغزو المدن والأراضي التابعة له وتخريبها . ولما طال الجدل بينه وبينهم دون جدوى لجأ الفريقان إلى السلاح ؛ فسار الكونتات النصارى وحليفهم القاضي الطغرأتى الذى لم يمتزج بسيادة سيف الدولة في قواتهم ، — بعد أن حاصروا شاطبة عبثا — لمقاتلة قوات مرسية وبلنسية ؛ والتقت زهرة الفروسية الإسبانية والمسلمة في موقعة دموية في سهل « البسيط » على مقربة من جنجالة في ٢٠ شعبان سنة ٥٤٠ هـ (٤ فبراير سنة ١١٤٦ م) ، وأسفرت الموقعة في النهاية عن هزيمة المسلمين وفرارهم ، وأسرى سيف الدولة ، وقتله بعض الفرسان دون علم الزعماء النصارى مما أثار بالغ سخطهم ، وقتل عبد الله بن سعد في الموقعة (١)

(١) راجع تفاصيل هذه الموقعة في الحلة السراء ص ٢٢٦ .

وارتد ابن عياض في فلول الجيش إلى بلنسية ؛ وسار عبد الله الطغراني في جيش من النصاري إلى مرسية لمحاربة واليها محمد بن سمد بن مردنيش ، واضطر ابن مردنيش أن يخوض بقواته القليلة بمعركة ثانية مع قوات تفوقه في الكثرة ، وقاتل الفريقان بمنتهى الشجاعة ، ولكن الكثرة غلبت في النهاية ، وفر ابن مردنيش ناجياً بنفسه إلى اليقنت ، وترك مرسية دون دفاع تحت رحمة الظافرين ، فدخلها عبد الله الطغراني وبسط حكمه عليها ، وذلك في أوائل ذي الحجة سنة ٥٤٠ هـ (مايو سنة ١١٤٦ م) ، بيد أنه لم يستطع أن يحول دون تقدم حلفائه النصاري إلى المدينة ، وترتب على ذلك أن سحق عليه أهل المدينة لما يكونونه من بالغ حقد للنصاري ، ولم يوفق إلى استمالهم بالرغم مما بذله لإرضائهم ؛ وانتهز ابن عياض هذه الفرصة ، فسار في قواته الجديدة التي استطاع أن يحشدتها في بلنسية واستولى على مرسية ؛ ذلك أنه ما كاد يهاجمها حتى ثار أهلها وانضموا إلى القادمين في مهاجمة قوات القاضي عبد الله ، وكان استيلاؤه عليها في السابع من رجب سنة ٥٤١ هـ (ديسمبر سنة ١١٤٦ م) ، وكان عبد الله يقاتل بمنتهى الشجاعة ، ولكنه اضطر أخيراً إلى الفرار في نفر من أصدقائه ، وهرع أعداؤه في أثره يطاردونه ، وجفل جواده لحجر أصابه ، فألقاه من فوق ظهره ، وقبض عليه مطاردوه وقطموا في الحال رأسه ؛ وهكذا استطاع ابن عياض للمرة الثانية الاستيلاء على مرسية ، وقد عفا عمن كان من أهلها موالياً لعبد الله الطغراني ، ولكنه لم يرحم من بقي فيها من النصاري فأمر بقتلهم جميعاً ، وبسط ابن عياض حكمه مرة أخرى على جميع أراضي الشاطئ الواقعة بين لورقة ومصب نهر ابيرو ؛ ولكن أنصار عبد الله وحلفاءهم من النصاري لبثوا يسيطرون على المناطق الجبلية الواقعة بين قونقة واقليش وبياسة ممتنعين بإقلاعها ، بالرغم من كل الجهود التي بذلت لإخضاعهم .

٢ — تغلب القيصر ألفونسو بين محالفة الرابطين والأندلسيين

كانت حالة الأندلس تسوء من يوم إلى يوم وتزداد اضطراباً وفوضى ؛ فكانت الأحزاب تتكاثر ، وترتفع وتسقط ، وكان الولاة والحكام يسقطهم الزعماء الأصاغر متخذين من تغلب الشعب وسيلة إلى قلب الحكم بلا انقطاع . ومع أن مسلمى الأندلس كانوا يزمعون التخلص من النير الأجنبي ، سواء أكان نير الرابطين أم نير النصارى ، فانه كان ينقصهم الوحدة والتماسك ؛ ذلك لأن نضال الأحزاب فيما بينها كان يحول دون خضوع البعض للبعض الآخر . وكان سيف الدولة أحمد ابن هود أكثر الزعماء توفيقاً في نيل تأييد الأندلسيين ، ولا سيما منذ انقلب على النصارى فترك حلفهم ، وشهر الحرب عليهم ، ولكن خاتمته المحزنة دفنت بكل شيء إلى القوضى القديمة ، وعاونت الرابطين أنفسهم على النهوض .

وبينا كانت الأندلس تموج بالفتن والحروب الأهلية ، وتقدم إلينا — كالبحر الذى أثارته العواصف — صورة من غضب الطبيعة ، كانت دولة الرابطين فى إفريقية تسير إلى الانهيار أمام ضربات الموحدين وفتوحاتهم ؛ ولم يكن ثمة من الميسور عندئذ أن ترسل الأمداد إلى قائد الجيوش الرابطة العام فى اسبانيا أبى زكريا بن غانية ؛ وكان ابن غانية يقود قوات قليلة ، ويحيط به الأعداء من كل صوب ، ومع ذلك فقد استطاع أن يقوم بكل الممكن ؛ ولم يظفر فقط بأن وضع حدا لتقدم أحمد بن الحسين بن قسى فى الغرب ، واسترد الريّة وإشبيلية ، وبسط سلطانه على ميورقة وقرنطة وقرمونة ، وعدة أماكن أخرى يمكن أن تقدم قلاعها المنيعة إلى الرابطين عند الفرار ملاذاً أميناً ، ومنها يستطيعون الإغارة على الأندلسيين بلا انقطاع ، ولكنه استطاع بالأخص أن يستغل تفرق الأندلس وتطاحن زعمائها لتأييد مراكز الرابطين ببراعة . ولما رأى أحمد بن قسى أن ابن غانية كاد يقضى على الثورة فى الغرب ، بعث إلى أمير الموحدين عبد المؤمن رسولا ينبئه بأن سيادة الرابطين أضعفت على وشك الانهيار ، وأنه يدين بنفس العقائد التى يدين بها النزالي والمهدى ، وأنه قد تآمر ضد الرابطين ، وانتزع منهم كثيراً من أراضى الغرب ، وخاض معهم عدة وقائع ،

وأنه يقدم طاعته إلى أمير الموحدين ويدعوه إلى الجواز إلى اسبانيا ؛ فأبدى عبد المؤمن رضاه للرسول وعين الخائن لوطنه واليا على الغرب وذلك في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ (اكتوبر سنة ١١٢٥ م)^(١) ، وما كاد قائد الرابطين ابن غانية يقف على مسمى ابن قسى حتى بادر إلى الاستفادة منه في بث التفرق بين ثوار الغرب ، وانزعاع زملاء ابن قسى وأنصاره منه ، واستطاع أن يوغر سيدرأى صاحب يابرة ، ومحمد بن عمر صاحب شلب — وكانا يقودان أيضاً قسما من جيوش الغرب — غيرهما وحسداً على ابن قسى من جراء تحالفه مع الموحدين ، سيما وقد كان الموحدون يندرون بأن يصبحوا على الأندلسيين أشد وطأة من الرابطين . ثم إنه كان خليفاً بالرابطين وقد اضمحل خطرهم وشأنهم أن يبدوا للوطنيين الأندلسيين بالنسبة لغزاة إفريقية الجدد أصدقاء لا أعداء ، ومن ثم فإن سيدرأى وابن عمر لم يترددا في الانفصال عن زميلهما القديم ، والانضمام بقواتهما إلى الرابطين أعدائهما السابقين ؛ وقد أخذوا على أنفسهما أن يتوليا قتال ابن قسى ، وأنما بذلك الفرصة لابن غانية للسير بقواته ضد قرطبة .

ولما رأى أحمد بن قسى تفوق قوات أعدائه من حوله ، وقد تركه الموحدون دون عون ، ارتد في محفته صوب ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال أو كما تسميه الرواية البريية « الطاغية ابن الريق صاحب قلنبرية »^(٢) ، وطلب إليه العون ضد أعدائه ووعدته بالفنائم والهدايا الفخمة ، والظاهر أيضاً أنه تعهد بأن يدفع إليه الجزية

(١) يقول ابن خلدون إن ابن قسى كان صاحب مارتلة حينما أوفد رسوله إلى عبد المؤمن سنة ٥٤٠ هـ ويذكر لنا اسم الرسول وهو أبو بكر بن يحييس ، ثم يقول لنا إن الرسول لقي عبد المؤمن في تلمسان ، ولكن عبد المؤمن أنكر ما تضمنته رسالة ابن قسى من نعمته بالمهدى ولم يجاوبه (ج ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٤) . ولكن المراكشى (ص ١١٦) يقول لنا إن الموحدين حينما اقتحموا حصن مارتلة قبضوا على ابن قسى ونفوه إلى المغرب . ويقول ابن الأبار في الحلة السراء (ص ٢٠٠) إن ابن قسى هو الذي عبر إلى المغرب بنفسه ثم عاد إلى الأندلس محبة جيش الموحدين الذي عبر إليها .

(٢) راجع الحلة السراء ص ٢٠٠ والظاهر أن هذه التسمية ، أى « ابن الريق » إنما هي تحريف لاسم هنريكيز الذي يكتب بالإسبانية « انريك » Enrique ، وهو والد ألفونسو ملك البرتغال . وأما قلنبرية فقد كانت يومئذ عاصمة البرتغال .

كتابع له ؛ فلم يتردد ألفونسو في إجابته وبادر في قواته من الفرسان مختبراً أراضى باجة وماردة لإمداد حليفه وعاث فيها أليماً غيث . ونشبت بين الفريقين التحارين عدة وقائع دموية دون أن يحرز أحدهما نصراً حاسماً ؛ ولما حل الشتاء واشتدت وطأته (شعبان سنة ٥٤٠ - يناير سنة ١١٤٦م) عاد البرتغاليون إلى بلادهم مثقلين بالفنائم والتحف الثمينة ؛ بيد أن ابن قسي أثار بتحالفه المشين مع النصارى وتمهده بالخضوع للملك البرتغال احتقار أنصاره أنفسهم ، ونبذه أنصاره في قلعة ميرتلة التي كان يحاصرها أعداؤه ، واستطاع سيدراى أن يفتتح حصونها دون صعوبة ، وأسر ابن قسي وحمله معه إلى باجة وسجنه هناك ، ولكن صديقه الوفي عبد الله ابن على بن الصميل الذى افتتح باجة فيما بعد وفق إلى الإفراج عنه وإطلاق سراحه .

وكان اضمحلال سلطان المرابطين في إفريقية ، وتفوق قوى الأندلس عند اتحادها ، والعون الذى أقيه ثوار الغرب من ملك البرتغال ، ثم الماصفة التى تنذر باضطرامها مقدم الموحدين إلى اسبانيا ؛ كل هذه حملت قائد المرابطين الذى ترك دون عون من إفريقية ، على أن يسعى للحصول على مساعدة النصارى . وقد حصل عليها من القيصر ألفونسو أعظم أمراء اسبانيا ، وبذل في سبيلها بلا ريب وعوداً ضخمة ؛ وبدأ عندئذ أن سياسة الجزيرة تقتضى تعميق سيادة المرابطين التى كانت عندئذ في دور النزاع ، وذلك لإجباط الجهود التى يبذلها الأندلسيون في سبيل وحدتهم ، والوقوف في وجه الموحدين الأشداء الذين لاح مشروعمهم في الجواز إلى اسبانيا . وبعد أن قاتل النصارى بالتعاقب مع حزب سيف الدولة بن هود ، ثم عبد الله الطغراني ، ثم أحمد بن قسبي تحالفوا عندئذ مع المرابطين ألد أعدائهم من قبل ؛ وسارت القوى المتحدة صوب اندوجار وياسة وقرطبة ، وكان ابن حدين لا يزال أميراً عليها ؛ ولم يكن من الصعب على المرابطين — وقد أنجدهم فوق ذلك قوى محمد بن عمر التى سلخها من ابن قسي — أن يفتتحوا قرطبة والمدن المجاورة لها ، بيد أنه كان من الصعب أن يوحد الرأى بين هذه الجموع التى تفيض أثره وطمعا ، وأن يهدأ اضطرام الأحزاب في المدن ، وأن ترضى مطامع الجند

النصارى وخطرستهم التى لاحد لها . ودخل النصارى قرطبة بالرغم من ممانعة ابن غانية فى آخر شعبان سنة ٥٤١ هـ (أوائل سنة ١١٤٧ م) ، وأقاموا بمسجدها الجامع بين سخط المسلمين وارتياحهم قداساً حافلاً برياسة أسقف طليطلة ، وربطوا خيولهم فى أروقتة ، وتناولوا بأيديهم النجسة مصحف عثمان ، أقدم ذخائر الأندلس ، وأثاروا غضب الشعب باغراقهم فى سوء معاملته ، ولم يراعوا شيئاً من الشروط التى سلمت المدينة بمقتضاها . ولما وقعت المفاوضة حول قرطبة ومن يتولى حكمها ، ازداد الخلاف اضطراباً . ذلك أن القيصر الفونسو كان يطالب بها كتوبيض لها أنفقته فى سبيل الحرب ، وكان قائد المرابطين يرى بحق أن التسليم بهذا المطلب إنما هو حكم بالإعدام على حزبه ؛ ومن ثم فقد عرض على القيصر مقابل ذلك ، أن يأخذ بياسة ، وتحققاً كثيرة ، ومبالغ طائلة من المال ، وكذلك الطاعة وأداء جزية سنوية ، فرضى الفونسو بذلك بمجهود ، ولكن التفاهم ساء من ذلك الحين بين القيصر وبين المرابطين . ولقى ابن حمدين أمير قرطبة الخلع لدى النصارى مثل ما لقي خصومه من المون ، وازدادت بذلك الحوادث فى جنوبي إسبانيا اضطراباً وتمقيداً . ذلك أن ابن غانية حينما حاصر ابن حمدين فى حصن اندوجار حيثما لجأ ، أعلن ابن حمدين عندئذ خضوعه للقيصر ، واستطاع بذلك أن يستأجر منه جنوداً لمعاونته ، وقادها إليه — بأمر القيصر — قائده الدوق فرديناند ابانيز دى ليا .

ولما غادر النصارى قرطبة مثقلين بالغنائم ، ووضعوا فى بياسة حامية قوية بقيادة الكونت الماريش ، نار الجدل بين أبى زكريا بن غانية وبين محمد بن عمر صاحب شلب حول امتلاك المدينة ؛ ولما اختار القرطبيون رياسة ابن عمر ونادوا به أميراً عليهم ، لم ير ابن غانية مناصاً من التسليم ، ولكن سرعان ما أدرك الأمير الجديد أنه يستحيل عليه أن يحكم شعباً لا يستطيع بعد أن يروض نفسه على الطاعة ، وغدا يضطرم بالثورة بلا انقطاع من جراء دسائس الأحزاب ، فلم تمض عشرة أيام حتى نزل عن الحكم مختاراً وفر من المدينة قبل أن تحطمه الثورة

وسار إلى الغرب ، وهناك نشب النضال بينه وبين عبد الله بن الصميل صاحب ابن قسي ، حتى ظفر به عبد الله في إحدى المواقع فأمره وسمل عينيه ، ثم أخرجه الموحدون بعد ذلك من سجنه في باجة وحملوه إلى إفريقية حيث توفي في سلا في سنة ١١٦٣ م^(١) .

وكانت الأنبياء قد ذاعت في الوقت الذي افتتح الحلفاء فيه قرطبة وأخذوا الجدل يضطرم حول إمارتها ، بأن الموحدين قد جازوا إلى الجزيرة الخضراء ، وأخذوا يتقدمون فيها ، وكان ذلك من الأسباب التي حملت ابن غانية على ترك رئاسة قرطبة ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يفيد من هذا الظرف شيئاً .

٣ — جواز الموحدين إلى الأندلس وفتحهم الأولى فيها

في الوقت الذي كان زعيم الموحدين عبد المؤمن مشغولاً فيه بمحاصرها كس عاصمة المرابطين ، والقضاء بافتتاحها على آخر ملاذ لخصومه في إفريقية ، لم يفته أن يعنى بشؤون الأندلس ، حيث كان حليفه أحمد بن قسي وإلى الغرب يشتد المرابطون في إرهاقه يوماً عن يوم ؛ فسير إلى الأندلس بإمرة قائده أبي عمران موسى بن سميد جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف فارس ، وعشرين ألف راجل ، فجاز إلى شبه الجزيرة في أواخر سنة ٥٤٠ هـ (مايو سنة ١١٤٦ م) واستطاع بعد جهود عنيفة ، وبمؤازرة قوة من فرسان الغرب بقيادة ابن قسي ، أن ينزع حصن الجزيرة من يد المرابطين ، ودخله الموحدون في المحرم سنة ٥٤١ هـ (يونيه سنة ١١٤٦ م)^(٢) . وكانت الجزيرة قبل ذلك بستين عاماً أيضاً أول موضع استولى عليه المرابطون حين جوازهم إلى الأندلس . واستطاعت الحامية المرابطية أن تشق لها وسط الأعداء طريقاً ، وأن تسير سالمة إلى اشبيلية ؛ وفتح جبل طارق^(٣) وشرش أبوابهما

(١) راجع « الحلة السراء » ص ٢٠٤ و ٢٠٥ ، ويضع ابن الأبار تاريخ وفاته في سنة ٥٥٨ هـ وهو يقابل التاريخ الميلادي الذي يورده المؤلف .
(٢) في روض القرطاس أن عبور الموحدين إلى الأندلس لأول مرة كان في ذي الحجة سنة ٥٣٩ هـ . وأنهم دخلوا حصن الجزيرة في يوم عيد الأضحي (س ١٣٣) .
(٣) سمى الموحدون جبل طارق بهذه المناسبة جبل الفتح ، وتنسب هذه التسمية إلى عبد المؤمن ذاته (راجع المراكشي في المعجب ص ١١٧) .

للموحدين طوعا واختياراً ، وبايعتا عبد المؤمن على الطاعة ، وحصلتا بذلك على حقوق ومنح خاصة (١) .

وسار الموحدون بمد قليل ، ومعهم قوات ابن قسى وقوات زميله سيدراى الذى عاد إلى محالفته ، إلى إشبيلية ، وكان حزب ابن حدين هو الغالب فيها ، فانضم إلى الموحدين ، وعاونهم فى الاستيلاء على تلك المدينة الهامة ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤١ هـ (أوائل سنة ١١٤٧ م) ، ولم ير الرابطون مناصاً من الارتداد أمام هذه القوى العظيمة فنادروا القلعة ، ولجأوا إلى حصون قرمونة النبعة ، ودعى لعبد المؤمن سلطان الموحدين فى الصلاة فى مساجد إشبيلية ، ثم دعى له بمد ذلك بقليل فى مالقة ؛ وكان بغض الأندلسيين للرابطين ورغبتهم فى الانتقام منهم ، مما يساعد على تقدم الموحدين بسرعة ، وإن كانت سيادة الموحدين لا تبشر فى نظرهم بحسن المصير ، ومع ذلك فقد كانوا يقتبطون لما يتخذ الظافرون فى حق النصاري المهادين واليهود من شنيع الاجراءات ، إذ ينزعون أملاكهم ويطاردونهم بمنتهى القسوة والمنف .

وفى تلك الأثناء كان الموحدون قد فتحوا مراكش ، وانتهت بذلك دولة الرابطين فى إفريقية ، وغدت الأندلس عندئذ مقصد الموحدين وهدف فتوحهم ، وأضحى فى وسعهم أن يسبروا إليها الجيوش الضخمة ؛ وأدرك القيصر ألفونسو فداحة الخطر الذى يهدد شبه الجزيرة من إفريقية للمرة الثالثة ، فلم يقنع عندئذ بافتتاح قلعة رباح وغيرها من أماكن الحدود ، ولكنه كان يتوق إلى أن ينفذ إلى قلب الأندلس على يد الأمراء الأندلسيين أنفسهم ، وذلك باعتباره صديقاً وحليفاً لمعظم الأحزاب الأندلسية ، وكذلك للرابطين ، وللشعب التبرم فى بلنسية ومرسية ولاين حدين .

وكان القيصر قد استطاع فى ذلك الحين أن يوفق بين نافارا وأراجون ، وأن يعقد نوعاً من السلام العام بين الممالك النصرانية الإسبانية ، وكان واجبا أن تنهز

هذه الفرصة للقيام بحملة مشتركة ضد أندلس يسودها الخلل والاضطراب ؛ ذلك أن جنوب غربي اسبانيا كان يتقاسمه الموحدون ، وأحمد بن الحسين بن قسى ، وأنصار ابن حدين ؛ وكان الشاطىء الممتد من ألمرية حتى مصب الايبرو يحكمه منذ وفاة ابن عياض (فى ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ) أبو عبد الله محمد بن سعد ، وكان المرابطون يبسطون حكمهم على معظم الأراضى الداخلية الممتدة حتى نهر الرادى الكبير ، ويحكم بعضها ابن حدين أيضا وأنصار سيف الدولة السابقون ؛ وكان من حسن الطالع بالنسبة لحملة النصارى الاسبان ، أن عبد المؤمن بعد أن قتل إبراهيم آخر الأمراء المرابطين ، واعتقد أنه قد أضحى بذلك يسيطر على المغرب بلا منازع ، كان يواجه فى ذلك الحين بالذات معركة جديدة ، كاد يفقد من جرائها كل فتوحه . وذلك أنه ظهر فى سلا رجل يدعى محمد بن هود بن عبد الله ، وتسمى بالمهادى أو المهدى ، وثار على الموحدون ، وكافح سلطانهم بنجاح مدهش ، ولم يمض سوى قليل حتى انتزع من عبد المؤمن كل الأقاليم والمدن التى يسيطر عليها ، خلا مراکش وفاس ، وكادت دولة الموحدين الناشئة تنهار فى مهدها ؛ ولكن عبد المؤمن وفق إلى الانتصار على الثائر فى بعض المواقع ، وقتل الثائر نفسه فى الموقعة ، واسترد الموحدون أراضيهم بنفس السرعة التى فقدوها بها ^(١) بيد أن هذه الثورة عاقت الموحدون عند فتوحهم فى اسبانيا مدى حين .

٤ — حملات النصارى ضد المرية واشبونة وطرطوشة

وجه القيصر الفونسو ، تزولا على اقتراح الجنويين — الذين أوفدوا إليه سفراء للتباحث فى خير الوسائل لقمع أعمال خوارج البحر (القرصان) الأندلسيين — ، حملته إلى ألمرية ؛ وكانت المرية يومئذ أهم ملجأ للقرصان ، يخرجون منها للإغارة على شواطئ اسبانيا وجليقية واشتوريش وبرشلونة والبرتغال ، وشواطئ فرنسا

(١) راجع فى ثورة ابن هود على الموحدون روض القرطاس ص ١٣٣ و ١٣٤ . وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٤٤ و ١٤٥ .

وإيطاليا الجنوبية ، وأحياناً تمتد غاراتهم إلى الشواطئ البيزنطية . والمرجح أن
ألمرية لم تكن يومئذ تحت حكم محمد بن سعد أمير بلنسية ومرسية ، الذي كان مشغولاً
يومئذ بمحاربة المرابطين والنصارى معاً ، وأن القرصان كانوا قد أسسوا بها إمارة
مستقلة ؛ يؤيد ذلك أن القيصر كان متحالفاً مع باقى الأحزاب الأندلسية ، ولم
تذكر الرواية أن ألمرية تلقت عوناً من أى جانب ، هذا إلى أن الموحدين لم يكونوا
قد تقدموا فى فتوحهم يومئذ ، حتى يمكن أن يقال إن سلطانهم امتد إلى ألمرية .
ولما كان حصار ألمرية لا يمكن أن يسفر عن النجاح إلا إذا طوقت المدينة
من البحر أيضاً ؛ فقد أرسل القيصر أرنولد أسقف أسترقة إلى الكونت ريموند
برنجار الرابع أمير برشلونة ، والكونت جيئوم صاحب مونبليه بطلب إليهما
الاشتراك فى الحملة البحرية ؛ وكان الجنويون والبيزيون ، بعد أن تفاضوا من
القيصر ثلاثين ألف قطعة من الذهب لتجهيز السفن ، قد حددوا يوم أول
أغسطس سنة ١١٤٧ م موعداً لقدمهم إلى ألمرية ، فلم يتردد الأميران ريموند
وجيئوم فى التمهيد ، بإرسال إمدادهما فى الموعد المضروب . ومنذ شهر مايو حشد
القيصر كل قواته فى قلعة رباح ، وأقام هناك استعراضاً عسكرياً لمختلف الفرق .
وكان الجيش مكوناً من قوات جليقية واشتوريش وقشتالة وقطالونية وأراجون.
ونافارا ، وكل منها يقوده أمير أو كبير منهم ، ويتولى القيصر نفسه قيادة الجيش.
العليا ؛ ويصف لنا مؤرخ عربى الحملة ضد ألمرية فيما يأتى :

« ملأ النصارى السهل بجيوشهم الضخمة ، وخربوا الحقول ، واستاقوا
الماشية وساروا نحو ألمرية ، وكان يقود النصارى ملكهم أذفنش ، ويتألف
جيشه من صفوف لا تحصى من الفرسان والمشاة ، وقد ملأوا الجبال والسهول ،
ولم تكف مياه العيون والأنهار لإرواء ظمئهم ، ولا الحشائش والنبات لتغذيتهم .
وكانت الجبال تترجى لوقع حوافر خيولهم وصوت أقدامهم ، وتردد صداها ؛ وكان
بين قادة الجيش فردلند ملك جليقية ، والقمط رذمير ، والقمط ارمنجودى ،
وغيرهم من أمراء الفرنج وأمم النصرانية المجاورة . وجاء القمط رمنند من البحر

في سفائن عديدة وطوف مدينة ألمرية من البر والبحر ، حتى أصبح من التمزدر أن يدخلها أحد سوى الفسور ؛ وفقدت المؤن بسرعة ، ورأى المسلمون أن لا أمل لهم في التجارة ، نفخ جوا مراراً لمقاتلة النصارى ، وفقدوا خيرة فرسانهم ، ولما نقص عددهم ولم يعد يكفي للدفاع ، بدأوا المفاوضة مع النصارى ، وسلموا المدينة للأذفتش بعد حصار دام ثلاثة أشهر على أن يؤمنوا أنفسهم ؛ وكان ذلك في أواخر سنة ٥٤٢ هـ ^(١) .

وتقول الروايات النصرانية إن حصار ألمرية بدأ في أوائل أغسطس ، حيث التقي أمامها أسطول الجنويين واليزيين بالكونت ريموند صاحب برشلونة ، وجيوم صاحب مونتيلييه ، واستمر حتى ١٧ أكتوبر سنة ١١٤٧ م . ثم أخذت المدينة عنوة ، وقتلت حاميتها بعد دفاع شديد ؛ واستولى انظافرون على غنائم عظيمة مما جمع القرصان في المدينة ، وكان آتمن ما حصل عليه الجنويون قطعة من الزجاج الأخضر ، قيل إنها من الزمرد ولم تكن كذلك . وبعد أن قسمت الغنائم على الجنود ، وحصل الجنويون واليزيون منها على أوفر نصيب ، وحصل الكونت ريموند على جميع الأسرى ، دخل القيصر ألمرية في قوة كبيرة ، وعند اقتراب الشتاء عاد كل فريق إلى بلاده .

وفي نفس الوقت الذي افتتحت فيه ألمرية ، سقطت أشبونة ^(٢) في يد النصارى ؛ وكان الفونسو ملك البرتغال قد خرج من قبل مراراً إلى ضفاف التاجه لمقاتلة ثوار العرب الذين انشقوا على أحمد بن قسي ؛ نفخ في نفس العام لمحصنة أشبونة وطوقها بجميع قواته ، وكان قد حاصرها من قبل عبثاً بمعاونة الفرسان الصايبيين الذين قدموا من فرنسا ؛ وكان بالمدينة فضلاً عن سكانها الكثيرين حامية كبيرة ومن ثم فقد يئس البرتغاليون من افتتاحها بسرعة نظراً لأنه لم يكن لديهم أسطول

(١) لم نجد أصلاً لهذه الفقرة في جميع المراجع المصرية التي لدينا . وقد ذكر المؤلف أنه نقلها عن كوندى المؤرخ الأسباني وبعض المراجع النصرانية (ج ١ ص ٤٢٥) . ومن الصعب دائماً أن يتر المراء على أصل عربي يورده كوندى .

(٢) لشبونة أو Lisbon عاصمة البرتغال الحديثة .

بطوقها من ناحية البحر ؛ ولكن كان من حسن طالع الملك الفونسو ، أن رست في هذا الوقت بالذات عند مصب نهر دويره (دورو) زهاء مئتي سفينة من سفن الصليبيين ، ما بين إنكليزية وهولندية وألمانية ، لتزود باللاء العذب ، ثم أرغمت على البقاء في مراسيها نظراً لاضطراب الريح . ففاوضهم الفونسو ، وحملهم الوعود وأمل الحصول على الغنائم الضخمة ، وما يقترن به من ثواب مقاتلة المسلمين في سبيل الدين ، على تلبية نداءه ؛ وسارت سفنهم بقيادة الكونت أرنولف فون ارشوث الهولندي إلى مياه أشبونة ، لماونة البرتغاليين على أخذها ، خصوصاً وقد ساء الجو ولم يبق صالحاً لسير السفن ، وانتهت جهود البرتغاليين والصليبيين المشتركة بأخذ المدينة المحصورة بالرغم من دفاعها الباسل ؛ وسلم المحصورون المدينة بعد أن فقدوا كل أمل في الاغاثة ولم يبق أمامهم سوى القتل أو الموت جوعاً ، وحصلوا مقابل ذلك على حق الرحيل مع ترك أسلحتهم وأموالهم ؛ واقتسم البرتغاليون والصليبيون ما لقوا في المدينة من غنائم لا تحصى ؛ وأنفق الصليبيون الشتاء في مياه البرتغال ؛ وكان بدء حصار أشبونة في ٢٨ يونيو سنة ١١٤٧ م ، واستمر مدى أربعة أشهر حتى ٢١ أكتوبر من نفس العام ؛ وكان سقوطها بعد أيام قلائل فقط من سقوط ألمرية . وكان فتحاً عظيم الأهمية بالنسبة للبرتغال ، حيث استطاعت أن تتزعزع بأخذ أشبونة مفتاح التاج من يد المسلمين .

وكان هذا التوفيق الذي صاحب النصر عاملاً في إغراء الكونت ريموند صاحب برشلونة ، مذ عاد إلى وطنه بعد افتتاح ألمرية ، على أن يستأنف مشروعه لافتتاح قلعة طرطوش الواقعة على مصب نهر ايبرو ، بعد أن فشلت كل محاولاته من قبل في هذا السبيل . فسار بماونة أسطول الجنوئين إلى هذه القلعة التي تعتبر مفتاح الايبرو ، والتي تغلق البحر في وجه السفن الأرجونية ، محاولاً افتتاحها مرة أخرى . وطوق النصرارى طرطوشة من البر والبحر ؛ وعجز أمير بلنسية محمد ابن سمد عن أن يرسل إليها المدد ، فسقطت في يد النصرارى بعد حصار دام ستة أشهر من بداية يولييه إلى ٣١ ديسمبر سنة ١١٤٨ م (٥٤٢ هـ) ؛ واستولى الجنويون

والبيزون وجيوم صاحب موبلييه ، باعتبارهم حلفاء على ثلثي المدينة نظير عرضهم ، على أن يؤدوا الجزية ؛ وترك الثلث الباقي ملكاً لأمرأء أراجون . وانتزع ريعوند في العام التالي الأماكن التي بقيت بيد المسلمين على نهر ايبرو ، وهي قلاع مكنونزا ولاردة وإفراغه^(١) من يد محمد بن سعد ، فلم يبق في يده سوى الحاضرة بلنسية وقد غدت عندئذ تحت رحمة الأعداء .

• — تحالف القيصر ألفونسو مع المرابطين ضد الموحدون

ولم يستطع الموحدون في تلك الأثناء أن يجاوزوا في فتوحهم منطقتي إشبيلية ومالقة ؛ ذلك أنه ما كادت تخدم ثورة محمد بن هود الملقب بالهادي في إفريقية حتى قامت ثورة أخرى في سبتة ترمي إلى إعادة سلطان المرابطين ، وقتل الموحدون الذين لم يستطيعوا الفرار وأحرقوا أحياء ؛ واتصل قاضي المدينة وزعيم الثورة عياض بن موسى في الحال بالمرابطين في اسبانيا ، ودعا بالولاية لقائدهم أبي زكريا يحيى بن غانية ؛ وسير إليه ابن غانية المدد بقيادة يحيى بن أبي بكر الصحراوي ؛ واتسع نطاق الثورة ، واجتأر الثوار وحلفاؤهم رغم ضآلة قواهم على أن يخوضوا مع الموحدون معركة صريحة انتهت بهزيمتهم وإخماد الثورة^(٢) ؛ وانتهى حزب المرابطين في اسبانيا بمد أن استنفذ قواه الأخيرة في سبيل السلطان في إفريقية إلى حالة يرثى لها من الضعف ، ولم يبق أمامه سوى الخضوع والتسليم بالرغم مما كان يلقاه من معاونة القيصر .

وما كاد عبد المؤمن ينتهي من توطيد سلطانه في إفريقية حتى بعث إلى شبه الجزيرة بجيش ضخم ، وسار الموحدون إلى قرطبة حيث كان ابن غانية يربط في معظم قواته ، وبعد أن ضرب الموحدون حولها الحصار الصارم ، سقطت المدينة في أيديهم بخيانة واليهما يحيى بن علي ؛ أما يحيى بن غانية فقد استطاع الفرار من

(١) راجع ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ .

(٢) وردت تفاصيل هذه الثورة في روض القرطاس ص ١٣٤ ، وفي الاستقصاء ج ١

قبل إلى غرناطة ؛ وسمح للحامية المرابطية بالخروج من المدينة ، وسار قسم منها إلى قرمونة ، وكانت ما تزال بيد المرابطين ؛ وكان استيلاء الموحدين على قرطبة في مايو أو يونيو سنة ١١٤٨ (٥٤٣ هـ) ؛ وبدأوا حين دخولها بتطهير مسجدها الجامع من آثار المرابطين ورجسهم ، وأقاموا الصلاة ودعوا فيها لسلطان الموحدين ؛ واستولوا على مصحف عثمان النفيس — وهو من أقدم النسخ التي ترجع إلى عهد الخلفاء الراشدين ؛ وقد نقله الأمويون من الشام إلى الأندلس — وبمثنوه إلى مراکش^(١) . وهكذا تقلبت على قرطبة في نحو ثلاثة أعوام دول وحكومات عدة ، فلحكما المرابطون مرتين ، وابن حمدين مرتين ، وسيف الدولة ابن هود مرة ، ومحمد بن عمر مرتين ، والقيصر ألفونسو مرة ، ثم ملكها الموحدون آخر الأمر .

وكان يحيى بن غانية يضطرم حقدًا على والي قرطبة ويعتبره خائنًا لأنه مجل بتسليم المدينة ، ولذا فانه (أي والي يحيى بن علي) ما كاد يصل إلى غرناطة حتى بادر إليه ابن غانية ، وفاق رأسه بنفسه ؛ وقد كان ابن غانية يؤمل إنقاذ قرطبة متى وصلها نجدة من النصارى . وكان لسقوط عاصمة الأندلس وقع شديد في النفوس ، غاض معه كل أمل في مقاومة الموحدين ، ولم تكن جموع الفرسان القشتاليين التي قادها السكونت الماريش لمعاونة المرابطين لتغنى شيئًا بمد . وبعد أن استولى الموحدون على قرمونة ، وخاضوا في ولاية جيان عدة مواقع مظفرة ، طوقوا مدينة غرناطة التي غدت أمنع قاعدة دفاعية للمرابطين ، وكان ابن غانية ممتنعًا فيها مع جميع قوائمه . وتقول الرواية العربية إن قائد المرابطين (ابن غانية) سقط في ميدان الحرب وهو يقاتل الموحدين بشجاعة ، وذلك في شعبان سنة ٥٤٣ هـ (ديسمبر سنة ١١٤٨) ، ثم دفن في غرناطة . ولكن توجد قصة رواية نصرانية تناقض هذه كل النافضة ، وخلاصتها أن ابن غانية أسره حلفاؤه أنفسهم أعنى جنود

(١) راجع قصة نقل مصحف عثمان من قرطبة إلى مراکش في الاستقصاء ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

الكونت الماريش ؛ ثم قتله بعد ذلك سكان جيان عقاباً له على ما اقترفه من التآمر على حياة القيصر (١) .

وكانت وفاة يحيى بن غانية ضربة مؤلمة للمرابطين ؛ فقد لبث زهاء ستة عشر عاماً في رئاسة اسبانيا المسلمة يرد عنها غارات النصارى بقوة ؛ وكان هو الظافر في موقعة إفراغة التي هلك فيها ألفونسو المحارب ؛ وقد رد عن سلطان المرابطين الأندلس عادية الثورات وعادية الموحدين ، حتى بعد أن انهارت دولة المرابطين في إفريقية ؛ بيد أن تحالفه مع النصارى قد وصم اسمه لدى المسلمين ؛ ذلك أن بعض المسلمين للنصارى كان من الشدة بحيث كان أهل الأندلس يؤذون أن يرزحوا تحت نير الإفريقيين (الفسارية) المهق على أن يستردوا حرياتهم بمعاونة أعداء دينهم .

ولما اتسع نطاق ظفر الموحدين في الأندلس ، واستولوا على جيان في سنة ١١٤٩ م (٥٤٤ هـ) وهددوا غرناطة وألمرية بالحصار ، اعتزم القيصر ألفونسو — وكان يضع نفسه دائماً على رأس حزب المرابطين — بالاتحاد مع جارسيا ملك نافارا أن يسير حملة إلى الأندلس ، وحشد فيها قوى جميع الأمراء الاربعة له . وفي أوائل سنة ١١٥٠ م (٥٤٥ هـ) سار إلى قرطبة وحاصرها بمدائن خرب بسائطها ، وهزم جيشاً من الموحدين قدم لإنقاذها وأجأها إلى الفرار ؛ ولكنه رأى إزاء مقاومة الحامية الشديدة ، ومناعة حصون المدينة ، وما نعى إليه من أن عبد المؤمن سلطان الموحدين القوى ، قادم بنفسه إلى الأندلس في جيش ضخم ، ألا يطوح بزهرة جيشه في محاولات عقيمة ، فرفع الحصار عن قرطبة ؛ ولكي يجنى من حملته بعض الشيء ، ارتد إلى جيان ، واستولى عليها عنوة ووضع فيها حامية من جنده ؛ ثم عاد إلى طليطلة ، لكي يقوم بأهبات جديدة للقتال في العام التالي .

(١) تجميع الرواية الإسلامية على أن ابن غانية توفي في غرناطة في سنة ٥٤٣ هـ ، ولا تقول لنا إنه سقط في ميدان الحرب ، وإنه دفن في قبة غرناطة بإزاء قبر باديس الصنهاجي ، وإن قبره لبث عصراً زاراً مروعاً (راجع روض القرطاس ص ١٣٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ والاستقصاء ج ١ ص ١٤٧) .

وكانت الأخطار التي تهدد اسبانيا من جراء جواز الموحدين إليها تتفاقم بالنسبة للنصارى يوماً عن يوم . أجل ، كان عبد المؤمن لا يزال في إفريقية مشغولاً باخماد بعض الثورات ، ولكنه مع ذلك لبث يتابع فتوحه في شبه الجزيرة . فبمقتضى بقيادة الشيخ أبى حفص وولده (أبى ولد عبد المؤمن) السيد أبى سعيد إلى الأندلس جيشاً جديداً ومعه أسطول ليقوم بحاصرة ألمرية التي كانت لا تزال يومئذ في يد النصارى ، من البر والبحر . وجمع الخطر المشترك بين الأمير محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية بالرغم من خصومته للقيصر ألفونسو ، وبين النصارى والمرابطين ؛ فاقصر النضال في الأندلس لذلك على حزينين اثنين ، هما الموحدون ، وخصومهم . ولم يستطع الموحدون رغم جهودهم افتتاح ألمرية ؛ وحاول محمد بن سعد بمعاونة النصارى عبثاً إنجادها ، فتحول عندئذ إلى أبدة وبياسة ، وانتزعهما من يد الموحدين (سنة ١١٥٢ م — ٥٤٧ هـ) . وفي الوقت نفسه خرج المرابطون من غرناطة بقيادة الأمير على ، واشتبكوا مع الموحدين في معارك دامت أعواماً حتى هلك على في النكيب مسموماً فيما يظهر ، وذلك سنة ١١٥٦ م .

ومع أن الروايات النصرانية والمريية لا تقدم إلينا عن الحروب التي وقعت بين سنتي ١١٥١ و ١١٥٧ م (٥٤٦ — ٥٥٢ هـ) سوى تفاصيل موجزة ناقصة ، فإنه يبدو مع ذلك من سير الحوادث أن الغلبة كانت للموحدين ، وأنهم استطاعوا بالرغم من مقاومة المرابطين والنصارى في جميع البلاد التي كانت بأيديهم ، أن يستولوا عليها ؛ هذا فيما عدا بلنسية ومرسية التي استطاع ابن مردنيش أن يحتفظ بهما بمعاونة النصارى ، بل لقد استطاع أيضاً أن ينتزع غرناطة مدى حين من الموحدين الذين انتزعوها قبل ذلك بقليل من المرابطين . ثم سقطت ألمرية أخيراً في يد الموحدين بعد حصار دام بضعة أعوام في سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) أعني لثمرة أعوام من سقوطها في يد النصارى ، وخرج النصارى منها بالأمان^(١) ؛ واستولى

(١) راجع في حصار ألمرية وسقوطها روض الفرجات ص ١٣٦ .

الموحدون أيضاً على جيان وأبده وأندوجار وبياسة ووادي آش؛ ثم زحفوا على غرناطة كرة أخرى ، وأمر عبد المؤمن بافتتاحها مها كلفهم الأمر ، وبذل الرابطون والنصارى وجند بلنسية ومرسية كل جهد ممكن لإبقائها ؛ وسار القيصر الفونسو ومعه ولي عهده سانشو وأسقف طليطلة على رأس حملة كبيرة إلى الأندلس ، واشتبك مع الموحدين في عدة مواقع دون أن يحرز النصر ؛ بيد أنه استطاع أن ينتزع منهم بياسة رغم تفوقهم فيما يشبه المعجزة ؛ ثم اضطر إلى العودة دون أن يجتني نتائج تذكر ، وفي أثناء عودته توفى في مضيق مورادال في ٢١ أغسطس سنة ١٠٦٤ ، إما متأثراً بجراحه ، وإما بسبب تحطم قواه بما بذل من جهود ولا أصابه من الحزن لفشله . ووصلته الأنباء قبيل موته بأن الموحدين أخذوا غرناطة عنوة ، وقتلوا قائد النصارى المدافع عنها وحاميتها جيما ، سواء من النصارى أو المسلمين ، وحصل الموحدون باستيلائهم على غرناطة على دعامة جديدة لسيادتهم ؛ وفرت فلول الرابطين إلى النكسب ومنها إلى ميورقة ملاذهم وملجأهم الأخير ، وانهار سلطانهم نهائياً في الأندلس .

٦ — الأعوام الأخيرة من حكم القيصر ألفونسو

لما امتد سلطان القيصر بافتتاح ألمرية وجزء كبير من الأندلس إلى حدود لم يلفها قبله أمير من أمراء اسبانيا النصرانية ، بلغ الماهل التلقب بقيصر اسبانيا المتوج بتاج المجد ، الظفر دائماً ، سيك جليقية وليون وقشتالة ونافاراً وسرقسطة والمرية وبياسة وأندوجار ، ذروة قوته وسلطانه . وكانت مملكة البرتغال الصغيرة في عهد ملكها الجديد الفونسو هنريكينز قد استطاعت في البداية أن تهز أسس المملكة الاسبانية ، ثم كان مقدم الموحدين إلى اسبانيا وفتحهم فيها واستيلائهم بالأخص على إشبيلية وقرطبة والمرية وغرناطة ، فخطموا السيادة النصرانية في الأندلس في مهدها ؛ ولا انقضت روابط الأسرة بين قشتالة وبين أمراء أراجون ونافاراً أصبحت سيادة قشتالة على المملكة الممتدة بين جبال البرنيه والايبرو عرضة للخلاف والضياع .

ففي خلال عام واحد (سنة ١١٤٩ — ١١٥٠م) توفيت زوج القيصر الملكة برنجاريا أخت الكونت ريموند أمير برشلونه الذي لبث حتى ذلك الحين صلة التفاهم الوثيق بين قشتالة وأراجون ، وفقد القيصر أيضاً زوج ابنته جارسيا الرابع ملك نافارا الذي كان في أواخر أعوامه يعمل مع قشتالة بمنتهى التفاهم بالرغم مما سبق من الحروب بينه وبين القيصر . وهكذا فإن ضرام الحرب بين نافارا وأراجون ما كادت تتمد حتى عادت إلى اضطرابها ، وبذل القيصر جهوداً فادحة ليمقد السلام بين الفريقين المتخاصمين ؛ ذلك أن سانشو السادس ولد جارسيا وخلفه في الحكم كان من جهة يحاول أن يحطم نير قشتالة الثقيل ، ومن جهة أخرى فقد ألقي ريموند أمير برشونة التي غدا بعد وفاة راميرو الثاني — وفقاً لوصية زوجته الفتية الملكة برونيللا — سيد أراجون الحقيقي ، أنه لم تبق له حاجة إلى مؤازرة قشتالة خصوصاً وقد كانت هذه المؤازرة تحول بينه وبين الاستيلاء على نافارا التي كان ملك أراجون يدعى عليها كل الحقوق .

وحاول القيصر أن يعود فيوتق بأسرع ما استطاع روابط الأسرة المنحلة ، وأن يوطد بذلك دعائم السلم بين أمراء اسبانيا النصرانية ؛ كذلك اتخذ فيما يتعلق بوراثنة العرش في مملكته وإماراته بعض التدابير التمهيدية ؛ ولما لم يكن في وسعه أن يتخلص من التقليد السىء الذى جرى عليه أسلافه في تقسيم المملكة بين الأولاد ، فقد رأى أن يحاول قدر الاستطاعة أن يكون تقسيم السلطان في اسبانيا النصرانية أبعد ما يكون عن الإضرار بصالح المملكة ، ورأى لذلك أن يمين ولديه اللذين سيرثان الملك من بعده وصيين للحكم معه ، وأن يقوم كل منهما بالإشراف على شؤون مملكته المستقبلية ؛ فتلقى ولده الأكبر وولى عهده سانشو مملكة قشتالة وبسكونيه (بسكاي) ، والإشراف على الممالك البرينية ، وتلقى ولده الأسفل فرديناند ليون واسترامادوره وجليقية واشتوريش ، والإشراف على مملكة البرتغال ، وقد كانت ما تزال موضع النزاع ؛ ومن ذلك الحين كان الولدان يوقعان مع أبيهما القيصر وثائق الدولة باعتبارهما ملكين . ثم رأى القيصر لى يوتق الملائق بين

الدولتين المتجاورتين قشتالة ونافارا في المستقبل أن يتزوج ولده سانشو ملك قشتالة من الدونا بلانكا أخت ملك نافارا (سنة ١١٥١م)، ولما تزوج القيصر ثانية بعد ذلك بمامين واحتفل في مدينة سريا بزواجه من الأميرة ريكا ابنة لادسلاوس الثاني ملك بولونيا ، دعا هنالك تابعيه ملكي نافارا وأراجون ونصح إليهما بمقد السلام ونبذ الخلاف ، وأسس القيصر على ملك نافارا الفتى لقب الفروسية ، وقدم إليه ابنته من القيصرة برنجاريا الدونا بياتيا عروساً ، ووعد بأن يزوج ابنته الأخرى التي رزق بها من القيصرة ريكا لألفونسو ولد ريموند وبترونيلا ملك أراجون وقطالونية المستقبل ، وكان يومئذ طفلاً لا يجاوز بضعة أعوام . وهكذا عقدت خِطبة أطفال في المهد لكي توثق علائق الدول المجاورة في المستقبل .

ولم يقتصر القيصر ألفونسو على توثيق الروابط بين الأمراء الأسبانيين ؛ فإن لويس السابع ملك فرنسا ، بعد أن طُلق من زوجته الأولى ، غير المخلصة ، إلينورا ، وانتحلت شدة القرابة سبباً للطلاق ، تزوج ابنة القيصر اليزابيث ، التي اتخذت عندئذ اسم كونستانسيا (سنة ١١٥٤م) . ولما كانت لألفونسو من قبل خلية تدعى جوندرادا ، وقد أعقب منها عدة بنات ، فقد أثار البعض في نفس لويس التاسع رياء بأن زوجه ليست ابنة للقيصرة برنجاريا ، كما قيل ، ولكنها في الواقع ابنة غير شرعية للقيصر من خلية تنتمي إلى أصل وضيع . والظاهر أن البعض لم يكن ينظر بعين الرضى إلى توثيق روابط الصداقة بين القيصر ولويس ملك فرنسا . ومن ثم فقد كانت تُلقى إلى الملك الضعيف عن القيصر أقاويل تحط من قدره ، وتصوره كأنه لم يكن ذا مكانة بين شعبه . واعتزم لويس أن يتحقق من صحة هذه الأقاويل بنفسه ، فسافر إلى اسبانيا محتجاً بزيارة قبر القديس يعقوب في كومبوستل (سنة ١١٥٥م) . بيد أن القيصر لم يكن يجهل السبب الحقيقي لمقدم صهره . فسار ومعه زوج ابنته سانشو ملك نافارا ، إلى لقائه في برغش ، واستقبله في بذخ طائل دهش له لويس . على أن هذا الاستقبال لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك الذي شهدته في بلاط طليطلة عقب عوده من شنت ياقب ؛ وكان ألفونسو قد

نظم كل شيء لكي يبدو سلطانه في ذروة بهائه ، ويبدو ثراؤه في منتهى بذخه ؛ فوفد عندئذ على طليطلة جميع كبراء الملكة من النصارى والمسلمين ، في بطاناتهم الكبيرة ، وفي أنخم المظاهر وأروعها ؛ ووفد أيضاً ملك نافارا والكونت ريموند ملك أراجون ، وقدما للقيصر شمائر الطاعة بحضور لويس ، وصرح ملك فرنسا في دهشة ، أنه لم يرقط مثل هذا البهاء ، أو بلاطاً يمثل هذه الفخامة ، أو بطانة يمثل هذه الكثرة . وهنا أشار القيصر إلى ريموند قائلاً : لقد رزقت من برنجاريا ، أخت هذا الأمير ، ابنتى كونستانسيا التى زوجها إليك ؛ والتفت ريموند إلى لويس قائلاً : أجل إن زوجك هى ابنة أختى ، فعاملها بالاحترام والتكريم ، وإلا فانتظر مقدى فى باريس مع القيصر ، كمدوين لك . وعندئذ اقتنع لويس بأصل زوجه الرفيع ، وطيب خاطرها وهذا روعها ؛ ولكنه لم يأخذ من الهدايا الكثيرة التى قدمت إليه سوى زمردة كبيرة ، كان القيصر قد تلقاها من قبل هدية من سيف الدولة ابن هود ؛ ويقص علينا الأسقف رودريك الطليطلى صاحب التاريخ ، أنه رأى هذه الزمردة بعد ذلك بمائة عام فى كنيسة سان دنى فى باريس .

ولما جاد الملك لويس إلى مملكته ، اضطرم النزاع بين نافارا وأراجون ، واضطر القيصر أن يتدخل فيه . بالسيف ، وأن يرغم صهره وزوج ابنته سانشو على الإذعان والتسليم . ثم اختتم القيصر بعد ذلك حياته الحافلة فى غزوة قام بها ضد أعداء النصرانية . وقد ذكرنا فيما تقدم أن القيصر حاول مع تابعه ابن مردنيش أمير بلنسية أن يستنقذ ألمرية من يد الموحدين ، وكانوا يحاصرونها يومئذ ، وأن يردم عن غرناطة ، آخر معقل للمرابطين ، وأن جهوده ذهبت عبثاً ، فسقطت ألمرية ، وسحقت بقايا المرابطين ، واستولى الموحدون على معقل غرناطة الشهير ، وأن القيصر الذى هدمته الشيخوخة والإعياء ، اضطر أن يعود إلى وطنه صفر اليبدين ، وأنه توفى أثناء عوده فى مضيق مورادال على حدود الأندلس وولاية طليطلة ، متأثراً فيما يظهر بحزنه لما أصابه من الفشل ؛ وكانت وفاته فى ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ ، وهو فى الثالثة والخمسين ، بعد أن حكم جليلة سبعة وأربعين عاماً ،

وليون وقشتالة زهاء أربعين عاماً ؛ بيد أنه لم يحكم جميع اسبانيا النصرانية بوسفه
قيصر آ لها سوى اثنتين وعشرين عاماً .

والفونسو السابع (أو الثامن إذا اعتبرنا الفونسو المحارب ملكاً لقشتالة) هو
خاتمة الأمراء الذين تلقبوا بقلب قيصر اسبانيا ؛ وهو أول الحكام الذين ينتمون
إلى الأسرة البرجونية ، والذين لبثوا على عرش قشتالة حتى القرن الخامس عشر ؛
وقد امتاز حكمه بالحكمة والعدالة والقوة ، واستطاع بالرغم من تمرد الأشراف
الاسبان ، الذين كانوا ينقمون كل حد من سلطانهم المرهق ، أن يحافظ بمزم على
حقوقه في السيادة ، وأن يقمع بقوة وسرعة كل الحركات الثورية ، التي كانت
ذائبة الوقوع في عهد أمه أورাকা ؛ وكما أنه كان يشتد في معاقبة الخارجين
وإرهابهم ، ويرفع بذلك من هيئته القيصرية ، فكذلك كان يقدر الشجاعة والخلال
الحسنة قدرها ، ويثيب أهلها ويرفعهم ، ويحيط نفسه بذلك بسياج من التأييد
والحب . وكان وقت السلم يعنى بتنظيم الدولة ، وبطوف بالملكة ليقف بنفسه على
حسن تنفيذ أوامره ؛ وكان يشتد في العقاب لكي يعاقب قليلاً ، وكان يسمح
لأقل رعاياه أن يرفع مظلته إليه مباشرة ؛ وكان في الوقت نفسه ، مثلاً كاملاً
للفروسية الحققة ، تقياً ، ونصيراً جواداً للكنائس والأديار ؛ وفي الحرب ، شجاعاً
فظناً ، لا يعنى كثيراً بشخصه ، وعدواً شديداً الوطأة على أعداء الدين ، ما دام
يخوض الحرب معهم ، يروعهم اسمه ويرهبهم ؛ بيد أنه كان إزاء المغلوبين نهماً ،
بل كان صديقاً حقاً لمن كان يلتمس حمايته من المسلمين ، ولم يكن في قلبه من
محالفة إلى أخرى ، سواء بالنسبة للدول النصرانية أو الاسلامية المجاورة ، بتجري
غير مصلحة قشتالة ؛ وقد كان يضحي في قلبه من وسيط أحياناً ، إلى حليف ،
أو إلى عدو صريح ، بما تفرضه المبادئ والخلال الحسنة ، في سبيل إعلاء وطنه ؛
وقد سقط في ذلك إلى نفس المنحدر ، الذي انحدر إليه أعظم الأمراء الذين يرون
في الفتوح أعظم واجبات الحاكم ، وتحطمت فيه البقية الباقية من مجددم الحق ؛
ومن الأسف ألا تتلقى عن أمير عظيم مثل الفونسو ريمونديز سوى روايات ناقصة ،

فلم يصلنا من سيرته التي كتبها باللاتينية قس مجهول سوى نبذ يسيرة ، وهي لا تحتوي إلا على المعصر الذي بدأ فيه حكم قشتالة بعد وفاة أمه حتى بدء حصار ألمرية ، وبذلك ينقصها تاريخ عشرة الأعوام الأخيرة من حياته ، وهي فترة لا نجد عنها سوى فقرات قليلة في كتب الحوليات ، تتعلق بالسنين والأسماء والأماكن ، بل إننا لا نجد في التواريخ الكبيرة التي تركها لوقا التطيلي ، ودرديك التطيلي من ذلك سوى اليسير الذي تنقصه الدقة والتحقيق .

الفصل الرابع

قيام مملكة البرتغال

١ — أقدم الروايات عن البرتغال

كانوا يفرقون في العصر القديم ، منذ عهد القرطاجنيين والرومان بين الاسبانيين ، وبين أهل لوزيتانيا ، وهم سكان غربي شبه الجزيرة البرينية فيما بين مصب نهر أناس (وادي يانه) ومصب نهر دورو (دويره) . وكان ثرياقوس ، الذي قاوم سيادة الرومان بمنتهى البسالة ، ولم يسقط إلا بخيانة مواطنيه من أهل لوزيتانيا . ولما استطاع الرومان ، بعد ثورة نومانسيا^(١) ، أن يوطدوا دعائم سلطانهم في اسبانيا ، وأضحى اسمهم بذلك مروعا بنيضا ، قسموا شبه الجزيرة إلى قسمين ، أولهما يشمل الشمال الشرق ويسمى « اسبانيا الطركونية » Hispania Tarraconensis ، والآخر وهو الجنوب الغربي ، يسمى اسبانيا السفلى Hispania ulteiar ، ويشمل ولايتي لوزيتانيا وبيتكا (ولاية الأندلس فيما بعد) . ولما هاجرت القبائل الجرمانية إلى شبه الجزيرة ، نزل الشوابيون والوندال والآلان في لوزيتانيا ، واستقر الشوابيون على ضفاف نهر دويره ، والآلان على ضفاف التاجه ، والوندال على ضفاف وادي يانه . ولما تم ظفر القوط ، بقيادة ملكهم فاليا ، بعد حروب عنيفة ، ارتد المغلوبون إلى ما وراء التاجه ، واحتل الوندال الشقة الواقعة فيما بين قلورية وبراجا على ضفتي دويره السفلى ، ولجأ الشوابيون إلى جبال جليقية . ولما قاد جيزريش

(١) مكان في قشتالة القديمة كان مدى أعوام مركز مقاومة عنيفة من جانب الأسبان

لرومان فيما بين سنتي ١٥٤ و ١٣٣ . ق م .

ملك الوندال قومه إلى إفريقية في النصف الأول من القرن الخامس ، واضمحل سلطان الرومان في اسبانيا بالرغم من مؤازرة القوط ، استطاع الشوابيون أن يبسطوا حكمهم على لوزيتانيا كلها ؛ وانزعج ملوك القوط ، سادة مملكة تولوشه لهذه الفتوح وحاولوا وقفها ، ولم يفلحوا في ذلك إلا في النصف الثاني من القرن الخامس ، حينما استطاع القوط وحلفاؤهم البرجونيون أن يوقموا بالشوابيين على مقربة من أسترقة هزيمة شنيعة (سنة ٤٥٦ م) ، وأن يحتلوا لوزيتانيا وعاصمتها ماردة ، واعتصم الشوابيون بعدة تضمضمهم في جبال جليقية . ولما انهار سلطان الدولة الرومانية الغربية ، استولى القوط على اسبانيا كلها ، وكذلك لوزيتانيا حتى مصب دويره ، وتركوا قسمها الشمالي للشوابيين ، واستقر الشوابيون في هذا القسم حتى ضمت مملكتهم إلى مملكة القوط في أواخر القرن السادس من الميلاد . بيد أن لوزيتانيا لبثت وحدها تكون إقليم من الأقاليم الستة التي قسمت إليها المملكة القوطية ، ويعرف باسم عاصمتها ماردة ، حتى الفتح الإسلامي . وبعد الفتح كانت ماردة مقرا للوالي أو الحاكم المسلم ؛ وبذل ولاية ماردة ، في عهد الدولة الأموية جهودا عديدة للاستقلال بحكم الولاية ، ولكنها لم تسفر عن النجاح . وفي تلك الأثناء استطاع ملوك النصراني الذين يبسطون حكمهم في أشتورية وجليقية وليون أن يفتتحوا ما يجاورهم من الأراضي حتى نهر دويره ، وأن يدفعوا غزواتهم حتى نهر التاجه ، وتداول المسلمون والنصارى أثناء هذه الغزوات مدن قليرية وأشبونة وشنتره مزارا ونكرارا . ولما انهارت الدولة الأموية في قرطبة واستحال إلى ولايات وإمارات عدة ، قامت في جنوبي لوزيتانيا ، التي كانت لا تزال بيد المسلمين ، ويطلق عليها اسم « الغرب » (أي غربي الأندلس) ، دولة بني الأفطس ، ونقلوا قاعدة حكومتهم إلى بطليوس ، وبسطوا حكمهم على منطقة وادي يانة ، وكذلك على جزء من منطقة مصب التاجه مشتملة على ثغر أشبونة (لشبونة) . أما أراضي لوزيتانيا الواقعة بين نهري دويره ومنديجو وإلى ما بعد قليرية ، فكان الملك فرديناند قد انزعجها من المسلمين ، وجعلها ولاية مستقلة باسم البرتنال (بالاشتقاق من اسم

بورتو كالي Porto Calle وهي الثغر الواقع عند مصب دويرة) يحكمها حاكم يعرف بالقنصل أو القومس أو الأمير ، وانتدب لحكمها الكونت زيزناندوس ؛ ثم ضمت بعد ذلك قبل وفاة فرديناند بقليل إلى مملكة جليقية ، التي تركها فرديناند إلى أصغر أولاده جارسيا (سنة ١٠٦٥ م) ، مقرونة بالسيادة على بني الألفونس أصحاب ولاية الغرب أو جنوبي البرتغال ، الذين أرغموا على أداء الجزية .

وكان البرتغاليون الذين سموا عندئذ « بالبرتغاليين » يتوقون إلى الاستقلال عن جليقية ؛ ومن ثم فقد ثاروا على الملك جارسيا بقيادة زعيمهم الكونت نونيو ، الذي كان والده منندوس دوقاً لجليقية ؛ بيد أنهم أخطأوا تقدير قواهم ؛ ولما اشتبكوا في ميدان الحرب مع جيش جليقية الذي كان يفوقهم عدداً ، قتل زعيمهم نونيو ، وقتل معه كثير من البرتغاليين ؛ وسرعان ما خضعت الولاية النائرة عقب هذه الهزيمة التي وقعت في ١٤ يناير سنة ١٠٧١ م في موضع يسمى « برتاليئي » بين راجا ونهر كافادو .

ولم يرض قليل على ذلك حتى تعاقب الأسراء على حكم جليقية والبرتغال مسرعين ؛ ذلك أن جارسيا ، وكذلك أخوه ألفونسو ملك ليون ، أخرجهما أخوهما الأكبر سانشو ملك قشتالة من المملكة ، وبسط سيادته على مملكتي أخويه ، ولكن موته عند حصار سمورة في سنة ١٠٧٢ م ، مهد السبيل لعود أخويه إلى المملكة ؛ ولم يكتف ألفونسو بالاستيلاء على ليون وقشتالة ، ولكنه استطاع بالنسر أن يستولى على مملكة أخيه ، وأن ينتزع منه جليقية والبرتغال دون صعوبة ؛ وعهد بالدفاع عن البرتغال — التي لم تكن تضم يومئذ سوى أماكن قليلة على ضفة منديجو اليسرى ولم تكن تصل حدودها إلى التاجية — إلى كونت من أسرة الدوق منندوس التي حكمت جليقية والبرتغال في أوائل القرن الحادي عشر .

ولما افتتح ألفونسو السادس طليطلة ، التي بلغ بافتتاحها ذروة مجده الحربي ، وبدا الخطر الذي أثاره الرابطون بفتوحهم في إسبانيا شديداً على سيادة النصارى في شبه الجزيرة ، عبر البرنيسه من جنوبي فرنسا كثير من الفرسان والقوامس

(الكونتات) لإغاثة إخوانهم في الدين ؛ وكان من بين هؤلاء الكونت ريموند والكونت هنرى البرجونيان اللذان أسديا إلى ألفونسو في حروبه مع المسلمين أجل الخدمات ؛ وكان كلاهما ينتمى إلى فرع من فروع آل كاييه ملوك فرنسا ؛ ومن ثم فقد رأهما الملك جديري بأن يضمهما إلى أسرته وأن يتيههما بذلك عن خدماتهما ؛ فزوج ريموند بن جيوم كونت برجونيا العليا (ولاية فرانك كوتيه الحالية) بابنته أورাকা ؛ ولما كان قد ظهر بالأخص في عمارية المسلمين في البرتغال ، وانتزع منهم في سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦هـ) شنترين وأشبونة وشنترة ، فقد عينه حاكما لهذه الولاية ، وجعل حاكمها السابق سواريو مننديز خاضعا لأوامره .

٢ — ولاية البرتغال في عهد هنرى البرجونى

ولم يبق ريموند طويلا في البرتغال ، فقد نذب لحكم مملكة جليقية ؛ وخلفه في أواخر سنة ١٠٩٤ م في ولاية البرتغال قريبه هنرى وهو كونت برجونى من بيزانسون ، وحفيد لروبير أمير برجونيه السفلى ؛ وكان ألفونسو السادس قد زوجه بابنته غير الشرعية تيريزا ابنة خليلته كينا نونيز ، وهى فيما يرجح ابنة نونيو مننديز ، الذى ثار في البرتغال ضد الملك جارسيا ، وقتل في موقعة برتاليى ، وكانت أسرته أعظم الأسر البرتغالية وجاهة وعدداً .

وهكذا أقطع الكونت هنرى ، الذى كان يلقب أيضاً بالدوق بوصفه قائد الجيش ضد المسلمين ، إمارة البرتغال ، أعنى المنطقة الواقعة بين أسفل التاجه ونهر منهو ، لا باعتبارها إمارة مستقلة ، ولكن باعتبارها خاضعة لمملكة قشتالة تؤدى الجزية إليها ، ويتوارثها عقبه . بيد أن زوج هنرى ، كانت لنسبها الملكية تنقلب بالملكة ؛ وكان هذا اللقب يسبغ على أخوات ملك قشتالة وبناته ؛ واتخذت قلعية حاضرة للإمارة ؛ ومن ثم فقد جرى المسلمون على تسمية أمير البرتغال « بصاحب قلعية » Coïmbra وجعل مقر الطران في مدينة براجا عاصمة جليقية القديمة ؛ وجعلت كل من بورتو ولاميجو وبازو وقلعية مركزا لأسقفية . وعكف هنرى

على حماية حدود ولايته الجنوبية من غارات الرابطين بعزم وقوة ؛ ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بأشبونة وشنترين ؛ أما شنترة فقد فقدوها حينئذ ثم استردها (سنة ١١٠٩ م) . وكان من المتعذر على النصارى أن يحتفظوا بهذه المدن نظراً لأن كثرة سكانها الفالابة كانت من المسلمين ، ولأنهم كانوا يؤلفون بذلك كتلة عظيمة .

وأقر ألفونسو السادس في وصيته إمارة هنرى على البرتغال ، وأقر وراثته عقبه لها ، بيد أنه ليس من المحقق ما إذا كانت هذه الولاية قد اعتبرت مستقلة عن قشتالة أم تابعة لها ؛ والمرجح أن ألفونسو السادس لم يمرض في وصيته بوضوح إلى هذه المسألة . واشترك هنرى بقسط وافر في النزاع الذى قام بين الملكين الزوجين ألفونسو الأرجونى وزوجه الملكة أوركا ؛ ولما لم يكن يخشى شيئاً على استقلال إمارته من أراجون ، وكان بالعكس يخشى على هذا الاستقلال من قشتالة وجليقية ، فقد انضم حين نشوب الحرب بين ألفونسو وزوجه أوركا إلى ألفونسو ، وعاونوه في موقعة كامبو دى سيبينا (١٢٦ أكتوبر سنة ١١١٠ م) على هزيمة السكوت جومز القشتالى ، وافتتاح عدة حصون في قشتالة وليون . بيد أنه لما ساءت حال الملكة أوركا ولاح أنها هالكة ، وحاصرها زوجها في أسترقة ، رأى هنرى من الحكمة أن يعضد الحزب الأضعف بمونه ؛ وبذا أنقذت ملكة قشتالة ، واضطر ألفونسو الأرجونى أن يعود إلى مملكته . ومن المحقق أن أوركا لم تحصل على معاونة البرتغال دون تضحيات ذات شأن ، بيد أن الروايات الموجزة التى انتهت إلينا لا تشير إلى موضوعها بشيء ؛ والمرجح أن أوركا ، إذا صدقنا بعض الوثائق القديمة ، وهبت البرتغال نظير عونها ، فضلاً عن مدبنة توى والأرض الواقعة على ضفة نهر منهو البمنى ، سمورة وتورو وغيرها من المدن الواقعة على نهر ديروه ، وكذلك ولاية استرامادوره بأسرها .

٣ — البرتنال تحت حكم الدونا تيريزا

وكان من سوء طالع البرتنال أن توفي الكونت هنرى عقب إنقاذ استرقه مباشرة ، وذلك فى أول مايو سنة ١١١٢ م ، ولم يترك سوى طفل فى نحو الثالثة من عمره يدعى ألفونسو ، فتولت أمه الدونا تيريزا الحكم بالوصاية عليه ؛ ولم يك ينقص هذه المرأة البارة فى الحسن ، خلال الرجال اللازمة للقبض على زمام الحكم ، من الذكاء والعزم والإقدام حين الخطر ، بل وشجاعة الرجال فى ميدان الحرب ؛ ولكن شغفها بالسلطان وأهواءها المضطربة كانت تخمد فى نفسها كل عاطفة أموية ، فكانت تزولا على هذه الأهواء تعمل لانتزاع السلطة من يد ولدها ؛ وقد عملت للدفاع عن استقلال البرتنال سواء فى الحرب أو السلم ضد أطماع أختها لأبيها (أوراكا) التى غزت البرتنال غير مرة ، وأطماع ولدها ألفونسو السابع (ريمونديز) واستطاعت أن تحافظ على حدود البرتنال الجنوبية ضد المسلمين ؛ بالرغم من أن المرابطين اقتحموها مرة بعد أخرى ، ومن أن مدينة قلورية عاصمة البرتنال يومئذ كادت تسقط فى أيديهم بعد حصار طويل (سنة ١١٢١ م — ٥١٥ هـ) ، وكذلك بالرغم من محاولة أختها أوراكا محالفة المرابطين على إهلاكها . أما كون تيريزا كانت تسير فى حياتها مثلما كانت أختها ملكة قشتالة على نمط لايلى بكرامة أميرة ، فليس من التحامل فى شيء ؛ إذ تؤيده بعض الروايات القديمة ؛ ومن الحقق أنها تزوجت الكونت فرديناند الجليقى ولد الكونت بيدرو فرويلاز صاحب ترافا ، وأخا عشيقها السابق برمودو وشاطرته الحكم ، وأنها حاولت حتى بعد أن بلغ ولدها ألفونسو هنريكز الرشد أن تحتفظ بالسلطة ، وأن تنزعها من ولدها لتقدمها إلى زوجها .

وكان ألفونسو هنريكز مذ بلغ الرابعة عشرة من عمره (سنة ١١٢٤) قد انتش بثوب الفروسة وفق تقاليد العصر ، وأجازه لذلك الملك ألفونسو ريمونديز ، وفى سنة ١١٢٧ م التى ألفونسو ريمونديز عقب وفاة أمه أوراكا بقليل بالملكة تيريزا وزوجها الكونت فرديناند فى مدينة سمورة ، وتباحث معهما فى تسوية

الأمر المعلقة بينهما ، وعقد مهمما السلم إلى حين بشروط لانعرفها .

وكان الأمير الفتى ألفونسو هنريكز يبدى كل يوم من صفات الفروسة ، ومن الذكاء والفتنة ، ما يؤهله لأن يتولى بنفسه شؤون الحكم ، وكان الشعب بحبه لفصاحته ورقة خلاله وجمال طلته ؛ وكانت تقواه وتوقيره لرجال الدين مما بزين فروسته ، ويكسبه تعظيم رجال الدين ؛ ولم يلبث أن دبرت لتأييده مؤامرة اشترك فيها معظم الأشراف والأخبار ، وكان نصيبها التوفيق ؛ ونزل الولد في جنده ميدان الحزب ضد أنه ، ونشبت بينهما موقعة دموية في سنت ماميتي على مقربة من جويرانس ، هزمت فيها الأم وأسرت ، وألقيت في السجن أعواما تكفر عن زلاتها ، ونفى زوجها في السر الكونت فرديناند من المملكة ، ونفى معه كثير من أنصاره ؛ وحاول أخوه الكونت برمودو صهر الملكة وزوج ابنتها ، أن يعمل لرد الملكة إلى سلطانها ، ولكنه أخفق تمام الإخفاق ، ونفى مثل أخيه ، وتولى ألفونسو هنريكز الحكم في سنة ١١٢٨ م ، وقد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، مستقلا ، دون أن يمتدح بسيادة قشتالة .

٤ — ألفونسو هنريكز أمير البرتغال

وما كاد ألفونسو هنريكز يقبض على زمام الحكم حتى اضطربت بين البرتغال وقشتالة حرب دامت بضعة أعوام ؛ ذلك أن ألفونسو ريمونديز كان يعتبر البرتغال إقليما من أقاليم مملكته ، أو على الأكثر ولاية وراثية في أسرة الكونت هنري ، فلما أبى ألفونسو هنريكز أن يقدم إليه طاعته وأن يقسم عيى الخضوع له ، أعلن أنه خارج عليه ، ثم غزا البرتغال بحجة العمل على إنقاذ عمته تيريزا ، ومعاينة الخارج على سيادته . وليس في وسعنا أن نتببع حوادث هذه الحرب نظرا لفسالة التفاصيل المتعلقة بها ، ولكننا من جهة أخرى نعرف نتائجها . ذلك أن الملكة تيريزا توفيت في سنة ١١٣٠ م ، واجتمعت بذلك كلمة جميع الأحزاب حول ألفونسو هنريكز ؛ ومع أن ملك قشتالة استطاع في البداية أن يتقدم في البرتغال ،

فان ما حدث عندئذ من نشوب الخلاف بينه وبين ملك أراجون ، وحدث
القتال في قشتالة ، وغارات المسلمين على أراضيه ، حملته على الارتداد ؛ وعهد إلى
مطران كومبوستل وأشراف جليقية بمطابقة الحرب ، ولكنها سارت عندئذ
يبطء ؛ وليس بعيدا أن يكون أشراف جليقية ، الذين كانوا يفكرون عندئذ في
الخروج على ملك قشتالة ، قد تمعدوا معاونة العدو الذي عهد إليهم بحاربه ؛
وهذا ما يوضح لنا ما كان يعمد إليه ألفونسو هنريكز في غاراته على جليقية من
التفريق بين الخصوم والأصدقاء ؛ وكان من خصومه بالطبع السكونت فرديناند
بيريز وأسرته ، وكان يقيم في جليقية منذ نفيه من البرتغال .

ولما رأى ملك قشتالة ضالة النجاح الذي أحرزه جيشه ، وانشغاله بنارات
المسلمين ، ثم تفاقم شؤون أراجون ، وما حملته إياه من التفكير في ترك جميع
الأراضي الواقعة في مملكته بين نهر الايرو وجبال البرنيه ، اضطر أن يعقد مع
البرتغال الهدنة لبضعة أعوام ؛ وكان البرتغاليون أثناء ذلك قد عبروا نهر منهو
وافتحوا منطقة ليميا ، وأقاموا فيها قلعة منيعة ، فردهم القشتاليون ثانية إلى ما وراء
النهر ، وهدموا القلعة ، وأسروا حاميتها .

ولما توج ملك قشتالة في ليون ، في سنة ١١٣٥م ، قيصر اسبانيا ، وأعلن تبعية
جميع أمراء اسبانيا إليه ، أبدت البرتغال منذ البداية معارضتها لهذا الادعاء ؛
وسرعان ما حطم جارسيا الرابع ملك نافار هذا النير الذي تدعيه قشتالة ، وعقد
حلفا مع البرتغال ، وشهرا الحرب معا على القيصر (سنة ١١٣٦) ؛ وبينما سار
القيصر بنفسه لمحاربة الملك جارسيا ، إذ زحف البرتغاليون على جليقية ، وافتتحوا
مدينة توي وعدة مواضع أخرى ، وعاونهم السكونت جومز نونيز والسكونت
رودريك بيريز الثائران على القيصر ، معاونة قوية ، وأقسموا الطاعة لأمير البرتغال ؛
وتولى الدوق فرديناند أبازر صاحب ليميا الدفاع عن جليقية ، واستطاع أن يقف تقدم
البرتغاليين ؛ ثم وردت الأمداد إلى البرتغاليين ، واجتمع في الوقت نفسه تحت
راية السكونت فرديناند بيريز والسكونت رودريك فيلي جميع الذين بقوا على

إخلاصهم للقيصر من أهل جليقية ، والتقى الفريقان التحاربان في موضع يسمى « سرنيزا » ومع أن الجليقيين قاتلوا بمنتهى الشجاعة ، وضرب قاذنهم أروع الأمثال في الجرأة والبسالة ، فقد بدا أيضا في هذه الموقعة أن مصائر القتال تتوقف قبل كل شيء على براعة القادة ، وليس على كثرة العدد ، ولا على شجاعة المحاربين العمياء . ومن ثم فقد أحرز الفونسو هنريكيز على خصومه نصرا باهرا ، بيد أنه لم يستطع أن يجنى ثمرة نصره ، إذ وصلته الأنباء بأن المسلمين افتتحوا مدينة « ليريني » وقتلوا قسما من حاميتها وعاثوا في مناطق الحدود ؛ فارتد مسرعا إلى قلعية ليعمل على رد أعداء النصرانية عن حدوده ، ولكن المسلمين كانوا قد ارتدوا عندهم إلى أراضيهم حرصا على غنائمهم ، واستطاع الفونسو هنريكيز أن يمود ثانية إلى جليقية ؛ على أن مصائر الحرب كانت قد تغيرت عندهم . ذلك أن فرديناند اباز صاحب ليميا استطاع في هذه الأثناء أن يجمع فلول الجيش القيصري ، وأن يدفع البرتغاليين عن كل شبر من الأرض ، وكان أمير البرتغال يقاتل بشجاعة على رأس جنده فجرح في إحدى الوقائع ، واقتضى لملاجه وبرئه بعض الوقت قبل أن يستطيع العودة إلى ميدان الحرب .

وفي تلك الأثناء كان القيصر ، قد رد ملك نافارا إلى جباله الوعرة وقلاعه المنيعه ؛ وبعد أن ترك قوة احتياطية على حدود نافارا لمراقبتها ، سار في قواته من ليون إلى البرتغال ، واستولى على عدة قلاع ، وعاث في بساطتها ؛ ولما رأى ألفونسو هنريكيز تفوق العدو عليه في العدد ، تذرع بالفتنة وحرص على أن يجتنب الاشتباك معه في أية موقعة فاصلة ، وأن يعتمد إلى إنهاك الليونيين ، وحملهم على القيام بحملات طائشة ؛ ونجحت الفكرة أيما نجاح ؛ فقد سار الكونت ردمير ، في قوته بجرأة ، وما كاد يعتمد عن الجيش القيصري ، حتى طوقه البرتغاليون فجأة ، وهزموه ، وأسروه ؛ واعتبر القيصر بهذا الدرس ، فأصدر أوامره الصارمة بمنع الوحدات المختلفة من الابتعاد عن الجيش العام ، وأقام معسكرا محصنا على تل « بورتيلادي فيسي » ، وأقام البرتغاليون معسكرهم في الجهة

المقابلة على تل أكثر ارتفاعاً تحميه قلعة « بنيادي رجينا » ؛ وفرق بين المسكرين وادشاسع ؛ وأخذ الفرسان والجند من الفريقين ، يبارون في القتال أزواجاً في هذا الفضاء ، ويمرض كل ما لديه من الجراحة والشجاعة برأى من الجيشين المتحارين . ولكن عقم هذه المبارزات التي هلك فيها كثير من الفرسان من الفريقين ، وحصانة المسكرين مما يمرض الفريق المهاجم إلى الهلاك ، والخوف من أن طول الحرب يمكن المسلمين من القيام بفارات ناجحة في أراضي قشتالة والبرتغال ، كل هذه حملت الفريقين على التفكير في تسوية الخلاف بالحسنى . وازل ألفونسو هنريكز على نصيح قاده ، فأرسل رسله إلى القيصر بطلب الصلح ، فاستقبلهم القيصر بترحاب ، واتفق الطرفان في الحال على التهادن حتى يعقد الصلح . وفي رواية برتغالية قديمة ، أن ألفونسو هنريكز استطاع أن يحصر القيصر في « فالديز » ، وأن يوحنا مطران براجا هو الذي توسط في عقد الصلح . وترك تنظيم السلم إلى الاشراف من الفريقين ؛ واتفق قبل كل شيء وحتى يعقد التفاهم ، على تبادل الأسرى من الجانبين ، وعلى إعادة الحدود بين البلدين كما كانت في آخر عام من حكم الملكة تيريزا ، ولم يتفق على شيء بالنسبة للنقطة الجوهرية التي أثار النزاع ، وهي مسألة سيادة قشتالة على البرتغال ؛ فبقى ألفونسو هنريكز أميراً (كونتاً) للبرتغال ، ولكنه ألزم بتسليم الزعيمين الثائرين اللذين أثارا الحرب وهما الكونت رودريك بيريز والكونت جومز نونيز ؛ وفر الأخير وعبر البرنيه إلى فرنسا ، والتحق راهباً بدير « كلوني » ؛ وأما الأول فقد التجأ إلى رحمة القيصر فمعا عنه . وأقسم الأشراف من الفريقين على مراعاة شروط الصلح . ثم اجتمع القيصر ألفونسو ريمونديز ، وألفونسو هنريكز معا في خيمة واحدة ، وقبل كل منهما الآخر ، وأكلا وشربا معا ؛ ثم عاد كل منهما إلى عاصمته في أمن وسلام . وهكذا انتهت الحرب بين قشتالة والبرتغال ، وذلك في سنة ١١٣٨ م .

٥ — ألفونسو هنريكيز أول ملك للبرتغال

لما اطمأن ألفونسو هنريكيز^(١) بمقد الصلح على حدود إمارته من ناحية المملكة النصرانية ، أخذ في الأهبة لمحاربة المسلمين ، أولاً لينتقم منهم لما أوقعوه من الغارات والعيث في أراضي البرتغال ، وثانياً لكي ينتزع منهم بعض الأراضي ويوسع بذلك حدود الإمارة ، فيقوى بذلك دعواه في الاستقلال بالاستناد إلى أنه افتتح معظم أراضيه من يد أعدائه المسلمين . ثم خرج في جيش من صفوة الجند البرتغاليين لا يجاوز عدده عشرة آلاف مقاتل ، وسار إلى ضفاف التاجه في أراضي وإلى الغرب (غربى الأندلس) وذلك في أوائل سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) ؛ فلما علم المسلمون بمقدم البرتغاليين جمع ولاية بطليوس ، وإبارة ، وباجه ، وإشبيلية جيشاً عظيماً أسندت قيادته إلى الوالى أسمر (ولعله إسماعيل) ، والتقى الفريقان في مكان يسمى «أوريك» (واسمه الآن كابيزا دى راييس) على ضفة التاجه اليسرى ؛ وعلى مقربة من ملتقى نهر كوبريس بنهر ترجيس ؛ وتقول بعض الروايات المتأخرة المفرقة إن عدد المسلمين كان زهاء أربعمائة ألف مقاتل ؛ على أنه يبدو من سرعة التعبئة والحركة أنه كان من المستحيل على المسلمين أن يحشدوا مثل هذا العدد . أما أقدم الروايات النصرانية التي تتحدث عن حملة السكونت ألفونسو (ولاً توجد عن ذلك روايات عربية معروفة) فلا تذكر شيئاً عن عدد البرتغاليين والمسلمين ؛ وكل ما تقوله الروايات البرتغالية بايجاز هو ما يأتى : فى ٢٥ يولييه ، يوم الاحتفال بمولد القديس ياقب دى آرا ، عام ١١٣٩ ، وهو العام الحادى عشر من حكم ألفونسو ، اشتبك هذا الأمير فى معركة عظيمة مع ملك المسلمين (والروايات النصرانية تمت الولاية بالملك) واسمه أسمر ، فى موضع يسمى «أوريك» ؛ وكان

(١) سبق أن أشرنا إلى أن الرواية العربية تعرف ألفونسو هنريكيز «بابن الريق» ، وأن كلمة الريق هذه إما هى تحريف لاسم هنريكيز أو انريكو أى هنرى وهو اسم أبيه ، ثم هى تعرفه بأنه صاحب قلعية ، أعنى صاحب البرتغال ، لأن قلعية كانت يومئذ عاصمة البرتغال (راجع ابن الأبار فى الحلة السيرة ص ٢٠٠) .

في جيش المسلمين كثير من النساء يرتدين ثياب الرجال ، ويقاتلن على طريقة الفرسان ، واكتشف النصرى ذلك بمد الموقعة حينما وجدوا كثيراً منهم بين القتلى ؛ وكان النصر فى جانب ألفونسو ؛ ولم ينقذ قائد المسلمين أسمر سبوى الفرار ، ولكن أميراً مرابطياً هو ابن أخى سلطان المرابطين على ، ويدعى عمر الطاجور^(١) كان بين الأسرى .

ولا تذكر الروايات الإسبانية شيئاً عن هذه الموقعة : وحتى رودريك التليطلى ، ولوفا التليطلى ، يتحدث كل منهما فى روايته الضافية بمباراة عامة عن حروب أمير البرتغال ضد المسلمين ؛ وقد وجدت فى سنة ١٥٩٦ ، فى « الكوبازا » وثيقة مختومة تتحدث عن هذه الموقعة بإسهاب ؛ بيد أن صحة هذه الوثيقة أمر مشكوك فيه جداً ، وبفرض صحتها ، فإن ما ورد فيها من الوقائع لا دليل على صحتها ؛ وتقدم هذه الوثيقة التى قيل إنها وضعت فى سنة ١١٥٢ بأمر ألفونسو هنريكز تذكر أن الموقعة « أوريك » ، عن هذه الموقعة تفاصيل مسهبية ، ولكن مدهشة ، لا يوجد ما يؤيدها . وخلاصة ما تقصه علينا ، أن البرتغاليين اشتبكوا فى مروج « أوريك » مع إسماعيل وأربعة آخر من ملوك المغاربة وجيشهم الذى لا يحصى ؛ غلبت شجاعتهم ويئسوا من النصر ، ولم يفكروا إلا فى إنقاذ أنفسهم بالفرار ؛ ولكن المسيح نفسه ظهر بالليل مصلوباً ، للكونت ألفونسو هنريكز ، وأمره أن يتدرب بالشجاعة فى القتال ، ووعدته بالنصر فى تلك المعركة وكل معركة أخرى يخوضها ، كما وعده بأن يضع الملكة التى تقوم على أثر هذه الموقعة تحت حمايته ورحمته ، وأمره بأن يحمل شعارها مكوناً من جروح المسيح الخمسة ، والقطع الفضة الثلاثين التى قبضها يهوذا أجرة خيانة المسيح .

وتستطرد الروايات اللاحقة ، فتقول إن ألفونسو قص فى اليوم التالى على جيشه نبأ هذه الرؤيا ، فاشتدت عزائم البرتغاليين ، وسرعان ما وضعوا على رأس الأمير تاجاً من الأغصان الخضراء ، ونادوا بملك البرتغال ، وفاضت نفوسهم

(١) لم نجد فى المراجع العربية أى ذكر لهذه الموقعة .

رغبة في محاربة المسلمين ، وأحرزوا هذا النصر الباهر في « أوريك » على الأعداء ، ثم أمر الملك ، حسبما تقول الوثيقة المشار إليها ، أن يكون شعار الدروع البرتنالية خمسة دروع صغيرة تمثل جراح المسيح ، توضع في شكل صليب ، وينقش في كل منها ثلاثين نقطة من الفضة ويملو الصليب رمزاً لشعبان موسى ^(١) .

وإذا كنا لا نستطيع أن نثق بصحة هذه الوثيقة ، فإنه من الثابت مع ذلك أن ألفونسو هنريكيز ، الذي كان يلقب منذ زعت تيريزا من الحكم بلقب القومس أو الدوق أو الانفانت أو الأمير ، قد تلقب حسبما يدل عليه الوثائق عقب انتصاره في موقعة « أوريك » بألقاب الملك ؛ معتقداً أن انتصاره على عدد من الأمراء المسلمين بقودون مثل الجيش الزاخر مما يؤهله للملوكية ؛ وبلغ من ثقته عندئذ بقوة الجيش البرتغالي ، الذي أتاحت له مثل هذه الفتوح العظيمة في أراضي المسلمين ، أن عقد العزم على محاربة القيصر ، إذا أبي أن يعترف به ملكاً على البرتغال . والظاهر أيضاً أن البعوث البابوية الكردينال جيدو الذي كان يومئذ في اسبانيا قد حث ألفونسو هنريكيز على اتخاذ هذه الخطوة ، ونصح إليه — سعيًا إلى توسيع سلطة البابوية الزمنية — أن يعمل على توطيد استقلاله عن قشتالة ، وأن يعلن انضواءه تحت رعاية الكرسي الرسولي ، وأن يدفع إليه جزية رمزية قدرها أربعة أفلاس من الذهب دلالة على خضوعه ، وأن الملك الجديد استمع إلى نصحه ؛ وكان القيصر ألفونسو ريمونديز يومئذ مشغولاً بحرب النافاريين والمسلمين ، فلم يرقه اتخاذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك ؛ بيد أنه نظراً لأنه لم يكن في وسعه يومئذ أن يحاول إخضاع الملك الجديد بالسيف ، فقد اكتفى بأن أرسل إلى البابا أنوسان الثاني رسولا يخبره بأنه لا يوافق على اتخاذ ألفونسو هنريكيز لقب الملك ؛ فأرسل البابا إلى اسبانيا سفيراً من قبله ليمحط موضوع النزاع ، ولمسه أراد بذلك أن يكسب وقتاً ؛ واقترح السفير على القيصر أن يعترف بالبرتغال كملك ، على أن

(١) لا تزال هذه الدروع الخمسة الرقومة في شكل الصليب شعار العلم البرتغالي حتى يومنا .

يعترف ألفونسو هنريكز مقابل ذلك بخضوعه لسيادة قشتالة كتابع لها . واستغرقت المفاوضات في هذا الشأن أعواماً ، كان ملك البرتغال يعمل خلالها على توطيد استقلاله ؛ ولم ينتظر مصادقة على استقلاله من جانب البابا — فقد سمح له فقط بأن يتسمى بالملك — أو من جانب القيصر ، بل وضع بالاتفاق مع شعبه ، ممثلاً في طبقاته الثلاث ، في المجلس الذي عقد في لاميجو سنة ١١٤٣ م ، لائحة اتخذت من ذلك الحين أساساً لدستور البرتغال ، وإليك ما عني به مجلس لاميجو من الشؤون والقرارات :

٦ — مجلس لاميجو (١)

لما أبدى البابا تردده في الاعتراف باستقلال البرتغال عن قشتالة ، واستمر القيصر يهدد البرتغال بالحرب ، دعا ألفونسو هنريكز رجال الدين والأشراف ومندوبي المدن إلى عقد اجتماع وطني في لاميجو ؛ وعرض فيه المكتوب البابوي الذي يلعب فيه ألفونسو بالملك ، ثم سأل ممثل الملك ، لورتوس فنيجاس الحضور ، عما إذا كان ألفونسو الذي نودى به ملكاً في ميدان الحرب في أوريك ، يبق ملكاً ؛ ولما أجاب الحضور بالإيجاب ، ووافقوا أيضاً على أن يكون الملك متوارثاً في أعقابهِ الذكور ، نهض مطران براجا ، ووضع على رأس ألفونسو تاجاً من الذهب المرصع بالجواهر ؛ ثم نهض الملك الجديد وسيفه المسلول في يده ، وضادق على القوانين التي قدمها إليه ممثلو الطبقات للمصادقة ، وعددها ثلاثة ، الأول يتعلق بوراثة العرش ، والثاني يتعلق بالأشراف ، والثالث يتعلق بإقامة العدل .

فأما المسألة الأولى فقد تقرر بشأنها ما يأتي : ان وراثة العرش تكون للأولاد من الذكور ، بالتسلسل من الأب إلى الابن وهكذا ؛ فإذا توفى الولد الأكبر قبل أبيه ، خلفه في الوراثة أخوه الذي يليه في السن ؛ فإذا توفى الملك دون ولد (ولم يكن لهؤلاء عقب) يتولى العرش أخو الملك ؛ ولا تحق الولاية

(١) والمقصود به هنا البرلمان Cortes

لولده من بعده ، إلا إذا اختاره الشعب بطلباته الثلاث لولاية العرش ، أما فيما يتعلق بالابنة ، وهل يحق لها أن تحكم ، فقد اختلف الرأي في البداية ، ثم تقرر في النهاية بشأنها ما يأتي : إذا توفي الملك دون عقب من الذكور ، وترك ابنة ، فإنها تتولى الملك من بعده ؛ ولكنها لا تستطيع أن تتخذ لها زوجاً إلا من أشرف البرتنال ؛ ولا يمكن أن يندو هذا الزوج ملكاً ، إلا إذا رزق من زواجه عقباً من الذكور ؛ ولا يحق له أن يجلس في الاجتماعات العامة إلا عن يسار الملكة ، ولا يحق له أن يضع التاج على رأسه .

وأما المسألة الثانية وهي مسألة الأشراف ، فقد تقرر ما يأتي : ينتمى إلى أرفع طبقة من النبلاء ، كل شخص يجري في عروقه الدم الملكي ؛ وينتمى إلى طبقة الأشراف كل من وفق إلى إنقاذ الملك أو أحد أقاربه المقربين ، أو إلى إنقاذ العلم الوطني في ميدان الحرب ؛ وأبناء الذين يموتون في سبيل النصرانية ، في أسر المسلمين ، وأولئك الذين يقتلون في الحرب أميراً من الأعداء أو ولداً له ، أو من ينضم علماً من أعلام الأعداء ، وكل من انتمى من قبل إلى رجال الخصاص (البطانة) أو الأشراف ، وكذلك كل من حارب في موقعة « أورليك » فهو وعقبه يحسبون من الأشراف .

وترفع صفة النبيل والشرف عن أى شخص يفر من ميدان الحرب وعن عقبه ، وكل من يضرب أنثى بالسيف أو بالحربة ، وكل من يتخلف في ميدان الحرب عن إنقاذ الملك أو ولده ، أو إنقاذ العلم الوطني متى أتيح له ذلك ؛ وكل من حلف يميناً كاذبة ، وكل من كتم الحقيقة عن الملك ، وكل من سب الملكة أو بناتها ، وكل من فر إلى المسلمين ، وكل من ارتكب جريمة السرقة ، أو سب السيد المسيح ، أو اعتدى على حياة الملك .

وأما فيما يتعلق بإقامة المدل ، فقد اتخذت القرارات الآتية : يجب أن يدين جميع البرتناليين بالطاعة للملك باعتباره أكبر قاض في البلاد ، ولجميع نوابه في النواحي Alguaziles ، الذين يقيمون المدل وفقاً للقوانين .

ويعاقب على السرقة الأولى والثانية بالتمزير ؛ وفي السرقات الكبرى بالكي بالنار أو بالموت ، وفي الحالة الأخيرة تجب موافقة الملك .

وتعاقب المرأة المتزوجة إذا زنت هي وعشيقتها بالحرق ؛ فإذا عفا الزوج عن زوجها ، وجب الافراج أيضاً عن شريكها .

ويعاقب القاتل بالاعدام مهما كان شخصه ، وكذلك يعاقب بالاعدام كل من اغتصب بكرأ شريفة ، وتؤول تركته إلى المجنى عليها ؛ فإذا لم تكن المجنى عليها من الأشراف وجب عليهما الزواج .

وإذا اغتصب شخص بالقوة أملاك الغير ، فعلى المعتدى عليه أن يلتجئ إلى قاضي الجهة ، ليقوم بفحص النزاع ورد الشيء المغتصب إلى صاحبه .

ويترك الضرب والجرح إلى تقدير القاضي ، ويعاقب عليهما في الأصل بغرامة قدرها عشر قطع من الذهب ، مضافاً إليها ما يقدره القاضي .

وكل من اعتدى على أحد من رجال القضاء بالسب أو الضرب ، يعاقب بالكي بالنار أو بغرامة قدرها خمسون قطعة من الذهب ، وبالتعويض المناسب .

ولما انتهت الموافقة على هذه القوانين ، نهض ممثل الملك لورنتيوس فنيجاس وقال : هل ترون أن يذهب الملك إلى بلاط ملك ليون ، أو يؤدي إليه الجزية ، أو يؤديها إلى أحد آخر سوى البابا الذي عينه ملكاً ؟ فهض الجميع وسيوفهم مسلولة ، وقالوا : نحن أحرار ، وملكنا حر ؛ وقد حررنا أنفسنا بأنفسنا ، وإن ملكاً يفكر في مثل ذلك (أى الخضوع للسيادة الأجنبية) يستحق الموت ، ولو كان قد نولى العرش لما أبقيناه على حكمنا . ثم نهض الملك والتاج على رأسه وسيفه في يده وقال : إنكم تعلمون كم حرباً خضت في سبيل حرياتكم ، وإنكم لشيهود على هذه اليد وهذا السيف ؛ إن من يفكر في مثل ذلك (أى الخضوع للسيادة الأجنبية) يستحق الموت ، ولو كان ولدي أو حفيدي ما حق له الحكم ، وعندئذ قال الجميع : لقد أحسنت القول ؛ إن هؤلاء

سيموتون ، ولو تولى مثل هذا الملك لما سمح له بالحكم لأنه فكر في الخضوع للسيادة الأجنبية ؛ وقال الملك : أجل فليكن هذا .

وهكذا قامت مملكة البرتغال ، واستطاع قومس (كونت) بالورانه ، وسيد للبلد الصغير الذى يقع من نهري منهو ومنديجو ، والذى يكاد يقسمه نهر دوبره الأدنى إلى قسمين متساويين ، أن ينتهز ظروف عصره ، وأن يجعل نفسه مستقلا عن قشتالة . واعتمد ألفونسو على نصره على المسلمين ، وما أسفر عنه من ضم شقة كبيرة من الأرض إلى إمارته تمتد حتى نهر تاجه ؛ ثم على قوته التى لم تقهرها قوى القيصر ، فاتخذ حين عودته ظافراً من موقعة أوريك ، ألقاب الملك ، وحصل على موافقة البابا على ذلك ، ووضع أسس استقلال البرتغال فى عهد عقده مع الشعب البرتغالى ، ممثلاً فى طبقاته الثلاث ؛ وهى التى تولت بنفسها التشريع لنظم الحكم والإشراف وإقامة العدل .

تم الجزء الأول

بيان عن المصادر

- ١ -

ذيل المؤلف كتابه بطائفة كبيرة من التعليقات والمصادر ، جمعت معا في قسم واحد (ص ٣١١ وما بعدها) . ولما كان المؤلف قد وضع كتابه منذ أكثر من مائة عام ، ظهر في خلالها كثير من المصادر والآثار المتعلقة بتاريخ الأندلس من عربية وأفريقية ، فقد رأينا أن نستبدل هذه التعليقات بهوامش وتحقيقات جديدة ، نعنى فيها عناية خاصة باستمرار الروايات الإسلامية . على أننا رأينا مع ذلك أن نثبت أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤلف ولا سيما المصادر النصرانية التي تجهلها الرواية الإسلامية في الغالب .

ففي عصر فرديناند الأول وتاريخ اسبانيا النصرانية منذ سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٨٦ م ، أعنى إلى افتتاح النصارى لمدينة طليطلة ، يعتمد المؤلف على مصدرين معاصرين هما :

(١) *Chronicon Monachi Silensis* أى « أخبار رهبان سيلوس » ومطبوع في سلسلة (*Florez : Espana Sagrada T. XVII*) ؛ والثانى (٢) *Chronicon Pelagii Episcopi Ovetensis* أى « أخبار بلاجيوس أسقف أوفيدو » ، ومطبوع في نفس السلسلة (الجزء الرابع عشر) ؛ وهو حسبما يقول المؤلف مصدر ضعيف يكثر فيه السقط والتحريف .

وطائفة من روايات الأديار مثل أديار كومبستل وبرغش وقلمرية وطلطلة ، وقد جمعت معا في نفس السلسلة في الجزء الثالث والعشرين ؛ وهذه لا تحوى سوى التواريخ والأسماء . ثم *Chronicon Lusitanum* ، وهى رواية أكثر تفصيلا ، وقد طبعت في نفس السلسلة في الجزء الرابع والعشرين .

وأما المصادر اللاحقة فأهمها رواية لوقا التطيلي المسمى (أخبار العالم) *Lucas Tudensis : Chronicon Mundi* المطبوع في فرانكفورت سنة

١٦٠٦ في سلسلة Hispana illustrata (الجزء الرابع) ؛ ورواية رودريك مطران طليطلة^(١) Rodericus Archiepiscopus Toletanus ، ومطبوع في نفس السلسلة (الجزء الثاني) . وقد كتبت كلتاهما في أوائل القرن الثالث عشر ؛ وتاريخ اسبانيا العام الذي كتبه الملك ألفونسو العالم Cronica general de Espana . وقد كتب في أواخر القرن الثالث عشر . وفي هذه المصادر تحتلظ الأساطير بالتاريخ في مواطن كثيرة ، ولكن لا يصعب على الباحث المحقق أن يستخرج منها الوقائع الصحيحة ؛ وتاريخ المطران رودريك هو أشهر هذه الآثار النصرانية خصوصا وقد اعتمد فيه على كثير من الآثار الإسلامية المعاصرة والسابقة .

هذا إلى طائفة من الآثار التاريخية العامة التي كتبت في عصور متأخرة اسبانية وغيرها مثل تواريخ ماريانا (Mariana) وفيرراس (Ferreras) وماسدي (Masdeu) وأورتس إي سانز (Ortiz y Sanz) ؛ وغيرها وآثار جامعة متنوعة أخرى نذكر منها :

Sandoval : Histor. de los Reyes de Castilla y de Leon (Pampl. 1634).

(تاريخ ملوك قشتالة وليون)

Annales de Navarra (Pampl. 1766).

(أخبار نافارا)

Zurita : Annales de la Corona de Aragon (Zarag. 1610).

(تاريخ عرش أراجون)

Dom Vissette : Histoire de Languedoc.

(تاريخ لانجدوك)

Von Schmidt : Geschichte Aragoniens (Leipzig 1829).

(تاريخ أراجون)

(١) وهو مطبوع أيضاً باللاتينية مع الطبعة العربية لتاريخ المسكين بن العميد المطبوع في لندن سنة ١٦٢٥ .

أما الأخبار الوافية عن دول اسبانيا المسلمة منذ سقوط الخلافة الأموية حتى
مقدم الرابطين إلى شبه الجزيرة أو بعبارة أخرى تاريخ ملوك الطوائف ، فلا توجد
إلا في المصادر العربية ؛ وقد جمع منها كوندى Conde طائفة كبيرة في كتابه :
Hist. de la Domincion de los Arabes en Espana في الجزء الثاني
والثالث ، واعتمد بالأخص على مؤرخ قرطبي عاش في القرن الخامس من
الهجرة هو ابن بشكوال . وكذلك نقل منها كاردون Cardonne في كتابه :
Hist. de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des
Arabes ؛ ومورنى Murphy في كتابه History of the Mahometan Em-
pire in Spain ؛ ووردت في فهرس الفزيرى Casiri عن مكتبة الاسكوريال
Bibliotheca Arabico-Hispano Escorialensis ، نبذ وشذور قيمة نقلها
عن ابن الخطيب وغيره ؛ واعتمد المؤلف أيضا على تاريخ أبي الفدا (والترجمة
اللاتينية) ، وعلى تراجم ابن الأبار القضاعى ، وعلى معجم دربلو (D'Herbelot) ،
وعلى تاريخ العرب الذى وضعه رودريك الطليطلى Historia Arabum ؛ وأما
عن تاريخ الرابطين والموحدين فأكثر ما يعتمد عليه المؤلف ، كتاب أبي الحسن
ابن على بن أبى زرع المسمى روض القرطاس ، الذى نشر بعناية المستشرق
Dombay فى أجرام سنة ١٧٩٤ ، ثم نشر بعد ذلك مع ترجمة لاتينية بعناية
المستشرق Thornberg فى أوبسالة سنة ١٨٤٣ .

وفى يتعلق بالتاريخ الاسبانى من سنة ١٠٨٦ إلى سنة ١١٣٤ م ، ولا سيما عصر
الملكة أوركا وألفونسو المحارب ينوه المؤلف بمصادر منها : Historia Com-
postellana ، الذى كتبه بأمر الأسقف جليبرز (أسقف كومبستل) ثلاثة من
القساوسة ، ونشر فى سلسلة Florez:Espana Sagrada التى سبقت الإشارة
إليها (الجزء العشرون) ؛ بيد أنه يلاحظ أن هذا المؤلف يميل بنوع خاص إلى
تأييد الملكة أوركا والحملة على الملك ألفونسو ؛ و-Cronicon Alphonso Imper-

atoris (تاريخ القيصر ألفونسو) وهو مطبوع في نفس السلسلة (الجزء الحادى والمثرون) ، وقد ضاعت بداية هذا التاريخ ، وما بقى منه يبتدى بموت الملكة أوراكاء ؛ وكتاب Memorias de las Reynas Catholicas (تاريخ الملكات الكاثوليكيات) وهو بقلم Florez ومطبوع بمدريد سنة ١٧٧٧ .

أما تاريخ البرتغال القديم فليست له مصادر معاصرة ذات شأن سوى Cronicon Lusitanum الذى أشرنا إليه ، ورواية موجزة جدا هى Cronicon Conimbricens (تاريخ قلورية) . وفيما يتعلق بالمصور المتأخرة يعتمد المؤلف بتوع خاص على كتاب Monarchia Lusitana (الملكة البرتغالية) الذى كتبه Bernard de Brito حتى سنة ١٠٩٥ وأكمله Antonio Brandao ، وظهر فى المجموعة المسماة Historias de Portugal المطبوعة فى لشبونة سنة ١٨٠٦ (الجزآن الأول والثانى) ؛ وعدة مصادر متأخرة نقلت عنه .

هذا وقد رجعنا فى وضع الهوامش والتحقيقات التى ذيلنا بها على هذا الكتاب إلى المصادر الآتية :

تاريخ ابن الأثير .

تاريخ أبى الفدا .

وفيات الأعيان لابن خلكان .

صبح الأعشى للقلقشنبدى .

معجم البلدان لياقوت .

تاريخ ابن خلدون .

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس .

نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرئ .

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة

فاس لأبى الحسن بن على بن أبى زرع الفاسى .

- قلائد العقيان للفتح بن خاقان .
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب لمبد الواحد المراكشي .
الحلة السيرة لابن الأبار .
البيان المغرب لابن عذارى المراكشي .
الحلل الموشية لابن الخطيب .
أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي .
(وهي مجموعة رسائل وأخبار عن المهدي ، نشرها الأستاذ ليفي بروفسال عن
مخطوط بالاسكوريال مقرونة بترجمة فرنسية)
الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى للسلاوي .
زهوة المشتاق للشريف الادريسي
وأبضا ، تاريخ دوزي :
Hist. des Musulmans d'Espagne الطبعة التي أصدرها الأستاذ ليفي
بروفنسال (الجزء الثالث) .
وتاريخ كوندى (الترجمة الفرنسية) :
Hist. de la Domination des Arabes en Espagne.
-

فهرس

للأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية

ومقابلها الأفرنجي

لما كانت الأعلام الجغرافية الأندلسية ، لا تزال تنقل في كتبنا الحديثة مخرفة عن نصوصها الأفرنجية على خلاف كبير في رسمها بين الناقلين ، ولما كان معظم هذه الأعلام يرجع في الواقع إلى أصول عربية ترجمت عنها الأعلام الأفرنجية المقابلة أو حرفت ، فقد رأينا أن نثبت فيما يلي ، أهم الأعلام الجغرافية الأندلسية بأصولها العربية ومقابلها الأفرنجي ، وأن نضيف إليها بمض الأعلام التاريخية التي وردت في الكتاب ، ومقابلها العربي ؛ وقد آثرنا أن نكتب الأعلام الأفرنجية برسمها الإنكليزي ، نظراً لأنه أكثر شيوعاً من غيره ، ولأن الفرق بينه وبين اللغات الأخرى يسير واضح .

Agmat	أغمات
Alarcos	الأرك
Alava et Castella Vetulla	ألبة والقلاع
Albacete	البيط
Albarracin	شنتمة الشرق (شنتمة ابن رزين)
Alcazar	القصر

Alédo حصن لبيط أو حصن ليط
 Algarve الغرب (غربي الأندلس)
 Algeciras الجزيرة (الجزيرة الخضراء)
 Alhambra الحمراء (قصة الحمراء)
 Alicante أليكانت
 Almeria ألمرية
 Almodavar المدور
 Almohades الموحدون
 Almoravides المرابطون
 Almunecar المنكب
 Alpuxarras-Alpujarras البشرات
 Alphonso
 أدفنش — أدفنش — ألفنش
 Alphonso of Aragon
 (Alphonso Sanchez)
 ابن ردمير أو ردمير الفرنجي
 Alphonso Henriquez ابن الريق
 Alphonso Raimundez
 أدفنش بن رمند أو السليطين
 Alpuente البونت
 Alvar Fanez البرهانس
 Andujar أندوجار
 Aragon
 بلاد أرغون ، أرغن ، رغوثة ،
 الثغر الأعلى

Asturias أستوريش
 Atlantic Ocean البحر الأعظم ، البحر المحيط ،
 بحر أقيانس ، بحر الظلمات
 Avila آبله
 Badajoz بطليوس
 Baza بسطه
 Baeza بياسة
 Balearic Isls الجزائر الشرقية
 Barcelona برشلونة ، برشونة
 Basque (Navarra)
 نبرة ، بلاد البشكنس
 Beja باجه
 Biscay بسكونيه ، بسكونس
 Bermudo برمند
 Barbastro بربستر
 Bobastro ببستر
 Burgos برغش
 Cadiz قاذس
 Calahorra قلهره
 Calatajud قلعة أيوب
 Calatrava قلعة رباح
 Carmona قرمونة
 Carcassonne قرقشونه
 Castellon قسطلون

Castile	قشتالة	Frangolis	فرنجولس
Catalonia	قطالونية	Franks	الفرنج
Coria	قورية	Galicia	جليقية أو غلبسية
Cerdagne	شرطانية	Garcia	غرسية
Ceuta	سبتة	Gibraltar	جبل طارق ، جبل الفتح
Chinchilla	جنجاله ، جنجيلة	Goths	القوط
Cid Campeador	السيد الكنيطور ، القنيطور ، لدريق القنيطور	Granada	غرناطة
Cintra	شنترة	Guadalajara	وادي الحجارة
Coimbra	قلنبرية ، قلنبرية	Guadalquivir	وادي الكبير ، النهر الكبير
Cordova	قرطبة	Guadarrama	وادي الرملة
Cortes	البرلمان الاسباني	Guadiana	وادي يانه ، وادي آنه
Cuenca	قوانقة ، كونكة	Guadix	وادي آش
Denia	دانية	Hospitallers	الاسبتارية
Daroca	قلعة دروقة	Huelva	ولبة ، أوبنة
Don Pedro	دون بطره	Huesca	وشقة
Duero	نهر دوبره	Huete	وبذه ، وبذى
Ebro	نهر إبره	Ivica	جزيرة يابسة
Ecija	إستجه	Jaca	چاقه
Elvira	إلبيره	Jaen	جيان
Evora	يابه ، يافوره	Jativa (Xativa)	شاطبة
Fez	فاس	Jerez (Xerez)	شريس
Ferdinand	فردلندغز	Jerez Alfronterra	شريس الفرنتيرة
Fraga	إفراغه	Lausitania (Portugal)	البرتغال

Leon ليون
 Lerida لاردة
 Lisbon أشبونة
 Loja لوشة
 Lorca لورقة
 Madrid مجريط
 Malaga مالقة
 Maquada مقودة
 Mauretania
 المغرب الأقصى (مراكش)
 Medinaceli مدينة سالم
 Mequinenza مكناسة (بالأندلس)
 Merida ماردة
 Mertola مارتلة، ميرتلة
 Minorca جزيرة منورقة
 Morocco مراكش
 Mozarabes
 النصارى الماهدون، الماهدون
 Mudijares المدجنون
 Mugavares المجاورون
 Murcia مرسية
 Murviedro (Sagunto) مريبط
 Narbonne أربونة
 Navarra (Basque)
 نبرة، بلاد البشكنس

Niebla لبله
 Normans
 الأرذمانيون، المجوس، النورمانيون
 Ocsonoba أكسونبة، أكشونبة
 Oran وهران
 Orihuela أريواله، أريولة
 Pamplona بنبلونة
 Paterna بطرنة
 Pelagius بلاي، بلايو
 Pyrenees جبال البرت، البرتات
 Ramiro رذير
 Raymond Berengar رمند
 Rhône نهر رذونة، وادي رذونة
 Roda (Rueda) حصن روطه
 Roderic لذريق، رذريق
 Roger رجار الفرنجي
 Roncesvalles
 باب شزروا، باب الشزري
 Ronda رندة
 Sacralias, Zallaca الزلاقة
 Salamanca سلمنقة، سلمنقة
 Sala سلا
 Saltis جزيرة شلطيش
 Sancho شانجه، شانسه
 Santa Maria Algarve
 شنتمرية الغرب

Santarein	شنترين	Toledo	طليطلة
Santiago	سنت ياغب	Tortosa	طرطوشة
Saragossa	سرقسطة	Toulouse	تولوشة
Segovia	سقوية	Tudela	تطيلة
Segura	نهر شقر	Tudmir	تدمير
Sevilla	إشبيلية	Tunis	تونس
Sidonia (Medina)		Ubeda	أبدة
	شدونة ، مدينة شدونة	Ucles	إقليش ، إقليج
Sierra Morena	جبل الشارات	Valencia	بلنسية
Sierra Nevada	جبل شلير	Valladolid	بلاد الوليد
Silves	شلب	Viseu	بازو
Tagus (Tajo)	نهر تاجه ، تاجو	Xativa (Jativa)	شاطبة
Tangier	طنجة	Xenil	نهر شنيل
Tarifa	جزيرة طريف	Xeres (Jerez)	شريس
Tarragona	طركونة	Xeres Alfronterra	
Templars	الداوية (فرسان المبد)		شريس الفرنتيرة
Teriana	طريانة	Zamora	سمورة

فهرس الموضوعات

مقدمة :

الكتاب الأول

تاريخ الأندلس منذ سقوط الدولة الأموية

إلى مقدم المرابطين

صيفة

الفصل الأول : تاريخ الممالك النصرانية منذ اتحاد مملكتي ليون وقشتالة

إلى تقسيم مملكة البشكنس ١٠

١ - فرديناند الأول وإخوته ١١

٢ - أبناء فرديناند الأول ٢٣

٣ - ريموند برنجار الأول كونت برشلونة ٢٨

الفصل الثاني : تاريخ الدول الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية

في إسبانيا ٣٠

١ - الإدارة أو بنو حمود ، وحلفاؤهم في جنوب إسبانيا ٣٢

٢ - بنو عباد ملوك إشبيلية ، وحلفاؤهم بنو جهور أصحاب قرطبة ،

وبنو الألفس أصحاب بطليوس في جنوب غربي الجزيرة ٣٧

٣ - بنو ذى النون ٤٤

٤ - بنو عامر والتجيبون وبنو هود في شرق إسبانيا ٤٦

الفصل الثالث : حروب الطوائف بمؤازرة النصارى حتى افتتاح الفونسو

السادس لطليطة ٤٩

صحيفة

١ — تفوق أمير طليطلة ٤٩

٢ — تفوق أمير إشبيلية ٥٨

٣ — افتتاح الفونسو السادس لطليطلة ٦١

الفصل الرابع : نشأة المرابطين ، وأسباب عبورهم إلى اسبانيا ... ٦٧

١ — عبد الله بن ياسين ٦٧

٢ — فتوح يوسف بن تاشفين في إفريقية ٧٠

٣ — الأخطار المحدقة بالإسلام في اسبانيا ٧٣

٤ — غلبة الفونسو السادس على اسبانيا المسلمة ٧٦

٥ — يوسف بن تاشفين يعزم العبور إلى اسبانيا ٧٨

الكتاب الثاني

سيادة المرابطين في شبه الجزيرة

في عصرى الفونسو السادس ملك قشتالة ، والفونسو المحارب ملك أراجون

الفصل الأول : فتوح المرابطين في اسبانيا ، في عهد يوسف بن تاشفين

وولده على حتى موقعة أفليش ٨٢

١ — حملة يوسف لإيجاد الأندلس ضد الفونسو السادس ٨٢

٢ — خضوع اسبانيا الجنوبية لسلطان المرابطين ٩٧

٣ — ولاية سرقسطة ١٠٧

٤ — فتح السيند لبلنسية ١١١

٥ — الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين ١١٧

٦ — ولايته على المرش ، وحكمه حتى موقعة أفليش ١٢١

الفصل الثاني : تاريخ الدول الاسبانية الداخلى في عهد الفونسو السادس ١٢٥

١ — الشؤون الكنسية ١٢٥

٢ — نظم الدولة والتشريع ١٣٢

صحيفة

- ٣ — تنظيم الفونسو السادس لورثة العرش ١٣٩
- ٤ — إمارة قطلونية ١٤٣
- الفصل الثالث : الفونسو المحارب وعصره ١٤٤
- ١ — حروب النصرى الاسبان والمسلمين منذ موقعة اقلش حتى عود الفونسو من الأندلس ١٤٥
- ٢ — أوركا كملك قشتالة ١٥٨
- ٣ — النضال بين الفونسو ملك أراجون والفونسو ريمونديز ١٦٨
- ٤ — حروب الفونسو المحارب الأخيرة وموته ووصيته ١٧١

الكتاب الثالث

اضمحلال سيادة المرابطين

في عصر القيصر الفونسو ريمونديز وقيام مملكة البرتغال

- الفصل الأول : نهوض مملكة قشتالة في عصر الفونسو ريمونديز ... ١٧٨
- ١ — حروب الفونسو السابع ضد المسلمين ١٧٨
- ٢ — الامبراطورية الاسبانية والأراضي التابعة لها ، نافارا ، وأراجون وقطلونية ١٨٢
- ٣ — حروب النصرى الاسبان ضد المرابطين ، منذ وفاة الفونسو الأراجونى حتى بداية اضمحلال سلطان المرابطين ١٩١
- الفصل الثانى : اضمحلال سلطان المرابطين في إفريقية من جراء ثورة الموحدين ١٩٥
- ١ — أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدى مؤسس دولة الموحدين ١٩٥
- ٢ — حروب الموحدين بقيادة عبد المؤمن ضد علي بن يوسف ... ٢٠٤
- ٣ — حروب تاشفين مع عبد المؤمن ٢٠٨
- ٤ — إبراهيم آخر سلاطين المرابطين في إفريقية ٢١٠

محتبة

الفصل الثالث : نهاية المرابطين ونهاية عصر الامبراطورية فى اسبانيا ٢١٥

١ — ثورة الأندلس على المرابطين ٢١٥

٢ — تقلب القيصر الفونسو بين مخالفة المرابطين والأندلسيين ٢٢٧ ...

٣ — جواز الموحدين إلى الأندلس وفتوحهم الأولى فيها ٢٣١

٤ — حملات النصارى ضد المرية واشبونة وطرطوشة ٢٣٣

٥ — تحالف القيصر الفونسو مع المرابطين ضد الموحدين ٢٣٧

٦ — الأعوام الأخيرة من حكم القيصر الفونسو ٢٤١

الفصل الرابع : قيام مملكة البرتغال ٢٤٧

١ — أقدم الروايات عن البرتغال ٢٤٧

٢ — ولاية البرتغال فى عهد هنرى البورجونى ٢٥٠

٣ — البرتغال تحت حكم الدوناتيرىزا ٢٥٢

٤ — الفونسو هنريكيز أمير البرتغال ٢٥٣

٥ — الفونسو هنريكيز أول ملك للبرتغال ٢٥٧

٦ — مجلس لاميجو ٢٦٠

بيان عن المصادر ٢٦٤

فهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ٢٦٩

الإشراف اللغوى : عزة شـبـل

الإشراف الفنى : محسن مصطفى

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

